الملاك يوجه العاصفة

أسفار الرؤيا و الإمبراطورية الأمريكية

مايكل نورثكوت



ترجمة : د. عبد الرحمن الشيخ



الملاك يُوجّه العاصفة

أسـفار الرؤيـا

والإمبراطورية الأمريكية

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ يناير ٢٠٠٦ م





٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الملاك يُوجّه العاصفة

أسفار الرؤيا

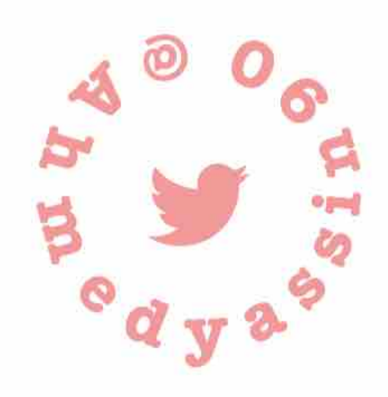
والإمبراطورية الأمريكية

مايكل نورثكوت

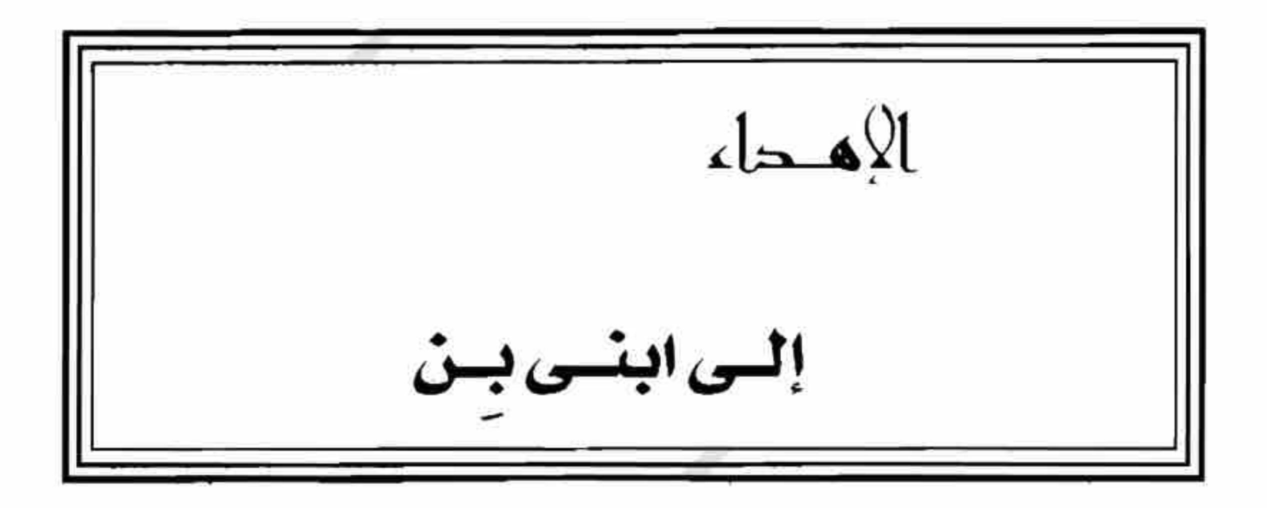
ترجمة

د. عبدالرحمن الشيخ



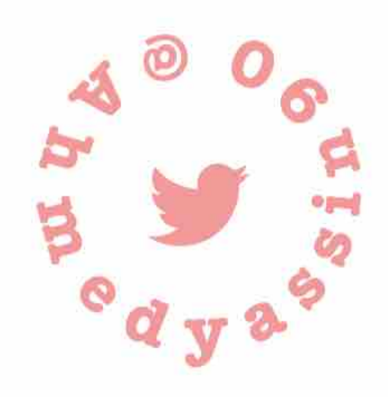

@Ahmedyassin90

المحتويات



الإهداء

إلى ابنى بِن


@Ahmedyassin90

اعتراف بفضل

أودُّ بادئ ذى بدْء أن أعبِّر عن شكرى لأصدقائى الأمريكيين الذين أبدوا لى عواطف جيَّاشة وكرما فائقًا ولُطفًا كثيراً، أثناء زياراتى العديدة للولايات المتحدة. ففى صيف سنة ١٩٦٩م توجَّهت أوَّل ما توجهت - مستقبلا الطائرة - إلى مطار JFK لأكون مع أسرتى فى كونكتكت، كان هذا عندما خطا أمريكى لأوَّل مرَّة على سطح القمر. لقد بدأت - فى ظل هذه الظروف - أتعرَّف على خاصيَّة لصيقة التصاقا وثيقا بالحياة الأمريكية لدرجة أنها أصبحت إحدى ملامحها، وأعنى بها دفْء الروح أو حرارة المشاعر، وكانت هذه الروح وتلك المشاعر هى التى تُعْوزنى، كما كانت هى - غالبًا - التى تحفزنى على العودة للولايات المتحدة مرَّة أخرى.

إننى ممتن لتلميذى الأمريكى تريستن هسَّل طالب الدراسات العليا؛ ذلك لأن مناقشاتى معه هى التى أدَّت إلى تبلْور فكرة هذا الكتاب، كما أننى ممتنّ لدفعة عام ٢٠٠٣ من طلبة الدراسات العليا فى مجال علم الأخلاق المسيحى، فهم الذين قرأوا الكتاب فى شكله المبدئى وحفزونى على المواصلة بتشجيعهم لى. وعندما عدَّلتُ الكتاب بعد ذلك وأظهرتُ مسودَّاته الأولى، علّق عليها - بعمق - عدد من الأصدقاء منهم: مارسيلا ألثاوز - ريد، وثيموثى كلايتون، وكورماك كونّر، ودنكان فورستر، وستانلى هيرواز، وألاستير مكنتوش، وجوليون مايكل، وكيڤن ريد، وولف وايلد.

وقد ألقيتُ بحثًا كان أساسًا لكتابى هذا، فى قسم اللاهوت فى جامعة دورهام، وهى جامعتى التى تخرَّجتُ فيها، وإننى لممتن للتعليقات العميقة التى تقدَّم بها داڤيد

براون، ودوجلاس ديفز، وروبرت سونج، وستيفن سيكس، وقد نُشر هذا البحث فى اللاهوت السياسى «الثيولوچيا السياسية - Political Theology» فى أبريل سنة ٢٠٠٤م. وظهرت أجزاء من هذا البحث فى شكل منقَّح فى صفحات هذا الكتاب، وإننى ممتن لدار نشر إكوَنكس لتعاونها معى.

إننى شاكر لمحرّر كتابى هذا، ألكس رايت الذى يعمل فى مكتب آى. بى. توريز الذى اقتنع بهذا الكتاب حتى قبل أن أقتنع أنا به، كما أشكر الأمناء فى المكتبة الوطنية الاسكوتلاندية ومكتبة النيو كوليچ (مكتبة الكلية الجديدة)، ففى هاتين المكتبتين أنجزتُ معظم هذا المبحث. وأخيرا فإننى أشكر أسرتى - چيل، وليديا وبن وريبيكا وچاكوب (يعقوب) الذين ذكَّرونى أننى لستُ بحاجة إلى خيالات رُؤَوية جامحة، فقد هيّأوا لى بيتا رائعا مريحا فى هذه الدنيا، وهذا لا يمنع أننى بطبيعة الحال آملُ أن يهبنى الله مقرا مريحا فى الحياة الأخرى. إننى أهدى هذا الكتاب لابنى بِنْ وهو عاكف على دراسته فى السياسات والثقافة.

***

مقدمة

لم يكن العالم يعتبر غزو أمريكا للعراق واحتلاله لها فى سنة ٢٠٠٣م - ذلك الغزو الذى ساعد فيه البريطانيون وحرَّضوا عليه - حربًا لها أىّ سند من القانون الدولى، فهى حرب لا يمكن وصفها بأنها عادلة أو أخلاقية.

لقد عارض الزعماء السياسيون من فرنسا وألمانيا إلى روسيا وكندا هذه الحرب، ورفضوا المشاركة فيها، بل ورفضوا أيضا الإسهام فى المصالحة بعد الحرب، والإسهام فى إعادة إعمار العراق. وأبدى الزعماء الدينيون المسيحيون - أيضًا - درجةً من الإجماع غير المسبوق على رفض هذه الحرب. فالبابا يوحنا بولس الثانى، وأسقف كنيسة كانتربرى الإنجليكانية - روان وليامز، كلاهما عارض هذه الحرب معارضةً صريحة، كما عارضها أيضًا رأس الكنيسة الميثودية المتحدة(*) التى ينتمى إليها الرئيس چورج دبليو. بوش. عارضها رأس هذه الكنيسة مع معارضة الزعماء الدينيين للوثرية العالمية، ومعظم الكنائس المَشيخيَّة Presbyterian، بل ومعظم الملل المسيحية فى العالم بما فيها ملّة «المعمدانيين - Baptists»، والأورثوذكس. لكن هذه المعارضة المسيحية الرسمية لهذه الحرب، حجبت عنَّا مدى التأييد الذى لقيته - أى هذه الحرب - من ملايين المسيحيين الأمريكيين ليس من «المعمدانيين - Baptists» المحافظين فى الجنوب الأمريكى

(*) سموا بهذا لإلتزامهم الشديد بمنهج سلوكى معين، وقد أطلق عليهم مناوئوهم هذا الاسم استهزاء بهم، لكنهم تمسكوا بهذا الاسم بعد ذلك. مؤسس هذا المذهب هو چون وسلى فى مطلع القرن ١٨. وكان عدد كبير من الميثوديست من بين المهاجرين إلى أمريكا. وقد انفصلوا عمليا عن الكنيسة الإنجليكانية حوالى سنة ١٧٧٩م. باختصار عن تاريخ الكنيسة. تأليف چون لوريمر، ترجمة عزرا حداد. القاهرة، دار الثقافة، جـ٥، ص٨٢ وما بعدها - المترجم.

فحسب، وإنما أيضا من الكنائس المحافظة التى تزدهر ازدهاراً سريعًا، وكذلك من الكنائس العملاقة في الضواحى والأرياف.

لقد كان دعْم هذه الملايين من المسيحيين الأمريكيين للحرب ضد العراق مُشابهًا لتفجّر روح الوطنية الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، إذ كان المرء يلاحظ - خاصة فى مواقف السيارات المجاورة للكنائس المحافظة - فى صبيحة أيام الآحاد أنّ الملايين يلصقون على نوافذ سياراتهم العلم الأمريكى ذا النجوم والخطوط. لقد كانت هذه الأعلام البلاستيكية الصغيرة ظاهرة تَعِجُّ بها أمريكا كلها.

وكلّ هذا بفضل براعة إدارة بوش فى بيْع مزاعمها الكاذبة عن العراق للشعب الأمريكى - تلك المزاعم التى مؤدَّاها أنّ صدّام حسين يَدْعم تنظيم القاعدة، وأنّه يمتلك أسلحة دمار شامل يمكنه بها أن يشن حربًا ضد دول أخرى، وينوى تسريبها للإرهابيين الدوليين، لذا فحكمه يُشكِّل تهديداً مباشراً لشعب أمريكا - فراحت غالبية الأمريكيين تعتقد أنّ صدّام حسين منخرط فى تدابير هجومية إرهابية على الساحل الشرقى لأمريكا، بسبب التوجّه الإعلامى اللانقدى لوسائل الإعلام الأمريكية التى تهيمن عليها المؤسسات الكبرى.

إننى أستخدم كلمة تبيع، أى تبيع الإدارة الأمريكية هذه الأفكار للشعب الأمريكى، بصدد حديثى عن الإعداد للحرب ضد العراق؛ لأنَّ بوش وشينى وباول ورامسفيلد استأجروا كارولين بيرز، خبيرة الدعاية والمديرة التنفيذية السابقة، المسئولة عن بيع الشامبو المزيل للقشرة (هيد أند شولدرز شامبو) والأرز ماركة العم بن (أنكل بنز ريس). استأجروها لتبيع الحربَ ضد العراق للشعب الأمريكى. لقد كان الهدف - على حدّ قول كولن باول - هو وَضْع علامة مميَّزة (علامة تجارية) على السياسة الخارجية الأمريكية[١]. وطالما أنَّ هذا الهجوم على العراق الذى تم التخطيط له من زمان طويل، يمكن أن يُباع فى إطار علامة أو سمة لسياسة خارجية جديدة (الحرب ضدّ الإرهاب) فقد كان فى مقدورهم دائما أن يضمنوا دعم الشّعب الأمريكى. إننى لا أقول إن الهجوم على العراق عملية «تم التخطيط لها من زمان طويل» عبثًا؛ ذلك لأن خطط إزاحة صدَّام حسين كانت قد نوقشت فى البيت الأبيض منذ أوَّل يوم لإدارة بوش - بل وقبل ذلك - بين النخبة الداخلية للإدارة الأمريكية[٢].

لقد كان دعْم بوش أقوى ما يكون بين ملايين المسيحيين المحافظين الذين كانوا قد صوَّتوا له فى سنة ٢٠٠٠م بوصفه المرشَّح المختار لـ «اليمين المسيحى ـ Christian Right» والذى تتركَّز اهتماماته الأخلاقية على مقاومة الإجهاض، وعلى القيم الأسرية، وعلى إسرائيل، وهى الأمور التى ركَّز عليها فى خطابه للشعب الأمريكى أثناء معركته الانتخابية للوصول إلى الرياسة. هذه الاستراتيچية التى استخدمها فى معركته الانتخابية تعكس وصاله الراسخ منذ فترة طويلة مع اللّوبى المسيحى الإيڤانجليكى منذ حملة أبيه الانتخابية للرياسة فى سنة ١٩٨٨م، ومنذ حملته الانتخابية لمنصب محافظ تكساس. لقد تحوَّل بوش إلى المسيحية «الإيڤانجليكية ـ evangelical» تحت تأثير بيلى جراهام، وآرثر بليست، وغيرهما من الشخصيات الإيڤانجيلية البارزة القريبة من أسرة بوش. وعلى هذا فقد عمد ـ بوصفه حاكما لتكساس ـ إلى دفع أجنْدة اليمين المسيحى المحافظ دفعًا لم يفعله أى حاكم لولاية تكساس قبل ذلك. لقد منع ـ بحسم ـ التمويل الحكومى الموجّه للخدمات الاجتماعية والتعليم، بينما سمح ـ لأوّل مرَّة ـ بتحويل الدعم المالى فى الولاية لمنظمات الخدمات الاجتماعية القائمة على أساس دينى. لقد أعاد صياغة« قانون الضرر (الإساءة والتعدّى) ـ tort law» الخاص بولاية تكساس جاعلاً ـ فى الغالب الأعم ـ من غير الممكن بالنسبة للجماعات أو الأفراد أن يتخذوا إجراءات مدنية ضد الشركات الخاصة عند حدوث وفاة وعند حدوث إصابات أثناء العمل أو ضد الأنشطة الملوِّثة أو المضرّة أو الناتجة عن الإهمال. وأكثر من هذا فقد زاد من شهرة تكساس؛ فى أنها أشد الولايات فى أحكام العقاب، إذ كان من الممكن فيها عقاب ـ حتى الأطفال ـ بعد المثول أمام المحكمة[٣].

وقبل أن يفوز بوش برياسة البيت الأبيض فى انتخابات غير حاسمة بشكل كاف، قام أخوه جب بوش بدور بارز فى قمع أصوات السود[٤] ـ بوصفه حاكمًا لولاية فلوريدا ـ قبل هذا اعترف بوش بأنه يعتقد أنَّ الله استدعاه ليخدم وطنه فى لحظة أزمة كبيرة. لقد قال: «إننى أشعر كما لو أنَّ الله يريدنى أن أكون رئيسا. لا أستطيع أن أشرح كيف حدث هذا، لكننى أشعر أن وطنى بصدد الحاجة إلىَّ. إنّ أمرًا ما سيحدث، عندها سيحتاجنى وطنى»[٥].

***

شعب مختار؟

فصَّل چورچ بوش بوضوح فى خطابه فى يناير سنة ٢٠٠١م بمناسبة توليه منصب الرياسة، اعتقاده بأن الله يدعوه ويدعو أمريكا لقيادة العالم فى معركة حدَّدها الله سَلَفًا (معركة رؤيوية، أشار إليها سفر الرؤيا فى الكتاب المقدس بين قوى الخير وقوى الشر، لتشكيل العالم وفق القيم الأمريكية ـ قيم الحرية والديمقراطية والسُّوق الحر. ولا شك أن استخدام الخطاب الدينى فى خطابات التولية مسألة ليست قَصْرًا على بوش، فقد استخدم كلينتون وريجان وكارتر هذا النوع من الخطاب. لكن بوش ـ على أية حال ـ ذهب إلى أبعد من الدِّين المدنى المعتاد فى مثل هذه المناسبات، بدعوته فرانكلين جراهام(*) بمباركة حفل التنصيب بتبريكات التثليث والصلاة. لقد بدأ بوش خطابه بصياغات تشير إلى الدور «المسيحانى» الممثَّل فى التاريخ الأمريكى بوصفه حافزًا على الحرية، وفى الأمريكيين بوصفهم محررين للإنسانية. قال بوش: «هناك مكان لنا جميعا عبر تاريخ طويل، إنه تاريخ نحن نُواصله، لكننا سوف لا نرى نهايته. إنَّ هذا التاريخ هو قصة عالم جديد أصبح صديقا للعالم القديم ومحرّرا له. قصة مجتمع أخذ بنظام الرقّ لكنه أصبح خادمًا للحرية. قصة قوّة اتجهت للعالم لتحميه لا لتملكه، ولتدافع عنه لا لتغزوه»[٦].

إن أمريكا فى هذه القصة هى «العالم الجديد» «المخلِّص ـ redeemer» للعالم القديم، يحرر أوروپا من ارتكاب المذابح ومن الشمولية التى هدَّدتها فى القرن العشرين. وقد استدعى بوش للذاكرة ـ أيضًا ـ الانتصار الأمريكى فى الحرب الباردة، وسقوط الإمبراطورية السوڤييتية بسبب قوَّة أمريكا العسكرية ومقاومتها الفعَّالة للشيوعية فى مختلف أنحاء العالم. ودافع بوش عن قصة أمريكا بوصفها ممثّلة للحرّية، واعتبار هذا من أعمال الإيمان «الإيمان بالحرية والديمقراطية». إنَّ تعهُّد أمريكا بالتزام هذه العقيدة «الإيمانية ـ faith» هو الذى يجعلها «صخرة صامدة فى بحر هائج» وهذه العقيدة الإيمانية فى الديمقراطية هى أكثر من كونها مجرد عقيدة بلدنا، بل إنه أمل فطْرى لإنسانيتنا. إنه المثل الأعلى الذى نحمله لكنَّه ليس ملكًا لنا، أو بتعبير آخر ليس قَصْرًا علينا. إنه الأمانة التى نحملها والتى نسلمها لغيرنا[٧].

(*) ابن بيلى جراهام، ووريثه الدينى، وصرح بأن الإسلام شر وشرير ـ المترجم.

مرَّةً أخرى نذكر أنَّ هذه المقولة عن التاريخ الأمريكى ليست مُقْتصرة على بوش أو كُتَّاب خطبه. فالأمريكيون يرون تاريخهم من خلال اعتبار أنفسهم ضحايا للظلم، ومناهضين للإمبرياليين، فأمريكيون كثيرون لديهم تراث تاريخى عن أسلافهم، تراث يتحدث عن التحرر، أى عن مسيحيين بروتستانت إصلاحيين راديكاليين يفرون - فى القرن الثامن عشر - من الاضطهاد فى أوروبا، وفر الصقلِّيون والأيرلنديون - فى القرن التاسع عشر - من الفقر، وفرّ اليهود من معاداة السّاميّة، وفر المكسيكيون والجواتيماليون والسلڤادوريون - فى القرن العشرين - من حكم المجالس العسكرية اليمينية، وإن كانت هذه المجالس العسكرية الحاكمة تلقى الدعم والتأييد من الولايات المتحدة. هذه الموجات من اللاجئين فى مدنهم الصغيرة وفى المناطق المجاورة - حضرية وريفية - كان يمكن أن تكوّن فيدرالية فى الوقت المناسب. كان هؤلاء يبدأون فى فهم أنفسهم باعتبارهم قد دخلوا بلدًا عظيمًا شاسعًا يمكن لحكومته أن تقدّم لهم الحريّة؛ لأنها بلد قامت بثورة أطاحت بالسلطة الإمبريالية الأوروبية. هذه الأفكار كانت تجيش فى صدورهم وهم يمرون بتمثال الحرية وهم يعبرون جزيرة «إليس - Ellis»، أو وهم فى طريقهم إلى مستقرّاتهم المتباعدة النائية. وحتى آخر القرن التاسع عشر - على الأقل - لم يكن لهذه الأمّة (الأمريكية) أية طموحات لتأسيس إمبراطورية خاصة بها تمتد وراء حدودها؛ ذلك لأنها كانت مشغولة بإحكام قبضتها على أراضيها الممتدة غربًا وجنوبًا والتى لم تكن قد أصبحت أمريكية بعد، وإنما إسپانية ومكسيكية. وأمريكا فى وعى معظم الأمريكيين أمة مناهضة للإمبريالية، وهو وعى بالذات ينعكس بوضوح فى خطاب الرئيس بوش. وباستدعاء هذا عند هذه النقطة فى حياة بوش، نجده لم يغادر الولايات المتحدة إلاَّ فى مناسبتين، وفى كلتا المناسبتين كانت وجهته هى المكسيك. لقد كانت أمريكا هى عالم بوش قبل أن يصبح رئيسًا لها، وكان فى هذا مثل معظم الأمريكيين الذين ليس لديهم جوازات سفر.

إذا ربطنا هذا بمعنى اكتفاء أمريكا بسبب امتدادها من غابات كاليفورنيا ذوات الأخشاب الحمراء إلى تمثال الحرية فى نيويورك، فهمنا أنَّ أمريكا عالم قائم بذاته. **كل هذا أعطى أمريكيين كثيرين معنًى كان له أيضًا جذور عميقة، وهو أنّهم حقا «شعب مختار - chosen people». فالپيوريتانز (التطهريون) الذين تركوا انجلترا قاصدين**

أمريكا فى القرن السابع عشر، رأوا فى مستوطنتهم الجديدة (أمريكا) أرض الميعاد (أو الأرض الموعودة) التى وهبهم الله إيّاها بتدبيره وحكمته. لقد نجوا من الاضطهاد الدينى فى انجلترا وسعوا لبناء كومنولث مقدّس فى انجلترا الجديدة (نيو إنجلاند) متحررين من فساد بلدهم القديم الذى تركوه.

عند اندلاع الحرب مع السلطات الاستعمارية فى القرن الثامن عشر، وعندما كان الإنجليز يقصفون ميناء بوسطن، راح القس البروتستانتى الأسقفى چاكوب دوش يقرأ من المزمور رقم ٣٥ بحضور چورچ واشنطن فى الكونجرس القارِّى الأوّل، وكان من الواضح من خلال كلمات المزمور التى اختارها، أنه قد جعل أمريكا هى إسرائيل (أو بتعبير آخر جعل أمريكا هى الشعب المختار المقصود بإبرام العهد مع الله): «يا ربِّ كن خصمًا لمن يخاصمنى، وحارب الذين يحاربوننى، تقلَّد الترس والدرع وهُب لنجدتى..[٨]» لقد كان «دوش ـ Duche» مثله فى ذلك مثل الپيوريتانز يُعوِّل على القصة الواردة فى سفر الخروج والتى تدور حول خلاص إسرائيل من العبودية فى مصر، ودعوة الله له (لإسرائيل) ليكون شعبه المختار. لقد تضرَّع دوش لإله إسرائيل ليحارب عن أمته الجديدة (الأمة الأمريكية) ضد الظالمين تمامًا كما حارب ـ أى الله ـ باسم إسرائيل. وكما لاحظ «كليفورد لونجلى ـ Longley»[*] فإن قراءة هذا المزمور فى افتتاح أول اجتماع فى أمريكا الجديدة فى منتصف الانفجار الثورى ضد بريطانيا، إنما كان «بلا منازع عملاً أسّس أمريكا على فهم معين لمقاصد الله. فمن الآن فصاعدا، لم يعد الشعب المختار هو اليهود ولا الكاثوليك ولا الإنجليز، بل ولا الإنجليز الجدد (المهاجرين الإنجليز إلى أمريكا/ النيو إنجلاندرز) وإنما كل الأمريكيين. ومن هنا فأن تكون أمريكيّا يعنى أن لك وضعًا دينيّا مميزًا، بوصفك مختارًا. أن تقول إنك أمريكى فإن لهذا دلالة دينية مثلما يقول شخص ما إنه يهودى أو مسيحى»[٩].

لقد تغلغل معنى الشعب الإلهى المختار فى الخيال الأمريكى، واتخذ مسميات مختلفة «أسلوب الحياة الأمريكى» و «الحلم الأمريكى» و «القَدَر المبين» و «الاستثنائية الأمريكية».

(*) «الشعب المختار ـ الأسطورة التى شكلت انجلترا وأمريكا» كليفورد لونجلى ـ من منشورات مكتبة الشروق الدولية ـ المترجم.

لقد عزف بوش على هذا الوتر فى خطابه الافتتاحى، وفى ردّ فعله إزاء الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر عندما استدعى للذاكرة الجذور الدينية لما كان قد أصبح أمريكا العلمانية وأعاد الأمريكيين إلى «الأصول القُدُسيَّة» وبالتالى نبَّههم إلى دور بلادهم «المقدّس». لقد زعم بوش فى خطابه إلى الإعلاميين الدّينيين فى «ناشفيل - Nashville» **أنَّ للولايات المتحدة مهمة دينية (إرسالية) هيّأها الله لها لجلب الحرية - وهى هبة من الله - لكل البشر فى العالم**[10]. لكن كان هناك التفاف على دعوة الله هذه، جعلها مغايرة لرؤيا «الحُجَّاج» الأوائل وهم يفرّون من أوروبا الإمبريالية، أو لبنى إسرائيل وهم يبحثون عن حماية إلهية من الإمبراطورية المصرية. فبالنسبة لبوش ليست أمريكا مجرّد مكان اختاره الله ليكون ملجأ آمنا لمن يتعرضون للاضطهاد فى بلاد أخرى، وإنما هى أيضا الأداة التى سيستخدمها الله لإسعاد أمم العالم بالحرية والديمقراطية. فبدلاً من أن تكون أمريكا ملجأ من العاصفة، فإنها تصبح هى نفسها العاصفة تهدّد بقوتها العسكرية الجبّارة وتفوقها الكاسح - بوصفها القوة العظمى الوحيدة الباقية - كل من يقاومون نفوذها، ونعنى بهم «أعداء الحرية».

لقد أصبحت أمريكا فى عقل بوش هى «المحرر» وليست مجرد شعب محَرَّر. لقد استعاض بوش عن قصة خروج إسرائيل - كما هى من سفر الخروج بقصة رامبو أو «الفيصل - Terminator».

«سنبنى دفاعاتنا وسنجعلها قويّة تفوق أيَّ تحد، مخافةَ أن يُشجع الضَّعفُ من يتحدوننا. سوف نواجه أسلحة الدمار الشامل حتى يكون القرن الجديد بلا رُعب. أعداء الحرية وأعداء بلادنا (أمريكا) يجب ألا يرتكبوا حماقة. تظل أمريكا مرتبطة بالعالم بحكم التاريخ، وباختيارها، تشكل توازنا فى القوى لصالح الحرية. سندافع عن حلفائنا وعن مصالحنا. سنحقق أهدافنا بلا عجرفة. سنواجه العدوان و «العقائد الفاسدة - bad faith» بالتصميم والقوّة. وسنتحدث إلى كل الأمم فى سبيل القِيَم التى أدَّت لميلاد أمتنا»[11].

إنَّ النضال لتحقيق هذه الرؤيا فى الداخل وعبر البحار، سيتطلب شجاعة ومثابرة، لكن النجاح فى هذا النضال سيكون - فى الأساس - لأن «ملاك الرّب هو الذى يوجّه العاصفة»[12]. وقد أخذ كاتب خطب بوش الإشارة إلى ملاك الرب من كلمات چون

بيج رجل الدولة الڤيرچينى الذى كتب إلى توماس چيفرسون بعد إعلان الاستقلال: «نحن نعرف أنَّ الفوز فى السباق ليس للسريع وأن النصر فى المعركة ليس للقوى. ألا تعتقد أنَّ ملاكا يركب فى الزوبعة ويوجّه العاصفة؟».

فى خطاب حالة الاتحاد الذى ألقاه بوش فى سنة ٢٠٠٢م بعد الهجمات الإرهابية بثلاثة أشهر، وجد ما يؤكّد رؤاه بأنَّ لأمريكا هدف أسمى، وقَدَر مكتوب. لقد قدمت الهجمات الإرهابية «فرصة فريدة لجمع الأمم لخوض نضال شامل عالمى من أجل السوق الحرة والتجارة بلا قيود، باعتبارهما من وسائل التطور الاقتصادى والسياسى العَوْلمى:

«فى هذه الفرصة السانحة التى أتاحتها اللحظة أزاح الخطر العام المنافسات القديمة، فأمريكا (الآن) تعمل مع روسيا والصين والهند بشكل لم يحدث من قبل لتحقيق السلام والرخاء. فى كل المناطق أثبتت الأسواق الحرّة وحرية التجارة والمجتمعات الحّرة أنها قوية وأنها ترتفع بمستوى الحياة والمعيشة. سوف نثبت أنَّ قوى الإرهاب لا يمكنها أن توقف زَخَم الحرية، سنُثبت هذا بالعمل مع أصدقائنا وحلفائنا فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية»(١٣).

المعركة من أجل «الأسواق الحرّة» ومن أجل الحرية إنما هى معركة مع أعداء أمريكا الذين يكرهون فكرة أنه «فى هذه الدولة العظيمة، نستطيع أن نعبد الله بالطريقة التى نراها مناسبة. فالحرية هى هبة الله لكل إنسان فى العالم»(١٤)، وعلى هذا فإن أمريكا فى حالة نضال رؤيوى. أمريكا وحلفاؤها يمثلون فى هذا النضال قوى الخير، أما أعداؤها فيوصفون الآن باللقب سيئ السمعة. إنهم محور الشّر:

«لقد وصلنا لمعرفة الحقيقة وسوف لن نضل عنها. فالشر حقيقى (موجود) ولا بد من مواجهته، وبصرف النظر عن العرْق أو العقيدة، فإننا وطن واحد، نتألّم معًا ونواجه المخاطر معًا. فالشّرف قيمة عميقة فى الشخصية الأمريكية، إنّه أقوى من المصالح الذاتية. وقد اكتشف كثيرون ـ مرة أخرى ـ أنَّ الله قريب، لقد اكتشفوا هذا حتى وهم يُعانون المصائب، بل إن المرء ليكتشف قرب الله منه خاصة فى المصائب»(١٥).

وبعد هذا بعام خاطب بوش الشعب الأمريكى والقوات المسلحة الأمريكية بوصفه القائد الأعلى لهذه القوات، من فوق حاملة الطائرات (لينكولن)، يوم إعلان النصر

بعد غزو كلّف العراقيين ٣٠٠٠ قتيل - على الأقل - من المدنيين بالإضافة لأعداد كبيرة من العسكريين، وأقل من ١٥٠ قتيلاً من القوات الأمريكية والبريطانية(١٦). لقد قال بوش فى هذه المناسبة: **«أينما ذهبتم فأنتم تحملون رسالة أمَل - رسالة قديمة لكنها تظل جديدة إلى الأبد. وبكلمات النبى أشعياء فليتحرر أولئك القابعون فى الظُّلمة، ولتنفك قيود الأسرى»**(١٧).

وأثناء الحرب كان بوش أكثر وضوحًا فى بيانه للدور المقدَّس للقوات المسلحة الأمريكية، إذ قال فى خطاب موجه للقوات المسلحة الأمريكية فى قاعدة ماكديل فى فلوريدا: «الحرية التى تدافعون عنها هى حق لكل إنسان، وهى مستقبل كل الأمم، فالحرية ليست هبة أمريكا للعالم، بل هى هبة الله للإنسانية»(١٨). المعنى واضح غير ملتبس: أمريكا والقوات المسلّحة الأمريكية خادمة لأهداف الله. إنها تحقق أهداف الله فى التاريخ، ليس فى أمريكا وحدها وإنما فى العالم.

وبالنسبة لجون بيج فإن الملاك الذى يركب فى زوبعة الثورة الأمريكية ويوجّه العاصفة، يشير إلى أنّ يد الله ممتدّة إلى جانب ضحايا الظلم والاضطهاد المجتمعات الناشئة فى أمريكا الجديدة فى نضالهم الطويل للإطاحة بالقوى الإمبريالية. لكن بالنسبة لبوش فإن الله ليس الآن فى جانب الضعيف وإنما فى جانب القوى. إن العاصفة لم تَجْتح أمريكا وإنما أمريكا هى التى تصنعها. بالنسبة لبيج، فإن الله هو مؤلّف التاريخ البشرى وموجّهه، خاصة بالنسبة لحالة أمريكا، أمّا أمريكة بوش، فهى التى تكتب تاريخها بنفسها، وهى وكيلة عن الله فى تحقيق «الخلاص» للتاريخ البشرى.

من النظرة الأولى، بلاغة بوش وكتّاب خطابه فى حالة نشاز مع «التعديل الأول - The First Amendment» فى الدستور الأمريكى الذى فصل الكنيسة عن الدولة. لكن فى عقول أولئك الذين صاغوا خطاب بوش، فإن التعديل الأول فى الدستور لا يتعارض مع اعتقادهم فى أنّ قَدَرَ أمريكا يحمِّلها مهمة أسمى لتحقيق «الخطة الإلهية - the divine plan» للبشرية كما أوحاها الله فى الكتاب المقدس. لقد رأى توماس جيفرسون فى ميلاد الجمهورية الأمريكية برهانًا على العناية الإلهية أكثر منه برهانًا على القوّة البشرية. **بل إنه أراد أن يجعل خاتم الأمة الجديدة وقد رُسم عليه «بنو إسرائيل - the children of Israel» وأمامهم - لتدلّهم وترشدهم - سحابة فى النهار وعمود نار**

فى الليل(*) . وتحدث الرئيس چورچ واشنطن فى أوّل خطاب افتتاحى له عن «نار الحرية المقدّسة» التى حمل أمانتها الشعب الأمريكى(١٩) .

ليس هناك ما يكشف عن الحكايات المقدسة للأصول الأمريكية أكثر من حروب أمريكا : حروبهم ضد أهل البلاد الأصليين ، والكنديين والإسپان والمكسيكيين ، وحروبهم مع البريطانيين ، والحرب الأهلية الأمريكية ، وحروبهم فى القرن العشرين مع النازيين والشيوعيين ، وحروبهم الآن مع المسلمين . هذه القداسة ـ التى يُضْفُونها على حروبهم ـ تعكس المعتقدات الرؤيوية والألفية للپيوريتانز الذين هاجروا أولاً لأمريكا ، وأصبحت ـ أى هذه القداسة ـ ملمحًا بارزًا للخيال الأمريكى الحديث ، الإيڤانجليكى والأصولى . بل إن هذه النظرة يمكن تتبعها فى فترات تاريخية أبعد : فكريستوفر كولومبس عندما «وجد» أمريكا ـ بعد رحلة طويلة وشاقة قطع فيها المحيط ـ كتب : «لقد جعلنى الله رسولا إلى الجنَّة الجديدة والأرض الجديدة التى ذكرها [أى الله] فى سفر الرؤيا الذى كتبه القديس يوحنا ـ . وهو [أى الله] هو الذى أرشدنى إليها»(٢٠) . «إن هذا الاسم نفسه ـ العالم الجديد ـ الذى نستخدمه لوصف الأراضى الأمريكية يحمل هذا المعنى ، وهو أن أمريكا كانت جنّة جديدة وأرضًا جديدة» تحدَّث عنها سفر الرؤيا ـ للقديس يوحنا ـ وهو آخر أسفار الكتاب المقدس . وعلى هذا فحتى توم پين ـ وهو من اللاَّأدريين ـ الذين يقولون باستحالة فهم الأمور الغيبية وكثير من الأمور العقائدية ـ وكان عضوا أساسيًا فى صياغة الدستور الأمريكى ـ يُعلن «أننا امتلكنا الأرض الأمريكية لندخل معترك حياة جديدة . إن مثل هذا الوضع لم يحدث منذ أيام نوح حتى الآن . لقد أصبح ميلاد عالم جديد حقيقة واقعة بين أيدينا»(٢١) .

ويستخدم بوش اللغة الرؤيوية ـ ليقدم رؤيا إمپريالية للقوة الأمريكية ، وهو بهذا يعزف النغم الأساسى للإيڤانجليكية الأمريكية . حوالى ٤٠٪ من الأمريكيين يصفون أنفسهم بأنهم مسيحيون إيڤانجليكيون . واستطلاعات الرأى تشير ـ بشكل مضطرد ـ إلى أن ربع الأمريكيين يعتقدون أنهم يعيشون فى «آخر الزمان ـ end times»(٢٢) ، وحتى خارج نطاق المسيحيين ، نجد أن الأحداث الرؤيوية ـ القائمة على أسفار الرؤى ـ تشكل

(*) «وكان الرب يتقدمهم نهارًا فى عمود سحاب ليهديهم الطريق ، وليلاً فى عمود نار ليضيء لهم» سفر الخروج (١٣ : ٢١) ـ المترجم .

مادة لكثير من الأفلام السينمائية والروايات ـ غزو الغرباء، ونجوم وشهب تهدد بتدمير الأرض، ناطحات سحاب تمحوها النيران، مدن تجتاحها العناكب الضِّخام، أناس مشوهون لبقائهم على قيد الحياة بعد حرب نووية . . .

لماذا ينجذب الأمريكيون إلى التصورات الرؤيوية؟ . هناك عدة إجابات محتملة نسوقها للإجابة عن هذا السؤال . إحداها الثورة الأمريكية والحرب الأهلية المرعبة(*) ـ التى شهدتها أمريكا ـ والتى أعقبت تمازجًا فريدًا بين العنف الرؤيوى ـ والحماس الدينى الشديد . لقد اعتقد القُسس البروتستانت أثناء الحرب الأهلية أن ما شهدته هذه الحرب من عنف متطرف إنما هو نذير بنهاية الدنيا، وكلما لطَّخت دماء الآلاف الأرض، راح الجنود ينشدون ترانيم سفر الرؤيا «رأت عيناى مجد مجىء الرب» الذى كان يدوس عناقيد الغضب المخزونة . . . »[٢٣] وهناك إجابة أخرى يمكن أن نجدها فى الركود الاقتصادى فى السبعينيات من القرن التاسع عشر، والثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أخذت أمريكا برأسمالية المؤسسات التى وضعت الصناعة والتكنولوچيا فى مقابل الصحة ورفاهية العمال والمجتمعات المحلية، وقد انعكس تأثير ذلك بوضوح فى رواية شتاينبك «عناقيد الغضب»، وكان هناك الخوف من الإبادة فى حرب نووية بعد أن لحق السوڤييت بأمريكا وفجروا ـ بنجاح ـ قنبلة نووية، وهو حدث زرع الخوف فى كل أمريكى وأدّى لظهور نوع جديد من الأفلام الرؤيوية عن غزو يقوم به غرباء، وعن اختطاف الناس وغير ذلك من أفلام الرعب .

ولعدّة عقود بعد ذلك، كان لكل حى أمريكى ملجأ يحميه عند حدوث هجوم نووى، كما كان الأطفال فى مدارسهم يتدربون على ما يجب عمله عند حدوث هجوم . وغالبًا ما كان الألفيون يقارنون القنبلة الذريَّة والتى تشبه سحابتها شكل عش الغراب بمعركة هرماجدون فى سفر الرؤيا، حيث تُذيب النار والحرارة قشرة الأرض . يعيش الرؤيويون فى خوف : خوف من غير الأمريكيين وخوف من العبيد الذين أصبحوا مواطنين، وخوف من الغرباء، وخوف من المجرمين، وخوف من الحكومة

(*) استمرت حوالى ست سنوات، راح ضحيتها حوالى ستمائة ألف قتيل، وأكثر من ذلك من المصابين، وكان كل تعداد الولايات المتحدة فى ذلك الوقت ـ ستينيات القرن التاسع عشر ـ أقل من ثلاثين مليون نسمة ـ المترجم .

الفيدرالية. فكما بيَّن مايكل مور فى فيلمه الوثائقى الحائز على جائزة الأوسكار (Bowling for columbine) فإن التليفزيون الأمريكى وغيره من وسائل نقل الأخبار تقدم للمشاهد والمتابع - فيما يبدو - جَرْعة يومية ثابتة من الخوف بتركيزها الدائم على الأعمال الإجرامية، وإطلاق البوليس للرصاص، وقيام سيارات البوليس بأعمال المطاردة، والحرب على المخدّرات، والحرب فى إسرائيل، والآن الحرب على الإرهاب.

بالنسبة لأمريكا، كان أمرًا يدعو للسخرية، ومأسويّا أن يُصاب البر الأمريكى فى ١١ من سبتمبر سنة ٢٠٠١م بعنف رؤيوى، وكان منفذو الهجوم هم أيضًا من المؤمنين بالرؤى المستقبلية ذات الطابع الدينى للعالم، فأسامة بن لادن وأتباعه - مثلهم مثل المؤمنين بالألفية - يؤمنون بأن التاريخ سينتهى فى عنف، وأنه لا سبيل إلا الحروب العنيفة لبداية تاريخ جديد، وأن الله قدَّر هذا سلفًا، وسيبدأ هذا التاريخ الجديد عندما تظهر «الخلافة الكبرى - The Grand Caliphate» التى تمثل حكومة عالمية واحدة لكل المسلمين فى هذا العالم. يريد بن لادن وأتباعه أن يشكّلوا تاريخًا جديدًا ليضعوا العالم على طريق جديد أو نهج جديد وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم لهذه القضية بنشر أعمال العنف المرعبة. لا شىء يمكن أن يكون مدعاة للرعب بالنسبة لمعظم الأمريكيين من أن يروا مؤسساتهم المالية والعسكرية تذوب منهارة - بالمعنى الحرفى للكلمة - أمام أعينهم بفعل هذا الهجوم العربى الضارى.

لقد بدا الأمر كما لو أن كل الأفلام التى تُصوّر العُنف الرؤيوى والتى تم إنتاجها منذ تسعينيات القرن العشرين، والتى صورت المسلمين أعداء جُددًا بعد زوال الشيوعية - إنما كانت أفلامًا تصوّر واقعًا يتحقق[٢٤].

بدا أن بوش كان يتوقَّع الأزمة القادمة عندما ذكر فى خطاب تنصيبه أن أمريكا تقف عند مفترق طرق فى مرحلة تاريخية. لقد قال: **إنه حظى باختيار الله له لتوجيه قوات أمريكا العسكرية لتكون أداة إلهية مكرَّسة لجلب الحرية والديمقراطية لأمم العالم، وللنضال ضد أعداء أمريكا - خاصة ممن يملكون أسلحة الدمار الشامل - وإجبارهم على تقبل هاتين القيمتين - الحرية والديمقراطية - ووضعهما موضع التطبيق»**[٢٥]. وبعد «يوم الرّعب» أعلن بوش «حربًا صليبية» ضد الأشرار الذين رتَّبوا هذه الهجمات، ومعركة

عسكرية للإمساك بهم وتدميرهم. إنها معركة العدالة المطلقة. إلا أنه وإن كان قد تراجع - فى العلَن - عن هذه اللغة الدينية، إلا أنه ألقى الإثم على المسلمين. فبوش يعتقد أنه والذين يحاربون معه خدم الله «عبيد الله المحققين لإرادته - servants of God» وأن التاريخ إلى جانبهم، أما أولئك الذين يحاربونهم - أعداءهم - فهم أشرار بشكل واضح، وأنهم سيُهزمون. ومثل هذه العبارات تُعتبر لازمة من لوازم أحاديثه تتكرر كثيراً. إنه فى هذا مثل كثير من الرؤيويين بما فيهم أسامة بن لادن - الذين يرون المستقبل من منظور دينى محدد سلفًا.

وقد اعتنق مؤيدو بوش من المحافظين الجدد عناصر أخرى متصلة بالعقيدة الألفية، خاصة محورية إسرائيل فى «تاريخ نهاية الزمان - history «end time». وبينما صور الكثيرون الهجوم على أفغانستان عملاً من أعمال الدفاع عن النفس لوجود مراكز تنظيم القاعدة هناك، فإن الهجوم على العراق لم يكن - بشكل واضح - للغرض نفسه، **وإنما كان لهدف مختلف تمامًا؛ هدف ينطوى على الرغبة فى إعادة تشكيل الشرق الأوسط ليكون آمنا بالنسبة لـ «الأمة الإسرائيلية - Israel the nation of» التى تعتبرها أمريكا (الدولة) الوحيدة التى توظّف الديمقراطية فى المنطقة. وما كاد يمر عام بعد «النصر» الأمريكى فى العراق حتى وقف بوش مع شارون فى حديقة الزهور - الروز جاردن - فى البيت الأبيض، فى أبريل سنة ٢٠٠٤م ليعلن موافقته على خطة شارون لدعم الاحتلال الإسرائيلى غير الشرعى، وإنشاء المستوطنات فى أكثر من ٤٠٪ من الضفة الغربية فى فلسطين.**

وتبنَّت إدارة بوش أيضًا كثيراً من العناصر الجوهرية التى تأخذ بها الأجنْدة الاقتصادية والسياسية للمسيحيين المحافظين اليمينيين، فقد خفَّضت الدّعم الفيدرالى للتعليم والرفاهية الاجتماعية، وحوّلت بلايين الدولارات للمبادرات الخدمية الاجتماعية القائمة على أساس دينى، وعزّزت **بشكل هائل** الميزانية العسكرية، فى الوقت الذى خفضت فيه ضريبة الشركات وضريبة الدخل المفروضة على الأثرياء. لقد أضعفت الهيئات: تنظيم البيئة والمالية والعمالة والسوق، وأعادت صياغة القوانين الفيدرالية التى تحمى أرض البرارى والأراضى السّاحلية والأنظمة البيئية الهشّة من المبالغة فى الحفر بحثًا عن البترول والمبالغة فى الاستثمار التجارى. **وتنكَّرت الإدارة أيضا للالتزامات الأمريكية بالاتفاقات الدولية فى البيئة والعدالة، فقد رفضت أن**

تعترف بسلطان «المحكمة الدولية ـ World Court» أو التصديق على معاهدة الأمم المتحدة بخصوص حقوق الطفل، ورفضت پروتوكول كيوتو عن التغيّر المناخى، وتبرّأت من سلطة الأمم المتحدة واتفاقية چنيف بشأن مواثيق الحرب.

لقد زاوجت سياسات إدارة بوش بين الالتزام بالرأسمالية المطلقة ـ غير المقيدة ـ ومن ثمَّ الديمقراطية المكبوحة بالمؤسسات [مؤسسات الأعمال الكبرى]، والرغبة فى إنفاق مبالغ هائلة على المؤسسات الأمريكية المُنتجة للتكنولوچيا العسكرية، وفى الوقت نفسه فإنَّ هذه السياسات أظهرت مهمة أمريكا المقدسة أو «إرسالية ـ mission» أمريكا المقدّسة ـ لقيادة العالم إلى مستقبله المقدَّر بقضاء وقدر ـ أى إلى الديمقراطية والحرّية. وبينما نجد بوش مُسَاقًا ـ بوضوح ـ بإيمان بالرأسمالية المطلقة التى لا يكبحها كابح، unbridled capitalism، إيمان يجنح إلى حماس دينى، فإن هذه السياسات ليست بالضبط نتاج أيديولوچيا حديثة[٢٦]. فإننا نجد هنا روحًا ألْفيّة عميقة، روحًا تمتد جذورها إلى بزوغ اعتقاد الأمريكيين فى أنهم «أمّة مخلِّصة ـ redeemer» قضى الله وقدَّر أن تقود العالم إلى نهاية التاريخ.

ويقع على عاتق كتابنا هذا إظْهار هذه الروح الألفيّة القائمة على تشويه مفْجع للمسيحية الحقيقية. كان إيمان المسيحيين الأوائل قائم على أنَّ سفر الرؤيا قد جرت وقائعه ـ بالفعل فى حياة وموت يسوع المسيح وقيامته من بين الموتى ـ وبالنسبة للمسيحيين الأوائل كان سفر الرؤيا بيانًا فى تمجيد المسيح عند صعوده ليكون على «يمين الله ـ on the right-hand of God»، وكان سفر الرؤيا يعرض الأخلاقيات والسياسات البديلة فى المجتمعات التى تعبده، والتى مثَّلت تهديداً لسلطان الإمبراطورية الرومانية، تمامًا كما كان المسيح يمثل تهديداً لها. فالمجتمعات المسيحية الأولى كانت مجالا لثقافة مناقضة لثقافة الإمبراطورية الرومانية، إذ كانت ثقافة هذه المجتمعات المسيحية قائمة على المساواتية والمشاركة الاقتصادية، والرعاية العملية لليتيم والفقير والمريض والأرملة، لكن المسيحية ـ على أية حال ـ اعتراها الفساد بسبب ما حقَّقته هى نفسها من نجاحات. فمع تحوّل الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية فى القرن الرابع للميلاد، تحوّلت المسيحية عن أصولها المناهضة للعنف والمعارضة للإمپريالية إلى عبادة إمپريالية «imperial Cult».

وبوش وكتّاب خطبه يستخدمون تحريفات لأسفار الرؤيا ليخلطوها بالدّين المدنى الأمريكى لإضفاء الشرعية والقداسة على العنف الإمبريالى - الإمبراطورى - وهم فى هذا مثل كثيرين من الأباطرة والملوك فيما عُرف بالعالم المسيحى .

لقد استخدموا اللغة الرؤيويّة لا لإعلان ما رآه القديس يوحنا - كاتب السّفر : سقوط الشيطان من السماء بعد أن هزمته الملائكة ، وإنما ليقولوا : إن أعداء أمريكا سوف يرون الأسلحة الأمريكية تسقط عليهم من «سماواتهم - their skies» - أى من سماوات بلادهم - قد يتحدّث بوش من خلال تُراث الحُلم الأمريكى ، وقد يتحدث من أجل دين العَلَم الأمريكى ، ثقةً منه بأن استخدام القوّة يمكن أن يحقّق نتائج طيبة نسبيا ، لكنه - أى بوش - لا يستطيع أن يدّعى - وهو مُخلص - أنّ ما يقول به هو سياسات يسوع المسيح .

حججى فى هذا الكتاب ليست فى استحسان فصل السياسة عن الدين ، بل العكس ، فإن قصْدى هو أن أساعد على استعادة القراءة الروحية للجيوپوليتيكا فى زماننا . فعلماء الاقتصاد السياسى الذين يصفون الحكومة الحديثة بمصطلحات الدساتير المعتدلة والتعاقدات الاجتماعية «وقوانين» العرض والطلب ، لا يقدمون لنا فهما صحيحا للروح الرؤيوية التى تقود سياسات الإمبراطورية الأمريكية ، والدِّين المدنى الذى يُضفى عليها القداسة والطقوس الوثنية(*) «Idolatrous Rituals» للأنماط الاستهلاكية التى تؤازرها . وسأوضح أن إدارة بوش الحالية ليست ضالّة منحرفة بقدر ما عن المسار العادى للتاريخ الأمريكى ، أو حتى عن خطاب الرؤساء الأمريكيين المحدثين ، بل إننى بدلاً من هذا أقول : إن لها جذورها العميقة فى الدين الزّائف - false (غير الحقيقى) للاتجاه الرؤيوى الألفى الأمريكى . وسأسوق الأدلّة على أن«المسيحية الأصلية - ortho-dox christianity »(**) - بما فى ذلك بعض أشكالها الرّاديكالية فى أمريكا الشمالية ، تمثل بديلاً أخلاقيّا وروحيًا عن العُنف الرؤيوى لرأسمالية مؤسسات الأعمال الكبرى والإمبريالية العسكرية ، كما تقدم مصادر مهمة لتحدّيها ومقاومتها فى الميدان العام .

(*) idolatrous vituals والمقصود القوانين التى يقدسونها ، ويراعونها بكل شدة والتزام - بل ويتحالفون ويتخاصمون حتى الحرب فى سبيلها - كما لو كانت ديانة وثنية - المترجم .

(**) المقصود المعنى اللغوى وليس الطائفى - المترجم .

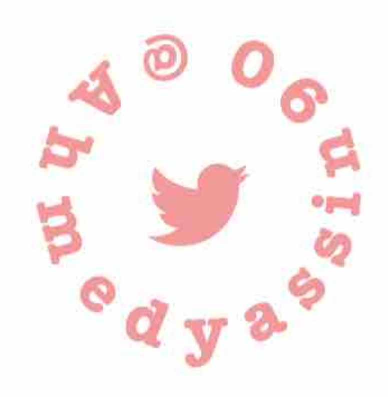
تصاعدت ضرورة المقاومة المسيحية للإمبراطورية الأمريكية؛ لأن **جورج بوش وتونى بلير يزعمان أنَّ عليهما مواصلة حربهما غير الشرعيّة فى العراق، وحربهم الأوسع نطاقًا على الإرهاب، وهى نتيجة رغبتهم المسيحية فى فعل «ما هو صحيح»، حتى لو كانت هذه الرغبة غير ديمقراطية ولا يؤيدها الشعب**. إمكانية أن تُوظَّف الأخلاقيات المسيحية على هذا النحو، ربما كانت تمثل أخطر اتهام للمسيحية يمكن أن يوجّهه كثيرون من الإنسانيين العلمانيين فى العقد الأول من الألفية الثالثة. وليس جزءاً من هدفنا أن نُنكر أن المسيحية منذ أيام قسطنطين قد ألقت القداسة على كثير من الحروب الإمبريالية، لكن إن شئنا الدقّة فإنه عندما ارتقى المسيحيون لهدف تكوين مجتمعات قائمة على العدالة والسلام - والتى هى مختلفة راديكاليًا مع الإمبراطورية - فإنهم قدّموا فى أمريكا والمجتمعات المسيحية الأخرى بواعث ممارسة الديمقراطية والعدالة الاقتصادية والتعليم العام والرعاية الصحية ومخاطبة الحقوق المدنية والإنسانية والعدالة الاقتصادية والمساواة بين الجنسين، توزيع الثروة والحفاظ على البيئة.

لقد كتبتُ هذا الكتاب وأنا مؤمن بأنه عندما يستعيد عدد كبير من المسيحيين فى أمريكا وبريطانيا وغيرهما المسيحية الراديكالية - الأصلية - التى قال بها المؤسس، فإنه ستَتَقَوَّض دعائم إساءة استخدام الدين على أيدى الزعماء السياسيين وعلى يد الإرهابيين، فهؤلاء جميعا يُضْفون القداسة على حروبهم وعلى تقسيمهم البشر - وفق منظور رؤيوى - إلى أشرار وصالحين.

***

(١)

سِفر الرؤيا الأمريكى


@Ahmedyassin90

اعتقد البيوريتانز ـ التطهريون ـ الذين فرّوا من الاضطهاد فى انجلترا ليستقروا فى «برّية» أمريكا، أنهم يقومون بالدور الأخير فى التاريخ البشرى، وراحوا يؤيدون هذا المعتقد باستشهادات كثيرة من الكتاب المقدّس[1]. فاعتبروا أمريكا «كنعان» الجديدة، وعلى هذه الأرض الأمريكية ستقوم الألفية التى يسود فيها السلام، والتى سبق أن أشير إليها فى سفر الرؤيا ليوحنا. لقد كتب كوتون ماثر البيوريتانى والشخصية البارزة فى هارڤارد، كتب قصيدة ملحمية على النَّسق الڤيرچيلى عن انجلترا الجديدة (نيوإنجلاند) جعل لها عنوانا هو: معجزات المسيح فى أمريكا، ووصف فيها قصة أمريكا بدءاً من الصعود التدريجى للمستعمرة من الاستقرار فى ڤيرچينيا إلى تأسيس المملكة الصالحة ـ مملكة الجماعات المسيحية ـ وأخيراً الصراع مع عدو المسيح «Antichrist» هذه النهاية الألفية لهذا التاريخ المقدَّس، تَبْرُزُ فكرة السلام الرومانى على عهد أغسطس[2] Pax Romania. وشبّه ماثر الرحلة من أوروبا بهروب بنى إسرائيل من العبوديّة فى مصر، وشبه الرحلة (الطويلة) عبر الأطلنطى بالأعوام التى قضاها الإسرائيليون فى البريّة، بينما شبّه تواصل الاستقرار فى العالم الجديد بسقوط حكم الشيطان، حيث أصبح العالم الجديد (البـريّة) هو «الأرض الموعـودة» «جنة الله ـ The Garden of God». فى تناول ماثر للتاريخ والجغرافيا، نجد أنَّ الزمن نفسه قد أعيدت صياغته، وأعيد تقديسه أثناء تقدم المهاجمين الإنجليز (النيو إنجلاندرز) فى اتجاه الغرب عبر العالم الجديد.

وكان چوناثان إدواردز، وهو لاهوتى من الإنجليز الجدد (من النيو إنجلاند)، كان هو أيضًا من المؤمنين بالفكر الألفى. وقد ساعدت عظاته الروحية على إذكاء روح الإحياء [الدينى] فى نيو إنجلاند فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر، حيث راح المستعمرون يقبلون على الكنائس فى جماعات، واعتقد إدواردز ـ كما اعتقد

ماثر . . في أنَّ المستعمرين يعيشون في آخر الزمان، ورأى في النهضة والإحياء دليلاً على ذلك:

«لا يبعد أن يكون هذا من عمل روح الله؛ لأن ما حدث استثنائي ومدهش. إنه فخر أو على الأقل استهلال لهذا العمل العظيم لله، والذي تنبَّأ به الكتاب المقدس في أكثر من موضع . . . وهناك أدلة كثيرة تجعل من المحتمل أن هذا العمل سيبدأ مرة أخرى في أمريكا»(٣).

وقد حدّد إدواردز بداية الألفية بحوالى سنة ٢٠٠٠م، واعتقد أنه قبل حلول هذه الألفية، لا بد أن تخوض أمريكا معركة مع ممالك الشيطان ومع البابوية (الكاثوليكية) ومع الإمبراطورية العثمانية التركية. كما أنَّ هذه الحقبة الجديدة يدل عليها الوعظ بالإنجيل بين كل الأمم على ظهر الأرض، وتحويل اليهود [إلى المسيحية].

لقد كان هؤلاء المستوطنون وعلماء اللاهوت الأمريكيون الأوائل من المؤمنين بمرحلة ما بعد الألفية، بمعنى أنهم اعتقدوا أنهم ببنائهم كومنولث صالح في العالم الجديد، فإنهم يمهدون للحكم الألفي الذي يحكم فيه القدّيسون على الأرض، ويعتقدون أنه ـ بعد ذلك ـ يعود المسيح ليحكمها. ومصطلح ما بعد الألفية يستخدم لتمييز الاختلاف الأقدم في العقيدة الألفية عن ما قبل الألفية، وهي الفكرة التي تسيطر الآن على الدين الرؤيوي الأمريكي، والتي ستأتي في الفصل التالي. القائلون بما قبل الألفية يعتقدون أن «الحساب الأخير ـ The Last Judgementr» سيحدث قبل حكم القدّيسين الألفي. كلا الخلافين بألفية العالم الجديد يكمن في الزعم بأن الأمريكيين ـ بمعنى استثنائي على نحو ما ـ هم المسئولون عن التاريخ البشري، وأن قصتهم [تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم] تمثل تحقيق نبوءات الكتاب المقدس عن نهاية الزمان والتاريخ البشري، والحساب الأخير والوحي الأخير ـ وكلمة سفر الرؤيا تعني وحيًا أو كشفًا أو كشف الحجاب للحكم الألفي الذي يقوم به القديسون، وفي فترة هذا الحكم يتم تحقيق الخلاص، نهائيًا للتاريخ البشري. **والأمريكيون في هذه القراءة الألفية للتاريخ يرون أنَّ أمريكا «أمّة مخلِّصة» أي أنها الأمّة الأولى المعدّة إعدادا كاملاً لتحقيق الخَلاَص الحقيقي للتاريخ البشري**(٤).

وبالنسبة لچوناثان إدواردز، فهذا يعنى أن الأمّة الأمريكية برُمّتها أصبحت هى الكنيسة الحقيقية. «إنها نوع من القُدْس الجديدة»، حمل فيها المجتمع الروحى على عاتقه مهمة المسير نحو الخلاص. فكما يرى المؤرّخ الأمريكى «ساكڤان بيركوڤتش»، فإن هذا التطويع فى الپيوريتانية - لتكون رؤيا أوسع للثيوقراطية الأمريكية - **ساعد على تمهيد الطريق للثورة نفسها التى أكّد الأمريكيون فيها - أخيراً - على هويتهم باعتبارهم هم «الشعب المختار الحقيقى» ضد المغتصبين الإنجليز لنداء «الكتاب المقدس - Bibical Calling»**. كما كان لهذا وجود كامن فى تأسيس الحركة التقدمية التنويرية الأمريكية التى قالت بأن أمريكا بوصفها «فردوسًا أرضيًا» - تلك هى «جنّة الله فى الدنيا[٥] - Worldly Kingdom of God».

إذا كانت أمريكا هى حقيقة وطن «قدّيسى الرب - Saints of God»، عندئذ يكون تحقيق قَدَرها المقدّس هو أن «تقدم القانون لبقية العالم» من خلال معاركها العسكرية والتجارية ضد الإمبراطوريات القديمة فى أوروپا ومن خلال غزوها لـ «البرابرة المحليين [السكان الأصليين، أى الهنود الحمر][٦] - native barbarians». لقد جرت مطابقة وقائع نشأة أمريكا مع وقائع الألفية الجديدة، لدرجة أن أصبح تاريخ أمريكا مطابقًا حرفيًا للتاريخ الرؤيوى للقُدس الجديدة - أعوام الرعب التى عانى فيها الحُجّاج الجدد - المهاجرون الأوائل - الاستقرار التدريجى فى البرّية، والتأقلم مع ظروفها، الحرب مع فرنسا وبريطانيا وإسپانيا، والحروب مع «أهل البلاد الأصليين»[٧]. فالسحب السوداء والمعارك والانقسامات الداخلية والنكسات.. كل هذا كان لا بد منه فى مسيرة التقدم العظمى نحو الظهور النهائى لمملكة المسيح، فمثل هذه الاختبارات، ومثل هذه المعارك مع أعداء شعب الله، تشير إلى اقتراب ميعاد ملكوت الله على الأرض. وستظهر أمريكا من مثل هذه المعارك بوصفها مملكة الله على الأرض لتصبح «المدينة فوق التل» أمّة مقدّسة تنجذب إليها كل الأمم. الإمبراطورية الفرنسية والهنود الذين حاربوا مع الفرنسيين ضد «اليانكى» [أمريكيو نيو إنجلاند الواسپ] سيسقطون فى حرب نهائية كبرى بين «الحمل والوحش» التى تسبق معركة «هرماجدون». لقد ظهرت اللغة الروحية للحرب أوّل ما ظهرت فى سياق الثورة الأمريكية لتصبح معركة الوطنية على حد تعبيرات چون كوينسى آدمز «إنجازا للنبوءات تم إعلانه مباشرة من الله لحظة ميلاد

المخلِّص (المسيح) وتنبّأ به الأنبياء العبريون ـ اليهود ـ الأعظم مكانة قبل ذلك ـ أى قبل ميلاد المسيح ـ بستمائة سنة»[٨].

فكرة الألفية المحفورة فى العقل الأمريكى، فكرة مؤثّرة بعمق فى تكوين المفهوم الأمريكى عن الحرية وعن الليبرالية، وهو مفهوم يختلف كثيراً عن مفهوم الأوروبيين لليبرالية، ويجعل المفهوم الأمريكي لها أقرب إلى ما نسمّيه الآن «الليبرالية الاقتصادية الجديدة ـ economic neoliberalism»[٩]. فالليبرالية الأمريكية ـ تقليديًا ـ هى الإيمان بأن الأفراد يجب أن يكونوا أحرارًا فى تقرير «قَدرهم»، متحررين من تدخّل الدولة، ومتحررين من الملاك والأرستقراطيين والتقاليد والعادات التى تضبط الحياة فى أوروبا. ولقد تم تلخيص النموذج الأصلى لهذا فى القيم المحورية فى إعلان الاستقلال الأمريكى ـ حرية، مساواة، فردية، مبادئ حزب الشعب، وعدم تدخل الدولة إلا فى «أضيق الحدود ـ Laissez Faire»[١٠].

فالليبرالية الأمريكية تنطوى على إرهاص مستقبلى يصوّر التاريخ الأمريكى بوصفه تاريخ شعب حر أسّس مجتمعه الجديد على أرض عذراء. هذه هى الليبرالية التاريخية التقدمية التى هى مصدر الثقة البراجماتية التى يعمل الأمريكيون من خلالها على تشكيل قَدَرهم ومواجهة أعدائهم. لقد شرعوا فى فهم أمريكا بوصفها الاستثناء الأول الحقيقى فى مسيرة البشرية لتكوين المجتمع الصالح ـ أول أمة حرة وديمقراطية بمعنى الكلمة. إنها أول مجتمع غير إقطاعى وغير أرستقراطى وغير ملكى. إنها مجتمع تحظى فيه حقوق الأفراد وحرياتهم بالأسبقية على الالتزام بأية أيديولوچية أو هيراركية [هرمية] لكاهن أو قسيس.

أعطت فكرة ما بعد الألفية المحفورة فى العقل الثقافة الأمريكية ثقةً فى إمكانية التغيير، وديناميّة غالبًا ما تكون غائبة فى أوروبا، وهى من أكثر ملامح أمريكا إثارةً لإعجاب الغرباء. إنها أيضًا تعزّز الاعتقاد بأن أمريكا لن تكون ـ فقط ـ دولة الحرية، وإنما أيضًا ستستخدم ثروتها النامية ومكانتها فى العالم للنهوض بـ«القضية المسيحية ـ Christian Cause» عبر العالم. سيؤدى تأثير العقيدة المسيحية وقيمها إلى إفراز فترة من الازدهار الروحى والمادى، والتقدم نحو عالم السلام. زودت هذه «التفاؤلية البَعْد أَلْفيَّة» فى إمكانية التقدم الإنسانى زوّدت الليبرالية الأمريكية بالثقة فى أنّ قيمها

الأساسية ممثلة فى الحرية والفردية والمشروعات العملاقة ستُفرز فى النهاية عالما أفضل للجميع. سيتم بناء مملكة الرّب فى المنظور الما بعد ألفى فى أمريكا، بل وحتى فيما وراء أمريكا من خلال ديناميّة الأمريكيين الثقافية والاقتصادية، ومن خلال مؤسساتهم [مؤسسات الأعمال] وجيوشهم وقيمهم.

الفردية البيوريتانية ومیلاد الديمقراطية

إلى جانب فكرة الألفية، هناك أيضًا الفردية البروتستانتية التى تُعد مفتاحًا آخر أسهم البيوريتان - فى تقديمه لليبرالية الأمريكية التى شكّلت قَدَر أمريكا، فالاعتقاد فى أن محاسبة العالم بات أمرًا وشيكًا، ينطوى على فكرة أنّ كل فرد سيمثل أمام الله ليُحاسب، وسيكون هناك برابرة وآثمون. هذا الاعتقاد دعَّم مقولة «فرديّة الإنسان»، بمعنى مسئوليته عن عمله، وبالتالى فهو يشكِّل قَدَره، وهذه الفكرة مرتبطة بالفكر البروتستانتى خاصة الفكر اللوثرى القائل بأنّ «كلّ المؤمنين كهنة» أو بتعبير آخر الكهانة ليست قَصْرًا على «رجال الدين». هذه الفكرة فى التقليد البيوريتانى - فكرة دولة الكنيسة - أفرزت فهمًا للهُوية الاستثنائية الفريدة، وتُتيح لكلٌ فرد أن يكون عضواً فى جماعة مختارة من الله the elect of God.

حديث البيوريتانز عن مساواة كلٍّ فرد أمام الله نتج عنه تركيز فريد على التجمع الدينى، بوصفه الوحدة الأساسية للنظام الاجتماعى للكنيسة فى المجتمع البيوريتانى، خاصة فى العالم الجديد، حيث تحرَّر الدين البيوريتانى من الترتيبات - الطقوس - الأوروبية السياسية والدينية. ويسوقُ دافيد ليندساى الحُجج ليدلِّل على أنّ ثقافة التجمع والمساواتية هذه قدَّمت الحضَّانة التى نمت فيها الممارسة الديمقراطية الأمريكية، وأن الزمالة وحكم المجتمع المسيحى من خلال التجمع المسيحى فى الاجتماعات المفتوحة هو الشكل الذى ظهرت فيه الديمقراطية الأمريكية فى بدايتها[١١]، وكما أشار چيفرى ستوت، فإن العنصر الأساسى فى ثقافة اللقاءات المفتوحة هذه، كان هو الاعتقاد البروتستانتى الراديكالى فى «التفوّه بالنبوءات - prophetic utterance» فكل

واحد له الحق فى أن يتكلَّم، فربما كان ما ينطق به وحيًا من الله، فلا نعرف ما إذا كان ما يقوله وحيًا أم لا إلا إذا نطق به، وتقرر المجموعة ذلك(١٢). وعلى هذا فطائفة الكويكرز ـ Quakers يعتقدون أن داخل كل شخص هناك ما هو لله، لذا فلكل شخص الحق فى أن يُسْمع فى الصلوات الجماعية (العامة) ما دام ما يقوله لا يخرج عن النظام [الكتاب المقدس]، وسلمى. وعلى هذا فاجتماعات الكويكرز هى بشير بالممارسة الديمقراطية الأمريكية بما فى ذلك حرية التعبير.

من المحال أن نَبْخَس أهمية الجذور الدينية المحلية للثقافة الديمقراطية فى أمريكا وتناقضها مع أشكال الحكم الديمقراطى التى ظهرت فى كثير من أنحاء أوروبا، والتى هى أكثر مركزية وإنسانية. إنه عامل مهم لشرح عمق الطبيعة الديمقراطية فى أمريكا والتى ظلت قائمة موجودة رغم قيام أنواع جديدة من المؤسسات ـ الشركات والنقابات.. الخ ـ فى القرن العشرين، خاصة الشركات أو المؤسسات متعدّدة الجنسيات والمؤسسات الصناعيَّة العسكرية. وبينما نجد أنَّ المشاركة الشعبية فى الانتخابات الرياسية وانتخابات الكونجرس قد انخفضت، حتى أن بوش فى سنة ٢٠٠٠م لم ينتخبه إلا رُبع من لهم حق التصويت، ومع هذا فإنَّ مستوى المشاركة فى الحملات السياسية يبقى أعلى بكثير فى الولايات المتحدة مما هو عليه الحال فى أوروبا، وفى الوقت نفسه فإن المناقشات العامة تبقى نابضة بالحياة رغم السيطرة المحكمة لمؤسسات الإعلام على الاتجاه السائد. فالإذاعة الوطنية ـ وكثير من المجلات الراديكالية وشبكات الإنترنت ـ تقدّم فى أمريكا آراء معارضة أكثر بكثير مما عليه الحال فى بريطانيا. رغم أنه منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م جرت محاولات لقمع المعارضة وحرية التعبير على يد المسئولين فى واشنطن، مما يشير إلى ميول مناهضة للديمقراطية تجلَّت فى «مرسوم الوطنية» و «الحرب على الإرهاب» ومشروع «الأمن الداخلى».

تشابك المثل الأعلى الأمريكى للديمقراطية مع الرعايا المحلّيين للكنائس يشير إلى الروابط العميقة بين الطبيعة التطوعيّة للدين الأمريكى، وتطوعية أفراد المجتمع الأمريكى. فالتاريخ الأمريكى هو تاريخ الحُجَّاج والمواصين الذين اختاروا ـ بفعالية ـ أن يشكِّلوا قَدَرهم بأنفسهم وأن يختاروا دينهم. وينص الدستور الأمريكى بوضوح على

أنه «لن يكون هناك اختبار دينى [لتقلد الوظائف]» لأى مواطن أمريكى (المادة رقم ٦ الباب ٣). لذلك يعد أمرًا غير قانونى أن تُقدم مدارس الحكومة صلوات رسمية أو مقررات دينية. فالتطوعيّة والاختيار الشخصى كامن فى أعماق الأمريكى، وفى عمق ما هو دينى **فى أمريكا**. هذا المبدأ جرى الدفاع عنه فى التعديل الدستورى الأول الذى نصَّ على أن «**الكونجرس** لن يُصدر أى قانون خاص بتأسيس دين» - النص فحرية الدين - لا التحرر من الدين - هى المطلوب حمايتها(١٣).

ويسوق رودنى ستارك الأدلّة على أنَّ شخصية أمريكا القائمة على عدم المركزية وعلى التطوعية قد أنتجت واحدةً من المجتمعات الصناعية القليلة المتقدمة، التى واصل فيها الدين الانتعاش وكان أبعد ما يكون عن التلاشى والسقوط: الدين فى أمريكا يزدهر؛ لأنه دين متعدد الأشكال وتنافُسى(١٤). فبينما نجد الرابطة فى أوروبا بين الكنيسة والدولة قد أنتجت كنائس احتكارِيَة تابعة للدولة حيث يكون الإكليروس فيها موظّفين مدنيين، نجد فى أمريكا أن الفصل الواضح بين الكنيسة والدولة سمح بتباين واسع المدى فى الطوائف والمذاهب أدى لازدهارها، وكان هذا التباين المتعدد قوةً للمؤسسة الدينية فى أمريكا. هذا النَّسق الكبير المكوَّن من أنواع مختلفة من المسيحية - بالإضافة للأطياف الدينية الأكثر حداثة من مختلف الأديان - قد أفرز ازدهارا فى «السوق الدينى - religious market» يمكن أن تُلاقى فيه الطموحات الدينية ما لا يُحصى من الرغبات والحاجات، وعلى هذا فإنَّ غالبية المسيحيين الأمريكيين لا ينتمون إلى الطوائف المسيحية العالمية المعروفة تاريخيا، مثل الكاثوليكية أو الكنائس اللوثرية، وإنما ينتمون إلى جماعات دينية صغيرة، بدءًا من طائفة الأپالاشى إلى طائفة المينونيت.

زيادة فرص الاختيار فى «السوق الدينى - religious market-place» يعنى أن المؤسسات الدينية الأمريكية أكثر حساسية للتغير الثقافى - الاختلافات الثقافية - من نظيراتها الأوروپية الاحتكارية، فالمؤسسات الدينية الأمريكية لا تتمسك بترف التمسك بما هو تقليدى فى الدين، فقد يرى «الزبائن - customer» أنَّ هذا التمسك قد عفا عليه الزمن outmoded أو أنه أصبح غريباً خاصا بفترة تاريخية بعينها. فالمرونة الثقافية والمؤسسية هما بطبيعة الحال مفتاح ازدهار المشروع التجارى، وهما - بالضبط - ما يجعل المؤسسات الدينية الأمريكية حسّاسة ومُستجيبة لحاجات «زبائنها» الدينيين، وهذا ما يجعل الدين الأمريكى - كظاهرة غربيَّة - ناجحًا نجاحًا لا نظير له. لكن هذا النجاح ليس

خاليًا من الغموض. إنها مرونة الدين الأمريكى وتكيُّفه مع السوق الأمريكى القائم على الرأسمالية والزبون-العميل-الرأسمالى الاستهلاكى، ومع القيَم الفردية، والسلوكيات الفردية، هى التى جعلت هذا السوق يزدهر، وهذا مكَّن من ظهور التحالف غير الموفَّق بين المسيحية المحافظة والأيديولوچيا الإمپريالية السياسية الجديدة التى توجه-الآن-الاقتصاد السياسى، والسياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهذا أيضا يوضِّح تحالف أصولية السوق market fundamentalism مع الأصولية الدينية فى اليمين الدينى والجمهورى، اللذين وجَدَا دعما كبيرا من الرئيسين رونالد ريجان، وچورچ دبليو. بوش.

ينقص الثقافة المسيحية الأمريكية المصادر الكافية لنقد الرأسمالية والاستهلاكية والإمپريالية الأمريكية، وهذا يرجع-بالضبط-إلى طبيعتها التطوعية. فكما يُدلل ستانلى هورواس، فإنه رغم الزعم بأن فَصْل الكنيسة عن الدولة يضمن حرية الاعتقاد، فالحقيقة أنَّ الكنائس-والدين بشكل عام-قد أصبح أسيرا للطريقة الأمريكية فى الحياة. لقد أعاد الأمريكيون-بشكل فعّال-تأسيس المملكة المسيحية-فى العالم الجديد. وعلى هذا فإنَّ دين العالم الجديد ليس بالضبط هو دين يسوع المسيح-المسيحية المناهضة للإمپريالية. فالقيم الأساسية فى الدين الأمريكى أكثر اتصافا بالأمريكية. إنَّ التصاقها بالصِّفة الأمريكية أكثر من التصاقها بالعهد الجديد. إنها تشمل مزاوجة لافتة للنظر بين الحرية الفردية والوطنية، وهذا يتطلب أفرادا مستعدين لتكريس أنفسهم وأبنائهم والجانب الأكبر من ميزانيتهم العامة-وبالتالى ما يدفعونه من ضرائب، للحرب والاستعداد للحرب. هذا هو السبب الذى جعل بوش لا يُواجه صعوبة فى ضم معظم الأمريكيين المسيحيين إلى جانبه فى حربه الصليبية الإمپريالية الجديدة.

***

القدَر المبين
وسياسة التوسع

دلَّل المؤرخون الأمريكيون-تقليديًا-على أنّ أمريكا ليست أمَّة إمپرياليّة وأنَّ انخراط الولايات المتحدة فى حروب خارجية كان استثناء من اهتمام الأمريكيين بالسلام الذى

يفضِّلونه داخل بلادهم بعيدًا عن الصراعات التى تجرى فى بقية العالم. فالولايات المتحدة وفق هذه المقولة تُوصف بأنها «قوة عظمى ممتنعة»، إذ أنها لا تَنْخرط فى نشاطات عسكرية خارج حدودها إلاَّ عندما تُدعى لهذا، أو عندما تبدو المصالح الأمريكية معرضة لمخاطر حقيقية(١٦). وعلى أية حال، فإن التاريخ الطويل للتدخلات الأمريكية خارج حدودها يشير إلى أنَّ هذه الفكرة القائلة بانعزال أمريكا ومقاومتها للاستعمار إنما هى فكرة وهمية. فأندرو باسيڤتش، القائد العام السابق للقوات المسلحة الأمريكية، يدحض خرافة انعزالية أمريكا، ويُدلِّل على أن الجمهورية الأمريكية كانت دائما إمپريالية فى طموحاتها وأهدافها، وذلك فى كتابه الذى يحمل عنوان: الإمبراطورية الأمريكية(١٧). ومايكل إجناتيف يرى أنَّ الوقت قد حان بالنسبة للأمريكيين كى «يحملوا» على عاتقهم «عبء» إمبراطورية، وأن يتحملوا المسئولية الكاملة لتمدين العالم وسياسة أموره، وفيما يرى إجناتيف فإن التاريخ الأمريكى يفرَّغ من معناه إذا لم يكن تاريخ إمبراطورية فى طور البناء:

«من البدايات الأولى لم تكن الجمهورية الأمريكية أبدًا بمنأى عن الحروب الخارجية foreign wars. وتُظهر دراسة حديثة للكونجرس أنّه قلَّما مرَّ عام منذ تأسيسه لم ترسل فيه الولايات المتحدة جنودها فيما وراء البحار، من قصور مونتزوما إلى سواحل طرابلس؛ لمطاردة قراصنة، ومعاقبة قطّاع طرق وإنقاذ مواطنين أمريكيين من الخطر، والتدخل فى الحروب الأهلية، وإيقاف المذابح، والإطاحة بنظم الحكم غير الصّديقة (سواء كان عن حق أو باطل) وتصدير الديمقراطية. فالسياسة الخارجية الأمريكية تتكوّن - إلى حد كبير - من عقائد سياسية تدور حول: متى وأين يجب التدخل فى بلاد الشعوب الأخرى»(١٨).

ضمت الرؤيا الأمريكية لما بعد الألفية بذور الإمبرطورية الأمريكية بوصفها - أى أمريكا - هى الأرض الموعودة، وأن شعبها هو الجنس المختار الجديد - New chosen race، وفى أربعينيات القرن التاسع عشر صاغ الأمريكيون مصطلح القَدَر المبين - manifest destiny ليصفوا مفهومهم للغرض المقدَّس الفاعل فى التاريخ الأمريكى ولتوسيع الأرض الموعودة من الشرق والغرب الأوسط إلى كاليفورنيا - الخاضعة للحكم الإسپانى - والشمال المكسيكى وتكساس. وفى النظرة اليوتوبية فى القرن التاسع عشر،

كانت أمريكا مساحة مقدَّسة يرشدُ الله الناسَ فيها ليصبحوا «أمة جديدة للحرية» ستَعرض للمرّة الأولى فى التاريخ البشرى نظاماً عالميا جديدا هو تجربة عظيمة لصالح البشريَّة جمعاء[19]. هذه الرؤية استدعاها تراث المستوطنين الأوائل الذين رأوا أمريكا «حَرَماً آمنا للمضطهدين» و «حارسة للحرية»، وهما عنصران أساسيان فى المخيِّلة الأمريكية منذ چون آدمز حتى وودرو ولسن[20]. **وكان التوسع الإمپريالى قد اكتسب الشرعية المقدسة بفكرة أنَّ إله إسرائيل الأمريكية - God's American Israel قضى أن يُشرِّف المغامرات الإمپريالية بين كل أمم الأرض باعتبارها تحقيقاً لخطَّته المقدسة**[21].

النظرة لأمريكا باعتبارها إسرائيل الجديد تتضمَّن هدفاً تخليصيا (مرتبطا بفكرة الخلاص) فى يد الله على التاريخ الأمريكى، ليس فقط لبسط رداء الحرية على الأمريكيين، وإنما لتخليص العالم - بالمعنى الحرفى للتخليص - من الطغيان، ولمصالحة البشر مع الله. وهذا القَدَر هو إذن الذى يُبرِّر توسّع السيادة الأمريكية، فكما قال الواعظ وليم إلرى شاننج [وهو من طائفة المسيحيين الموحّدين - Unitarians(*)] فى سنة ١٩٣٧م:

لا بد - دائما - أن يمارس الأكثر تحضّرا سلطة كبيرة على المجتمعات الأقل تحضّرا والمجاورة له. لكنها لا بد أن تكون سلطة للتنوير وإحراز التقدم. . . لقد كتب علينا القدر (هذه هى الكلمة التى استخدمها) أن نغطِّى القارة الأمريكية الشمالية، وفى غمرة النشوى من تلك الفكرة، لا يهمنا كثيرًا وسائل تحقيق قدرنا[22].

أمَا وإنَّ أمريكا نشوى بفكرة القَدَر، فإنها ليست بحاجة لأن تتردد فى استخدامها للعنف لإخضاع جيرانها وتمدينهم.

والديمقراطية فى أمريكا تطلبت أيضا توسّعا إقليميا (توسعا فى الأراضى) إذا ما استمر سيل المهاجرين الأوروپيين إليها وراحوا يبحثون عن مساحة صغيرة يعيشون عليها. فالمساحات الشاسعة من الأراضى أتاحت للمستعمرين من العمال الزراعيين والملاك الصغار والمهاجرين الجدُد الحركةَ صوبَ الجنوب والغرب بحثا عن نصيبهم فى

(*) الذين لا يؤمنون بالتثليث (انظر: الحركة الأوروپية المناهضة للتثليث، لمترجم هذا الكتاب. مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود، ١٩٧٧م وأعيد نشره فى مقدمة ترجمة كتاب: محمد مؤسس الدين الإسلامى لچورچ بوش، القاهرة، ٢٠٠٣م) - المترجم.

الحُلْم الأمريكى. والمهاجرون غربا تمّ تخليدهم فى الرحلة العظمى المقدسة التى تتردد فى ميثولوچيا المرْمون. فالمرمونية كانت هى النموذج البدائى للدين الأمريكى؛ لأنها تحكى قصة فتح المهاجرين لأرض الوثنيين heathen land بمصطلحات قُدسية رؤيوية - تبين مشيئة الله فى إعادة تأسيس أمة صالحة مزدهرة من قديسى الأيام الأخيرة. وعندما تم الاستيلاء على كل الأراضى فى الغرب ووُوجه الأمريكيون - بشكل أساسى - بالإشكالية نفسها التى وُوجهت بها الإمبراطوريات الأوروپية. الفهم المتفرد للعرف الأمريكى عن الحدود الجديدة ذات المجال الفارغ فى العالم الجديد، رغم أن هذه المناطق كان يسكنها بالفعل أهلها - دعَّم ما أصبح فى أواخر القرن التاسع عشر الزحف التوسعى الفائق للإمبراطورية الأمريكية[٢٣].

وكلما بدأت أمريكا تقلِّد الإمبراطوريات الأوروپية فى توسعها المركنتالى والإقليمى، وجدت نفسها - أيضا - فى صراع مع هذه الإمبراطوريات عند ظهور الاقتصاد فى منتصف القرن التاسع عشر. وأدّى ازدهار الإنتاج العالمى إلى هبوط الأسعار، مما نتج عنه الانهيار الاقتصادى بدءاً من سنة ١٨٧٠م وحتى نهاية العقد، وكان الملمح الجوهرى للاستجابة الأمريكية هو ظهور المؤسسات المساهمة التى كانت تمثل منذ بدايتها الباكرة تحدّيا مباشرا لمبادئ الديمقراطية، والتطوعية. فبوصفها مؤسسات ظهرت قويّة واحتاجت إلى سند قانونى لتعمل بشكل مستقل، زاد عملها بشكل متزايد ضد مصالح المجتمعات الديمقراطية التى كانت - فى البداية - تمتلكها وتنظمها. لقد أصبحت منخرطة فى محاولات السيطرة على السوق، وتحديد الأسعار داخل أمريكا وفيما وراء السواحل الأمريكية[٢٤]. بل إن بعض هذه المؤسسات قد أنشأت مُدنًا تمتلكها، لا يعمل المقيمون فيها فى الشركة المالكة فحسب وإنما هم مُجبرون على إنفاق كل أجورهم التى يتقاضونها فى محال وإنشاءات تمتلكها الشركة، كما أنهم يعيشون فى مساكن الشركة.

كان ظهور مثل هذه المؤسسات الأمريكية عاملا مهما فى إذكاء نار الإمپريالية والمركنتلية بحثا عن الموارد فيما وراء البحار لتعويض فشل الديمقراطية فى كبح تجاوزات اقتصاد المؤسسات البازغ على المصانع وأحْياء الفقراء فى المدن الصناعية الجديدة. وأتْبع هذا تطوير البحريّة لمنافسة الأساطيل البحرية الأوروپية. وفى سنة ١٨٩٨م بدأت

الولايات المتحدة توسعها الإقليمى الفائق. بضم هاواى التى كان يسيطر عليها بالفعل مالكو مزارع القصب الأمريكيون. وفى أعقاب الحرب الإسپانية الأمريكية استولت الولايات المتحدة على كوبا، وپورتوريكو، وجيام، وجزيرة ويك، ومانيلا فى الفليپين[٢٥]. وانتهت الحرب بأن ضمت أمريكا الفليپين فى سنة ١٩٠٢م.

ورأى رجال الدين الأمريكيون هذه الأحداث نشراً للحضارة والتمدن جرى طبقًا لما قدره الله على أمريكا:

«إن الله لم يجعل الشعب الأمريكى هو الأعظم قوة بين البشر لمجرد أن يأكلوا ويموتوا هكذا ببساطة. إن الله لم يُعطِ جنسنا القدرة العقلية على التنظيم، ولم يهيّئ قلوبنا للسيطرة بدون هدف وبدون نتيَجة مرجوّة! لقد أوْكل إلينا مهاما بقدر ما وهبنا من مواهب... لقد جعلنا سادة الحضارة حتى نتولى إدارتها»[٢٦].

فالاعتقاد الوثيق فى تفوق الحضارة الأمريكية السياسى والروحى امتزج بالرغبة المركنتلية للتوسع الإمپريالى؛ لمساندة التقدم الأمريكى السريع فى المجالين: الاقتصادى والتكنولوچى. ومن هنا بدأت الولايات المتحدة تدخلاتها الإمپريالية العامة فى شئون الأمم الأخرى فيما وراء الپاسيفيكى، إذ أرسلت فى سنة ١٩٠٣م أساطيلها إلى بكين لقمع تمرّد البوكسر الذى هدّد تجارة الولايات المتحدة والمصالح الاقتصادية فى الصين، وعندما أرسلت - أى الولايات المتحدة - ١٢,٠٠٠ مسلّح إلى روسيا لمساعدة الحركة المناهضة للبلشفية فى الحرب الأهلية الروسية فى سنة ١٩١٨م[٢٧]. وبالإضافة إلى الأراضى التى انتُزعت فى سياق الحرب الإسپانية الأمريكية، فإن أمريكا لم تخطُ خُطًا حثيثة رغم هذا - لتطوير إمبراطورية بمزيد من التوسّع خارج حدودها، وإنما استخدمت - عوضا عن هذا - مشروع التفوق العسكرى والاقتصادى على الأمم الأخرى لبسط الهيمنة الأمريكية على أراضٍ خارج حدودها. لم يكن الطموح الإمپريالى ينقص أمريكا، بل العكس هو الصحيح كَما يُدلّل إجناتيف الذى يقول:

«لقد كانت الولايات المتحدة هى الأمة الوحيدة التى تسوس العالم من خلال خمس قيادات عسكرية عالمية تضم أكثر من مليون مسلّح بين رجل وامرأة، فى أربع قارات، تنشر قوّات محمولة تراقب بيقظة كل محيط، وتراقب كل الدول من إسرائيل إلى كوريا

الجنوبية، وتوجّه عجلة التجارة العالمية، وتملأ قلوب كل من فى العالم وعقولهم بأحلامها ورغباتها» [٢٨].

الولايات المتحدة إمبراطورية، لكن الطبقة الحاكمة فيها وجدت طريقة جديدة وأكثر اقتصادية لتحقيق طموحاتها الإمبراطورية من الطرق التى استخدمتها الإمبراطوريات الأوروبية. لقد كوّن قادة الولايات المتحدة إمبراطورية ما بعد إمبراطورية ضم الأراضى [٢٩]، إمبراطورية لايت. [مثل سفن أپ وسفن أپ لايت - المترجم]. مستخدمة شبكة عالمية من القواعد العسكرية تديرها قلة من العسكريين، ومجموعة من العمليات الإدارية والسياسية المحنكة، **ومن خلالها يحكم عملاء الولايات المتحدة دولهم بطريقة يخدمون بها مصالحها التجارية والاستراتيجية**(*).

هؤلاء العملاء المحلّيون الذين يحكمون المكسيك أو جواتيمالا أو ڤنزويلا أو كولومبيا غالبا ما ينحدرون من أصلاب الفاتحين الأصليين، وفى كثير من الحالات كان يجرى - بانتظام - إفسادهم بارتباطاتهم الاستعمارية. ولا تختلف الإمپريالية الإسپانية أو الأمريكية هنا، فهى تفضل تقليديّا **الرؤساء المحلّيين الطبقيّين الذين سيقبلون الرشاوى، والذين يعملون من خلال الفساد ضد مصالح شعوبهم، ويعملون لتحقيق مصالح المستعمرين.**

لقد أطلق على السياسة الخارجية الأمريكية فى الأمريكات(**) اسم «عقيدة مونرو - Monroe Doctrine» وهى العقيدة السياسية التى كان الرئيس الأمريكى چون مونرو أول من أعلنها فى سنة ١٨٢٢م. وقد عبَّرت هذه العقيدة السياسية عن الزعم بحق الولايات المتحدة فى أن تسود دون تدخل من العالم القديم أوروپا - العالم الجديد لنصف الكرة الأرضية الغربى - الأمريكات والپاسفيكى [٣٠]. باتباع هذه العقيدة السياسية، ضمت الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر المكسيك وتكساس - فى البداية - ثم پورتويكو وكوبا، وبعدها پنما، وشنت حروبا فى نيكاراجوا. كل هذا أتاح للجمهورية الأمريكية سيطرة إمپريالية شبيهة بالسيطرة الإمبراطورية لبريطانيا أو هولندا أو إسپانيا أو البرتغال. لكن العقيدة السياسية لمونرو كانت تنطوى على زعم بأن

(*) يسمى تشومسكى أولئك العملاء - «المفوضون - Commissioners» أى القومسيونجية - المترجم.
(**) أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية - المترجم.

الإمبراطورية الأمريكية كانت أكثر «صلاحا وتقوى» من الإمبراطوريات الأوروبية الملكيّة التى تنافسها . وكان المدافعون عن الإمبراطورية الأمريكية يزعمون أنّ التوسع الأمريكى ينطوى على توسيع لنطاق الحرية التى اعتبرها الدستور الفيدرالى للولايات المتحدة كنزا مقدسا تمثل فى الفصل بين السلطات . لقد كان توسيع المبدأ الفيدرالى قد دُعِّم لتأكيد أول إمبراطورية صالحة ـ حقيقة ـ فى التاريخ البشرى . ويكمن خلف الپان ـ أميريكانزم (الأمركة العامة) مُثُل الحرية والحكومات المقيدة ، وهما المبدآن اللذان تستخدمهما الولايات المتحدة لتحقيق الخلاص للأمريكات ، بل ولكافة البشر .

من الأمّة المخلصة
إلى إمبراطورية الحرب الباردة

فكرة أمريكا بوصفها «أمّة مخلِّصة» تفرض السلام والحرية على عالم متمرّد ، أكثر ما تكون ارتباطا برياسة الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون ، فهو الذى جرّ أمريكا إلى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٧م حيث أعلن أن هذه الحرب هى المعركة الألفيّة من أجل الديمقراطية:

«لا بد أن نجعل العالم آمنًا من أجل الديمقراطية . فسلام العالم لا بد أن يقوم على حرية سياسية راسخة على أساسات متينة . ليس لدينا أغراض أنانية نسعى لتحقيقها . لا نريد أن نغزو أحدا ولا أن نسيطر على أحد . ولا نريد تعويضات لأنفسنا أو تحقيق مزايا لأنفسنا ، ولا نريد تعويضات ماديّة عن التضحيات التى نقدمها بملء حريتنا ، فنحن لسنا إلاّ من بين المناصرين لحقوق الجنس البشرى»[٣١] .

وقد تبنى الكتَّاب من الإكليروس وكتَّاب التراتيل الدينية حماسة ويلسون فى إعادة تجديد قدسيّة السياسة الخارجية الأمريكية . فقد كانت القوات المسلّحة الأمريكية هى «الكنيسة الأمريكية فى فرنسا» وفق مقولة أحد القسس الأسقفيين ، بينما صوّر كتّاب الترانيم الجمهورية الأمريكية «كمحاربة من أجل تحقيق الحرية للعالم أجمع» فى «معركة يخوضها الله»[٣٢] .

وبعد الحرب استخدم ويلسون لغة رؤيوية ليصف قيادة أمريكا لعُصبة الأمم فقد أعلن : «لقد حدث ما حدث بغير إدراك منا . إنما هى يد الله التى قادتنا فى هذه

الطريق»[٣٣] فبعد «هرماجدون» الحرب العظمى أصبحت أمريكا - على حد تعبير ويلسون «أمة عظيمة تسير فى مقدمة موكب كبير» هدفه «تلك الذُرَى التى تتربّع عليها الأنوار الخالصة لعدالة الله ولا سواها» وقد منح الله أمريكا :

« . . . قوّة محررّة، قوّة تُظهر للعالم أنه عندما وُلدت أمريكا فإنها حقا كانت إصبعا يشير إلى البلاد التى يقطنها أناس يمكنهم أن يحيوا بعضاً من تلك الأيام، وأن يعيشوا سعداء بالحرية، ينظر بعضهم لبعض بعيون المساواة، فليس من أحد متربع فوق رقابهم، وليس من شعب مجبر على قبول سلطة لم يخترها . نسمو إلى مستويات حضارية حتى لا يكون هناك مزيد من الحروب، وإنما يتحتم أن يحكم الناس أنفسهم بسلام وصداقة واطمئنان»[٣٤] .

فالنتيجة المرتقبة كانت هى نهاية كل الحروب وبالتالى «تحرير العالم كله وتخليصه» .

وخلال سنوات الانهيار الاقتصادى العالمى، دخلت أمريكا فى فترة انعزال نسبى عن الشئون الدولية، رغم أنها استمرت فى احتلالها لمناطق فى الپاسفيك وفى الكاريبى ومن أمريكا الوسطى واللاتينية التى كانت قد ضمتها فى فترات سابقة . ولم يكن سوى هجوم كالهجوم الذى واجهته أمريكا فى پيرل هاربر فى اليابان، هو القادر على إعادة أمريكا للاندماج فى أحداث العالم أثناء الحرب العالمية الثانية . وبانتهاء الحرب مع اليابانيين والنازية، كانت أمريكا قد نظمت قواتها المسلّحة لتغطى الكرة الأرضية لتتمكّن من قوْلبة السياسة الخارجية الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد ارتدى الرؤساء الأمريكيون عباءة « زعيم العالم الحر» فى حرب عالمية جديدة، ضد السوڤييت فى هذه المرّة، بحجة أن السوڤييت يتبعون خطة لغزو العالم، وهو الأمر الذى تملك أمريكا وحدها الرغبة والإمكانات لاحتوائه[٣٥] .

لقد كان الحدث المهم الذى كان بمثابة تيار كهربائى مفاجئ، والذى حشد الأمريكيين أثناء الحرب الباردة هو أول تجربة سوڤييتية لسلاح نووى فى سنة ١٩٤٩م، هذا الحدث أظهر جنون البارانويا فى أمريكا (البارانويا الأمريكية) لدرجة أنَّ مايك ديفر يمكن أن يكون قد قدَّم لنا أكثر الرؤى المسبَّقة أهمية لردِّ فعل الأمريكيين عقب أحداث الحادى عشر من سپتمبر سنة ٢٠٠١م :

«كان رد فعل مجلس الأمن الوطنى الذى عقده ترومان سريعا «NSC-68»، لقد خُصص اعتماد مفتوح لإنشاء ما أسماه الرئيس أيزنهاور بعد ذلك «مجمع الصناعات العسكرية»، وفى الوقت نفسه استغل السيناتور چوزيف مكارثى، ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالى -چ. إدجار هوفر الخوف الشعبى للبدء فى ملاحقات لا ترحم لعدو فى الداخل enemy within»[٣٦].

وبالنسبة لترومان لم يكن هناك سوى جانبين للحرب الباردة، تماما كما أعلن بوش بعد ذلك بأنه لا يرى إلاّ جانبين للحرب على الإرهاب: أولئك الذين يقفون مع الولايات المتحدة، وأولئك الذين يقفون ضد الولايات المتحدة.

تقدم عقيدة تحريم(*) العدو للولايات المتحدة العذر فى اعتبار قمع المخالفين فى الداخل، وشن الحرب لاحتواء الشر فى الخارج باعتبارها حرب بقاء للشعب الأمريكى. لكن هذه الاستجابة هى فى الأساس مزعجة للديمقراطية والحرية، وهما القيمتان اللتان يُقال إن أعداء الولايات المتحدة يهددونهما[٣٧].

رأت وكالة المخابرات المركزية والنخبة فى واشنطن فى كل تهديد للمصالح الاقتصادية والسياسية لأمريكا دليلا على التغلغل الشيوعى، فكان جنون الشك والخوف الذى أذكى سيل الاتهامات سيئة السمعة التى وجهها السناتور مكارثى لأفراد اتهمهم «بأنشطة غير أمريكية» أو أنشطة خارجة عن الروح الأمريكية، تلك الاتهامات المواكبة للسياسة الخارجية الأمريكية التى كان محورها مناهضة الشيوعية. وبهذه الطرق بدأت الولايات المتحدة تعكس صورة إمبريالية توسعية - بمعنى الكلمة - وقمعًا جماعيا لحريات الأمم الأخرى، بل وقمعا لبعض مواطنيها المعارضين، وهو الأمر الذى كانت تتهم السوڤييت بارتكابه. لقد شهدت الحرب الباردة زيادة كبيرة - جذرية - فى التدخلات الأمريكية العسكرية، وفى زيادة النفوذ الاقتصادى والسياسى الأمريكى فى أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية وفى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وأجزاء من أفريقيا. وعلى هذا فقد كانت السياسة الخارجية الأمريكية أيضا قد تحولت إلى أداة للإخضاع الشمولى، وهى السياسة نفسها التى تبناها السوڤييت. لكن طالما أنَّ النخبة

(*) يعنى المصطلح فى المسيحية الطرد من الكنيسة، أى من رحمة الله، وذلك يشابه لغة الله فى الإسلام - المترجم.

الأمريكية تستطيع إقناع نفسها بروح المابعد ألفية التى قال بها ويلسون، والتى مؤدّاها أن إمبراطوريتهم إمبراطورية صالحة righteous فإن قضيتهم عادلة، وبالتالى فكل القتل والأعمال الوحشية وكل عمليات الإطاحة بالحكومات الشرعية - وأحيانا الديمقراطية - لإحلال ديكتاتوريات «صديقة»، كل هذا يمكن أن يبدو عادلا، طالما هو وسائل لتحقيق خير أكبر.

وكان شعب جواتيمالا هو أوّل ضحايا هذه السياسة الخارجية الأمريكية الجديدة القائمة على التدخل والتوسّع. ففى سنة ١٩٤٤م انتخب شعب جواتيمالا حكومةً اتّبعت طوال عشر سنوات برنامجا ديمقراطيا اشتراكيا، راعت فيه تطوير التعليم والشئون الصحية تطويرا شاملا، كما راعت فيه الإصلاح الزراعى [٣٨]. لكن فى سنة ١٩٥٤م اعترض ملاّك الأراضى والشركات الأجنبية - خاصّة الشركة الأمريكية المتحدة للفواكه - على أساس أن أرباحها أصبحت مهدّدة بالنقصان، فدبّرت المخابرات المركزية الأمريكية اشتعال حرب أهلية دامية. لقد قتل المجلس العسكرى الذى استولى على الحكم، والذى عيّنته المخابرات المركزية الأمريكية أكثر من مليون شخص فى الثلاثين عاما التالية للانقلاب، وهكذا تحوّل شعب جواتيمالا من شعب كان من أكثر الشعوب تعليما وديمقراطية فى أمريكا الوسطى إلى شعب من بين أفقر الشعوب وأكثرها تعرضاً للقمع، لا فى أمريكا الوسطى فحسب وإنما فى العالم كله[٣٩].

وبعد جواتيمالا، أتى الدور على شيلى، والبرازيل، وأورجواى، وباراجواى، والأرجنتين، فكلها شهدت حكومات منتخبة أطاحت بها ميليشيات يمينية تدعمها الولايات المتحدة. لقد جاء الرئيس الشيلى - المنتخب ديمقراطيًا - سلڤادور أليندى فى سنة ١٩٧٠م بسياسة اشتراكية كانت تبدو ضارة برجال الأعمال الأمريكيين وبالمصالح الاستراتيچية الأمريكية، فتبنّى هنرى كيسنچر حزمة من الاستراتيچيات «للحد من قدرة الرئيس الشيلى على تطبيق سياساته المضرّة بمصالح الولايات المتحدة» مستهلا هذا بانقلاب فاشل فى سنة ١٩٧٠م[٤٠]، **وفى ١١ من سبتمبر سنة ١٩٧٣م قامت المخابرات والقوات المسلحة الأمريكية - معًا - مع العناصر المتطرفة فى شيلى بتنظيم ما وصفه الملحق البحرى بأنه «الانقلاب الكامل» أو «يومنا الحاسم Our D - Day» حيث تم اغتيال أليندى ليحل محلّه الچنرال بينوشيه[٤١]. وتبع هذا أكثر الفترات عنفا فى**

تاريخ شيلى الحديثة، حيث أعدم پينوشيه الآلاف وسجن عشرات الآلاف وعذبهم، واختفى آخرون أو هربوا من البلاد، وكانت هذه الأعمال تلقى دعما من كيسنچر وإدارة نيكسون[٤٢].

ولم تكن التدخَّلات فى فترة الحرب الباردة - بطبيعة الحال - قَصْرًا على الأمريكات، فنفوذ الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط كان محدودا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن الولايات المتحدة بدأت بعد ذلك تلعب فى الشرق الأوسط دور بريطانيا الإمپريالى، ذلك أن بريطانيا خرجت من الحرب فقيرة فقرا مُدْقعا مما أعجزها عن إمكانية تسيير أمور إمبراطوريتها. وكانت مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط قابلة للشرح فى ظل ظروف الحرب الباردة. لكن كان هناك عاملان حيويان يقودان سياسة الولايات المتحدة فى هذه المنطقة، لا يتعلقان بالشيوعية أو الاتحاد السوڤييتى، هذا فى الظاهر على الأقل. **هذان العاملان الحيويّان هما: التزام الولايات المتحدة بالوطن اليهودى jewish homeland الذى له جذور عميقة فى الفكر الألفى المسيحى الأمريكى المتعلق بنهاية الزمان، أما العامل الثانى فهو شهية الولايات المتحدة النَّهمة للبترول. وكان هذا العامل الثانى هو الذى دفع الولايات المتحدة لتدبير انقلاب أطَاح بحكومة منتخبة ديمقراطيا فى إيران فى سنة ١٩٥٣م، وهو الذى دفعها إلى تنصيب أو دعْم الديكتاتوريات وأنظمة الحكم الشمولية فى الشرق الأوسط بما فى ذلك نظام الحكم الإسلامى - سيئ السمعة - فى السعودية العربية.**

والمناسبة التى أتاحت التدخل الأمريكى فى إيران كانت هى أن حكومة رئيس الوزراء محمد مصدّق - وهى حكومة منتخبة ديمقراطيا - بدت تشكل تهديدا للمصالح البريطانية والأمريكية؛ لأنها تحدَّت حقوق الشركة الأنجلو إيرانية للبترول، التى أصبح اسمها فى وقت لاحق شركة البترول البريطانية (بريتش پتروليَم) - فى استخراج البترول من الأراضى الإيرانية مقابل ١٠٪ فقط من العوائد للحكومة الإيرانية[٤٣]. **وعندما أمَّم مصدّق حقول النفط ومصافى تكريره، قرَّر البريطانيون بزعامة ونستون تشرشل محاولة إزاحته ليحل محلّه شاه إيران الذى كان فى المنفى آنئذ. وخوفاً من تدبير البريطانيين لانقلاب - وقد كانوا يدبرونه بالفعل - أغلق الإيرانيون السفارة البريطانية فى طهران، فلجأ البريطانيون للمخابرات المركزية الأمريكية لإنجاز المهمّة، فتم إنجازها على خير ما يُرام فى يونيه سنة ١٩٥٣**[٤٤]. وفى اتفاقية مع الدكتاتوريّة الإيرانية المعيّنة،

أعاد البريطانيون والأمريكيون - بعد ذلك بعام - الهيمنة الأجنبية على إنتاج البترول فى إيران مقابل ٢٠٪ للإيرانيين بينما يحصلون هم على ٨٠٪ .

ونشر حكم الشاه القمعى التعذيب على نطاق واسع، وزادت أحكام الإعدام، حتى إن الشاه كان هو أكبر قاتل قانونى فى سبعينيات القرن العشرين، إذ أن أحكام الإعدام هذه كانت تصدرها محاكم. وكان السافاك SAVAK (البوليس السرى الإيرانى) - المسئول عن كثير من هذه الجرائم - يتلقى تمويلاته المالية من الأمريكيين، ويتدرب فى الولايات المتحدة، وبمساعدة وخدمات سرية من الموساد الإسرائيلى، وكانت التدريبات تشتمل على الإلمام بتقنيّات التعذيب. وبحلول أواخر السبعينيات كانت إيران فى حالة حرب أهلية، فغادر الشاه البلاد لعدَّة أيام قبل العوْدة المظفَّرة لآية الله الخمينى من المنفى[٤٥]. وهكذا بدأت أول ثيوقراطية شيعية فى التاريخ الحديث وصارت إلهاما للإسلاميين عبْر العالم، أولئك الإسلاميون الذين عملوا على الإطاحة بحكام المسلمين الخاضعين لنفوذ الغرب. وقد أدَّى استيلاء الإيرانيين على السفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز شاغليها لأكثر من عام إلى تدهور العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران الجديدة تدهورا حادا، ولم يحدث أبدا منذ ذلك الوقت أن عادت العلاقات لسابق عهدها .

وانتقامًا من إيران الثورة ومواقفها المعادية، قدَّمت الولايات المتحدة الأموال والأسلحة للدكتاتور صدّام حسين - بما فى ذلك الأسلحة الكيماوية كـ «الأنثراكس - anthrax» وتسهيلات لإنتاج أسلحة الحرب الكيماوية - دعمًا له لغزو إيران ، فبدأت الحرب الإيرانية العراقية فى ثمانينيات القرن العشرين. دعمت أمريكا صدّام حسين - كما دعمت الشاه من قبله - بصفته «رجل أمريكا» ودكتاتورًا مؤيِّدًا للغرب سيضمن استمرار تدفق البترول لأمريكا. وكان صدّام من الناحية الأيديولوچية مناهضا للشيوعيين ومناهضا للإسلاميين؛ لذا فقد كان مناسبا جدا للخطط الأمريكية فى الشرق الأوسط. بالإضافة إلى أن صدّام حسين كان سنِّيا وكان مستعدا لاستخدام كل وسائل القمع ضد الأغلبية الشيعية فى العراق، كما كان مستعدا فى الوقت نفسه لقهر الأكراد فى الشمال العراقى، والأكراد يُنظر إليهم باعتبارهم تهديدا لتركيا، وهى مفتاح آخر تعوِّل عليه الولايات المتحدة فى المنطقة. وبسبب دعم الولايات المتحدّة للأعمال

الوحشية التى ارتكبها صدّام فى المنطقة - بما فى ذلك الإبادة الجماعية للأكراد، باستخدام الغازات المميتة فى حلابجة فى سنة ١٩٨٨م، وهو الأمر الذى وافقت الحكومة الأمريكية على إلصاقه بالإيرانيين(٤٧) - بسبب هذا تشجّع صدام حسين وأحسّ بالثقة فى محاولته ضم حقول البترول فى الكويت، تلك الحقول التى سبق أن فصلتها بريطانيا عندما منحت العراق استقلاله فى عشرينيات القرن العشرين؛ لتستخدمها شركة بريتش بتروليم. **وبدأت الحرب التى شنّها چورج بوش الأب على العراق من القواعد العسكرية الأمريكية المُنشأة حديثا فى المملكة العربية السعودية، والتى كانت سببا بالغ الأهمية لظهور تنظيم القاعدة، خاصة انقلاب أسامة بن لادن على أمريكا ليصبح منشقا سعوديا معارضا للوجود الأمريكى.**

من الحرب الباردة
إلى الحرب المقدَّسة

فى سنة ١٩٧٩م وقبل أكثر من عقد من الغزو العراقى للكويت سعت المخابرات المركزية الأمريكية فى ظل حكومة الرئيس چيمى كارتر إلى توريط روسيا فى حرب غير رابحة - بل ومستنزفة - فى أفغانستان. وكانت استراتيچية الولايات المتحدة لتحقيق هذا هى تمويل المتطرفينَ الإسلاميين من أفغانستان والمملكة العربية السعودية وغيرهما، وتسليحهم ليحاربوا من أجل حكومة راديكالية إسلامية فى أفغانستان التى لا يحكمها قانون. وفق ما قاله زبينيو بريزنسكى مستشار الأمن القومى فى عهد الرئيس كارتر كان الهدف الذى يحظى بالأهمية الفائقة، هو استثارة روسيا للتدخل، مما سيؤدى لحرب تكلّف روسيا آلاف القتلى، وتكلفها نفقات عسكرية كبيرة بدرجة تهدد وجود الاتحاد السوڤييتى ذاته(٤٨).

لقد رأت وكالة المخابرات المركزية فى الإسلاميين الناشطين فى آسيا الوسطى حلفاء فى الحرب الباردة ضد الاتحاد السوڤييتى والصين الشيوعية؛ فصبّت الولايات المتحدة بلايين الدولارات كمساعدات، وكثيرا من المساعدات العسكرية لحركة المجاهدين (المقاومة الأفغانية) من خلال الصلات التحتيَّة بين المخابرات الأمريكية والمخابرات

الپاكستانية[٤٩]. وكانت النتيجة أن هؤلاء الإسلاميين المسلّحين من أكثر من عشرين دولة مسلمة انجذبوا إلى معسكرات التدريب الإسلامية على الحدود الپاكستانية الأفغانية. وكما يلاحظ أحمد رشيد:

«بتشجيع فعّال من المخابرات المركزية الأمريكيّة وجهاز الخدمات الاستخباراتية المتبادلة الپاكستانى ISI، اللذين أرادا أن تتحول حركة الجهاد الأفغانية إلى حرب عالمية تشنها كل الدول الإسلامية ضد الاتحاد السوڤييتى، انضم حوالى ٣٥,٠٠٠ راديكالى مسلم من أربعين دولة مسلمة فى الفترة من ١٩٨٢م إلى ١٩٩٢م للحرب فى أفغانستان. بالإضافة إلى عشرات الآلاف وصلوا إلى پاكستان للدراسة فى مدارسها. وفى آخر الأمر كان هناك أكثر من مائة ألف راديكالى مسلم غير پاكستانى قد تأثّروا تأثّرا مباشرا بالجهاد الأفغانى»[٥٠](*).

وكان من هؤلاء الإسلاميين الراديكاليين أسامة بن لادن، وآخرون مثله يعكسون رعاية السعودية وپاكستان والولايات المتحدة ـ رعاية مشتركة ـ لهذه الحرب الإسلامية (الجهاد). فى المدارس الپاكستانية والأفغانية التى تموّلها السعودية، تعلم المجاهدون صورة المجتمع المثالى المسلم كما كان حاله زمن محمد ﷺ فى المدينة منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة مضت، وهو المجتمع الذى حاولت طالبان فى وقت لاحق إعادة بنائه فى أفغانستان. وفى معسكرات فى أفغانستان التى تمولها المخابرات المركزية الأمريكية تدرّب المجاهدون على حرب العصابات وتقنيات الإرهاب التى لم تساعدهم فى إخراج السوڤييت فحسب وإنما ساعدتهم ـ بعد الحرب ـ فى حرب أهلية مدمّرة فى أفغانستان، كما ساعدتهم بعد ذلك فى شنّ هجمات إرهابية على أمريكا.

ومن وجهة نظر الولايات المتحدة، كانت الحرب ضد السوڤييت حربا صليبية خيّرة صالحة ضد الشيوعية «a righteous crusade against communism» وكان الإسلاميون يعتبرون الحرب ضد السوڤييت الغزاة جهادا، ومما يدعو للسخرية أنّ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية آثرت المجاهدين على نفسها؛ لإخلاصهم وشجاعتهم

(*) كان الإعلام الأمريكى وقتذاك يُطلق عليهم «جنود الحرية»، وكانت تساعدهم الحكومات العربية والپاكستانية فى مختلف المجالات: عسكريًا، إعلاميًا، دينيًا، ماليًا ـ المترجم.

الانتحارية؛ مما جعلهم وكأنهم المنتصرون فى الحرب. فكما ذكر چون إسپوزيتو Esposito «بالنسبة لأمريكا فقد كان هذا جهاداً طيبا good jihad» كانت الولايات المتحدة قادرة به على دَعْم المجاهدين holy warriors وتشجيعهم مقدّمةً لهم دعما ماليا مهما وخبراء ومستشارين من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية(٥١).

إنها لمن سخرية الأقدار أن يكون تأسيس نموذج المجتمع الإسلامى المثالى على نمط العصور الوسطى والمتأثر بالنّهج السعودى - فيما بعد الحرب السوڤييتية الأفغانية - قد تلقّى دعمًا من الولايات المتحدة وتأييدا.

وساعدت المخابرات المركزية الأمريكية - عَبْر المخابرات الپاكستانية ISI - فى بناء معسكرات تدريب القاعدة، ودافعت بقوة عن مجمع كهوف تورا بورا Tora Borra Cave Complex فى الجبال بين أفغانستان وپاكستان، وموّلت تكنولوچيا الاتصالات والسلاح التى نشروها هناك. وتكنولوچيات الحرب المتقدمة هذه ساعدت - بالتأكيد - المجاهدين على طرد السوڤييت، وعززت أيضا اتجاهات العنف الفاسدة فى المجاهدين القادمين من السعودية واليمن ومصر وغيرها - تلك الاتجاهات التى كانت كامنة بالفعل. وبطرد السوڤييت، وقع المجاهدون فى فخ الحرب الأهلية الشريرة فى أفغانستان، والتى انتهت بترسيخ حكم طالبان الإسلامى المتطرف على دولة اعتراها الخراب. لكن نجاحهم فى طرد السوڤييت لم يكن صنْوا لإنجازاتهم فى مضمار الحكم، فقد فشلوا فى إقامة برلمان أو أى طريقة لإدارة البلاد، فلم يكن لديهم خطة للنهوض بالزراعة، وإن نجحوا فى إخماد إنتاج الأفيون. لقد اعتقد الطالبان أن الإسلام هو الحل، وأنه «هو الذى سيرعى كل شىء دون حاجة إلى دولة منظمة أو خدمات مدنية»(٥٢).

وكانت السعودية - جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وپاكستان - داعما آخر رئيسيا للمجاهدين وطالبان. لقد تأسست المملكة العربية السعودية فى القرن ١٨ على يد محمد آل سعود، الزعيم القبلى والمصلح الإسلامى محمد بن عبد الوهاب الذى أعطى اسمه للحركة الدينية المعروفة بالوهّابية والتى سادت السعودية منذ ذلك الحين(٥٣). والإسلام الوهابى هو الأكثر تقويّة (پيوريتانية) والأكثر اعتمادا فى رؤاه المستقبلية على الجهاد من بين كل أشكال الإسلام الأخرى، وبتأثير الإسلام الوهابى أصبحت

السعودية إحدى أكثر الدول طغيانا واستبدادا لا فى الشرق الأوسط فحسب وإنما فى العالم كله. وقامت الوهابية بتمويل آلاف المساجد والمدارس فى مختلف أنحاء العالم؛ لتنشر التطرف البغيض وتستأصل أشكال الإسلام الأخرى المتسمة باللين والتسامح، فكما لاحظ رشيد: «ما تصدّره السعودية من وهابية قد ارتد الآن إلى مُصدِّره ليقوّض بشكل متزايد سلطة الأسرة المالكة. فلم يستقبل الشعب السعودى بآذان صُم انتقادات بن لادن للحكم السعودى بالفساد وسوء الإدارة[٥٤]. يُعد التغير الداخلى فى العلاقة بين الأوتوقراطية الملكية والإسلاميين مفتاحا أساسيا فى فهم ما قبل التورط السعودى فى الهجوم على أمريكا، والعنصر الآخر - الذى يُعد مفتاحا للفهم أيضا - هو زيادة الخلاف بين بن لادن ومسانديه السابقين من السعوديين والأمريكيين.

وبعد طرد السوفييت من أفغانستان عاد بن لادن عودة البطل إلى السعودية واستُقبل بترحاب، لكنه وجد عند عودته لبلاده فساداً متزايدا بين النخبة الحاكمة التى كانت تعيش فى أبّهة، بينما غالبية الشعب السعودى تعانى فقرًا نسبيا، إذ كانت البطالة والفقر بين سكان الحضر قد انتشرا فى السعودية فى تسعينيات القرن العشرين، وجمع بن لادن حوله أتباعا من الشباب السعودى من الطبقة المتوسطة، الذين اعتنقوا أفكارا راديكالية بسبب تزايد التمايز بين الأفراد وتزايد القلق الاجتماعى. **وكان غزو صدّام حسين للكويت هو الحدث الذى حثّ بن لادن على بدء الحرب المقدّسة - الجهاد - ضد البيت السعودى الحاكم والولايات المتحدة التى تدعمه. لقد اقترح بن لادن على الملك فهد أن يجهز جيشا لطرد العراقيين من الكويت، لكن السعوديين قبلوا عرضا أمريكيا، وسمحوا للقوات الأمريكية بإنشاء قواعد عسكرية فى جنوب السعودية لتنطلق منها مواصلةً حرب الخليج[٥٥]. وبالنسبة لـ «بن لادن» وأتباعه كانت هذه القواعد العسكرية احتلالا أجنبيا لأرض المسلمين المقدسة، التى يعد احتلالها إهانة وتجديفا على محمد ﷺ[٥٦]. غادر بن لادن العربية السعودية، وذهب أولا إلى السودان، ثم عاد إلى أفغانستان حيث اندمج فى سنة ١٩٩٦ مع القيادة العليا لطالبان، وأعلن رسميا «الجهاد» ضد أمريكا. كانت أهدافه هى إخراج القوات المسلحة الأمريكية من أرض النبى المقدسة وإسقاط بيت آل سعود الفاسد، وحكومات الشرق الأوسط الأخرى الفاسدة التى تدعمها الولايات المتحدة**[٥٧].

ونقل بن لادن فى سنة ٢٠٠٢م فى «خطابه للشعب الأمريكى» قضية احتلال اليهود لفلسطين ليجعلها فى مكان محورى، بعد أن كان حديثه موجَّها للولايات المتحدة وأوروبا، فقد أعلن فى إجابة له عن سؤال طرحه: «لماذا نحاربكم؟» بأن أجاب قائلا: «لأنكم تهاجموننا، وأنتم مستمرون فى مهاجمتنا» ووصف بالتفصيل مدى دعْم الولايات المتحدة لهجمات حكومة أريل شارون وجيشها ضد الفلسطينيين(٥٨).

وحمّل بن لادن أمريكا مسئولية قمع الفلسطينيين بدعمها الاقتصادى والعسكرى لإسرائيل. وهناك بعض الحقيقة فى هذا. فسُدس المساعدات المالية الخارجية الأمريكية موجَّه لإسرائيل رغم أن إسرائيل تحتل المكانة رقم ١٦ فى قائمة أغنى دول العالم. وبالإضافة إلى المساعدات الأجنبية الضخمة، تتلقَّى إسرائيل ١,٨ بليون دولار سنويا من الولايات المتحدة على شكل مساعدات عسكرية(٥٩). ويذهب ثلث آخر من المساعدات الأمريكية فيما وراء البحار لجيران إسرائيل - وإلى مصر والأردن بصفة أساسية - لبسط النفوذ الأمريكى، ولمنعهم من القيام بأعمال عدائية ضد إسرائيل، فكما لاحظ روبرت فيسك أن هذه الهبات السخيّة الأمريكية تشترى بها للمصريين حكومة تزعم أن رئيسها حصل على ٩٨٪ من أصوات جمهور الناخبين، بينما يعانى معارضوه فى السجون أو يحرمون من القيام بدور فى العملية الديمقراطية(٦٠). وعلى هذا فقد صوّر بن لادن هجوم القاعدة على الأمريكيين بوصفه عملاً من أعمال الدفاع: «الرسالة هى نشر كلمة الله لا ذبح الناس، فنحن أنفسنا هدف للقتل والتدمير والوحشية، كل ما نفعله هو أننا ندافع عن أنفسنا. إنه جهاد دفاعى. نريد أن ندافع عن شعوبنا وعن أرضنا، لذا فنحن نقول: إذا لم نحظَ بالأمن فالأمريكيون أيضا لن يحظوا بالأمن. هذه عبارة بسيطة يمكن لأى طفل أمريكى أن يفهمها. عش ودعنى أعيش».

ففى رأى بن لادن أن المسلمين ليسوا هم المعتدين، وإنما الأمريكيون، فهم الذين نهبوا ثرواتنا ومواردنا وبترولنا، وهم الذين يهاجمون الدين الإسلامى(٦١).

ويصوّر بن لادن نفسه كشخصية مؤثرة (كارزمية) لا نظير لها، تحارب أمريكا القوية وحلفاءها من أجل إحلال نظام إسلامى جديد، ويرتدى كثيرون من الأولاد المسلمين قمصانا عليها صورته. لكن بدون دعم الأمريكيين للبيت السعودى، وبدون دعم الأمريكيين والسعوديين لإنشاء تنظيم القاعدة وقواعده فى أفغانستان، ما كان بن لادن

وشبكته من المتطرفين بقادرين على الحصول على الموارد لمهاجمة أمريكا، بل وما كان لتنظيم القاعدة ـ الممتد فى أرجاء العالم ـ وجود. وكان للمخابرات المركزية الأمريكية منذ مدّة طويلة كلمتها فى هذا النوع من النتائج غير المتوقعة لعملياتها السرّيّة «Blowback»[٦٢]. فطرق المخابرات الأمريكية تجعلها تتعامل مع عناصر فاسدة ليست محل ثقة ـ وهذا أحد الملامح التقليدية للإمبرياليّة. **فالإمبراطورية الأمريكية تشبه تماما الإمبراطورية الرومانية، من حيث حاجتها إلى عملاء محليين يتعاونون معها، وهى تريدهم فاسدين قابلين للرشوة يعملون ضدّ شعوبهم. لهذا السبب ـ على وجه التحديد ـ فإن أمريكا سواء فى حروبها الإمبريالية السرية أو العلنية، تجد نفسها تساند أولئك الذين تعرف شعوبهم أنهم عناصر سيئة. ولم يكن هذا على أية حال رؤية إدارة بوش عن أصول تنظيم القاعدة**[٦٣].

السياسات الرؤيوية الحديثة

الإسلامية «Islamism» ليست بطبيعة الحال أمريكية الأصول. لكنها تشارك أمريكا فيما هو أكثر من الدعم المالى. فكما أنَّ للعلمانيين، واليمين المسيحى فى أمريكا رؤية للتاريخ ونهايته، فإننا نجد أيضا أن الإسلاميين يرون أنفسهم مرتبطين بمعركة عالمية رؤيوية للتاريخ. وفى سنة ١٩٨٩م، نشر فرانسيس فوكوياما مقالا كان له تأثير كبير، يحمل عنوانًا رؤيويًا هو «نهاية التاريخ» زعم فيه أنه مع نهاية الحرب الباردة، انتهت المعركة الأيديولوچية على معنى الحداثة؛ لأن السوق الحرة قد انتصرت على اشتراكية الدولة[٦٤]. فرأسمالية السوق الحرة الأمريكية فى هذه الرؤيا هى الشكل النهائى للاقتصاد السياسى، فى تطور التاريخ الإنسانى. وساق فوكوياما الأدلّة ـ تماما كما فعل الپيوريتانز القائلون بما بعد الألفية ـ ليؤكّد أن أمريكا هى هدف التاريخ. ويشترك مع فوكوياما فى رؤيته هذه ـ الآن ـ عدد كبير جدا من السياسيين من كل شرائح المجتمع الأمريكى، بما فى ذلك اليمين الدينى الذى ساق الأدلّة على الشرعية القُدسيّة للسياسة الخارجية الأمريكية المعادية بشدّة للشيوعية، والمؤيدة لإسرائيل، وللرأسمالية، وللسيادة الأمريكية على العالم. ويحاجج جراى باوير داعية التليفزيون الإيڤانچليكى بأن انتشار الرأسمالية الأمريكية والدين الأمريكى عبر العالم، يُعد مؤشّرا على اقتراب نهاية التاريخ، وعلى اقتراب تفويض يسوع المسيح بتنصير كل الأمم قبل نهاية الزمان.

يرى باوير وآخرون مثله «العولْمة هى تحقيق للنبوءات الرهيبة الواردة فى الكتاب المقدس، والتى تؤذن بعودة يسوع المسيح، وبداية معركة هرماجدون»(٦٥). وهذا يضيف التفافًا مهمّا جديدًا لإعلان فوكوياما نهاية التاريخ. وحيث إنَّ نظرة فوكوياما الرؤيوية تعتمد على التقدميّة التنويرية وتنطوى على الزعم بأن التاريخ قد اتخذ شكله الأيديولوچى النهائى، فإن اليمين الدينى يعتقد أن نهاية الحرب الباردة تعنى حرفيا اقتراب نهاية العالم.

المتدينون المدافعون عن سيطرة أمريكا على العالم، وقراءة انتشار الرأسمالية الأمريكية كنوع من التبشير الذى ينبئ بنهاية التاريخ - كل ذلك يُذكرنا بشكل ملحوظ بعقائد الإسلاميين الراديكاليين التى ألهمت المؤسسين الإسلاميين لتنظيم القاعدة. فكما يُدَلّل چون جراى، فإن الإسلاميين المحدثين يشتركون مع الرأسماليين الليبراليين الجُدد واليمين الأمريكى المسيحى فى أنهم مسئولون عن التاريخ، فالإسلاميون المحدثون يعتقدون - كما تبين أيديولوچيتهم وممارساتهم السياسية - أن التاريخ لن ينتهى قبل انتصارهم(٦٦). وهم أيضا يشتركون مع الرأسماليين الليبراليين الجُدد فى الرغبة فى طَمْس الأشكال المختلفة للحضارة والسياسات والقيَم. إنهم يعتقدون أن قَدَر البشرية موجّه إلى نسق عالمى واحد من العقائد والشعائر، وأنهم يمثلون طليعة ثورية أوْكل الله إليها ضم بقية البشرية إلى الصف؛ ليكونوا جميعا مع مسار المستقبل الذى يدركون هم وحدهم مراميه.

وتكمن أصول الإسلامية فى الحركات الإسلامية المناهضة للاستعمار والحركات الإسلامية الوطنية - مثل جماعة الإخوان المسلمين المصرية وجماعة الإسلام الجنوب آسيوية. اتحدت هاتان الجماعتان فى الشّك في الحكام المسلمين، وفى المعلمين الذين سعوا لإيجاد حلول وسط بين التعاليم الإسلامية والمقولات الثقافية والاقتصادية والسياسية، أو تبادلوا المصالح مع القوى الاستعمارية الغربية فى فترة الاستعمار أو بعده. وبدأ المفكرون المسلمون فى منتصف القرن العشرين فى التحقق من أن تقليد الغرب لم يؤدِّ إلى الازدهار، بل الأقرب للصحة أنه أدّى إلى وضع بلادهم تحت مستوى التطور المطلوب، كما أدّى للخضوع للغرب - حتى فى سياق ما يُفترض أنه بعد الإمبريالية(٦٧). وكان رد فعلهم هو العودة إلى تراثهم كمصدر لهويّة جديدة، ومجال «الجهاد» جديد على مختلف الأصعدة الأخلاقية والسياسية والروحية ضد السيادة

العالمية للثقافة الغربية والرأسمالية، ضد التسمم الغربى «Westoxification» على حد تعبير المفكرين الإيرانيين[٦٨]. سعى الإصلاحيون الإسلاميون إلى إعادة ضبط الممارسات الأخلاقية والدينية للمسلمين، وإعادة تنظيم دولة المسلمين واقتصادها على وفق ما زعموا أنه الخطوط الإسلامية التقليدية، والتى تناقض التأثيرات الاستعمارية والتأثيرات الغربية فيما بعد المرحلة الاستعمارية.

وعلى هذا فالتعاليم الإسلامية الجديدة ليست هى ببساطة إعادة ولادة للإسلام التقليدى، وإنما الأقرب للصحة إنها محاولة لشد الإسلام التقليدى إلى حركة ثورية مدينة لماركس أكثر مما هى مدينة لمحمد ﷺ[٦٩]. والمفكرون المسلمون - وكثيرون منهم تعلموا فى المدارس الإصلاحية فى مصر أو على يد معلمين درَّسوا فى هذه المدارس - قد أعادوا توظيف التراث الإسلامى ليخلّصوه من الدوران فى دائرة التأثيرات الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية. لقد رفضوا الفصل الاستعمارى بين المجال العام العلمانى الذى نظمه الأوروپيون كنظام مستقى من التطبيقات الاقتصادية والقانونية من ناحية، والمجال الشخصى المتعلق باللباس والعلاقات بين الجنسين والطعام وممارسة الطقوس الدينية[٧٠]. هذا هو السبب فى الصراع الذى حدث أول الأمر بين الإسلام الإصلاحى والممارسات الإسلامية السائدة حول طريقة اللباس والفصل بين الجنسين، أو الصراع الذى حدث بين الأقليات المسلمة والسلطات المدنية فى دول مثل فرنسا وإسپانيا، حول هذه المسائل نفسها. تلك المصادمات الرمزية الباكرة هى المواجهة الأولى لبرنامج إصلاحى أكبر، تطور فى دول مثل السعودية وإيران وپاكستان ونيچيريا والسودان، وفى ولايتين من ولايات ماليزيا إلى مشروع نظامى لإخضاع كل المجتمع - بمن فيه من غير المسلمين - للشرعية الإسلامية.

وكثيرون من الذين انجذبوا للإسلامية الراديكالية إنما هم من المهاجرين الرِّيفيين الذين وصلوا حديثا للمدن الصناعية، وكانوا قد غادروا قراهم التقليدية بفعل قوى الحداثة على الصعيدين الاقتصادى والتقنى، تلك القوى التى فشلت الحكومات الإسلامية فى حمايتهم منها، أو كانت غير قادرة على تقديم الحماية اللازمة لهم. تجربة الفقر والتبعية الاجتماعية بين سكان المدن الجدد هؤلاء جعلتهم ينفتحون على أشكال من التديّن ذى طابع قتالى لتحدى العلاقة المفترضة بين التقدم الاجتماعى والحداثة

والتغريب «Westernisation» فى مجتمعاتهم[٧١]. وثمّة إسلاميون راديكاليون آخرون هم من العائدين إلى بلادهم من الغرب الذى درسوا فيه، وكانت التجربة التى خاضوها فى الغرب هى سبب راديكاليتهم. ففى مقار الإقامة المهيأة للطلاب، غالبا ما كانوا يتأثرون بالراديكاليين الإسلاميين الذين يستغلون إحساس الطلبة الجدد بالغُربة فى وسط ثقافى مختلف، خاصة ما يتعلق بالجنس، وحقيقة أنهم بعيدون عن التأثير المعتدل فى بلادهم - لتحويلهم إلى إسلاميين راديكاليين يكافحون ضد الغرب، وضد الحكام المسلمين المتآلفين مع الحضارة الغربية.

وفكرة «الجهاد» فكرة محورية بالنسبة لقضية الإسلاميين القتالية. وكلمة الجهاد تعنى حرفيا الكفاح، لكنها تقليديا لا تشير إلى الحاجة للعنف، بل العكس فهى تشير إلى الكفاح الأخلاقى والروحى الذى يبذله المسلم ضد الشهوات، وضد كل ما يهدد الحياة النقية القُدسيّة. لكن الجهاد يشير - على وفق تكييف سيد قطب، الزعيم المسلم السنى المصرى - إلى معركة قتالية داخل الإسلام نفسه من أجل أسلوب حياة إسلامى حقيقى، ومن هنا يأتى النضال ضد الغرب وحلفائه من الحكام المسلمين، لقد درس سيد قطب فى أمريكا واشمأز مما اعتبره فراغا روحيا، وإباحية جنسية. وعاد إلى مصر حيث وضع كتابه معالم على الطريق، وهو كتاب يُقرأ على نطاق واسع. كتبه فى السجن أيام حكم عبدالناصر. لقد كتب ذاكراً أن المسلمين - حكاما ومحكومين - قد فرطوا بحلول وسط فى دينهم مع الغرب اللاأخلاقى، وعلى هذا أصبحوا فى «جاهلية» أى أصبحوا يعيشون فى حالة جهل بتوجيهات الله وتعاليمه. والإسلاميون المتنوّرون عليهم واجب النضال ضد هؤلاء المسلمين الجاهلين ليعيدوا تأسيس الإسلام كنهج حياة (وغالبا ما يطلق على مَنْ أسموهم بالمسلمين الجاهلين - من باب الإهانة - كَفَرة).

وكان سيد قطب متأثرا بالمفكر الهندى [المولد] المسلم مولانا المودودى الذى أسس شبكة جنوب آسيا الإسلامية والتى اتّهم زعيمها فى أندونيسيا بترتيب تفجيرات بالى فى سنة ٢٠٠٢، المودودى ذو تأثير كبير فى الإسلامية الحديثة، لأنه هو أوّل من شرح بالتفصيل معنى الجهاد مشيرا إلى نضال عسكرى ضد القوى الاستعمارية والمتعاونين معها من المسلمين. وطوّر المودودى نهجًا إسلاميا باعتبار الإسلام أسلوب حياة كامل يناقض منهج تبعيّة المسلمين للاستعمار فى أمور القانون والسياسة والاقتصاد والأفكار

الدينية والممارسات. وانساب قلمه بتفاصيل عن الاقتصاد الإسلامى والسياسات الإسلامية والدستور الإسلامى والتى بها جميعا يتمكن المسلمون من العيش على وفق الشرعية الإسلامية المستقاة من القرآن المُوحَى به وتعاليم النبى ﷺ.

وبالنسبة لسيّد قطب فإن النضال من أجل هذا النهج فى الحياة (النهج الإسلامى) ينطوى على «إعلان عالمى بتحرر الإنسان من عبودية الآخرين؛ بترسيخ سيادة الله وهيمنته على العالم، وإنهاء عجرفة الإنسان وأنانيته؛ وتضمين حكم شريعة الله فى أمور البشر[٧٢]».

تشير لغة سيد قطب الرؤيوية وخطابه العدوانى إلى أنه تصورّ أن النضال سيتضمن استخدام العنف ضد أعداء الإسلام بما فيهم دول المسلمين الفاسدة: إنها مسئولية المسلمين الإصلاحيين أن يتخلّصوا من مثل هذه الدول تماما، بقصد أن يتمكن الإسلام النَّقى من الزعم بحقه فى كل الأرض the whole earth فمن المطلوب أن يدخله كل الناس وأن يغمر العالم[٧٣]. ويرى سيد قطب أن هذه الحرب من أجل إسلام عالمى جديد هى «جهاد» إسلامى، معناه الحقيقى - ليس بالضبط حركة دفاعية - كنضال من أجل حكم الله فى حركة لإزاحة الطغيان، وتقديم حرية حقيقية للبشر، باستخدام كل إمكانات عملية متاحة[٧٤]. وخطاب بن لادن يحمل أصداء قوية لهذه الفلسفة الإسلامية عن فتح العالم. وعلى أية حال فإن دعوى بن لادن ودعوى سيد قطب من قبله أن يكون المسلمون متمسكين بتراثهم هى دعوى موضع شك عميق. فعندما يقترحون - أو يبدأون كما فى حالة بن لادن - نضالا ثوريا عنيفا ضد حكومات مسلمين، وضد حكومات غربية، فإنهم لا يستوحون كثيرا من تعاليم القرآن، وإنما يستوحون أكثر من البلشفية والماركسية. فكما افترض جراى فإنهم فى الوقت الذى يزعمون فيه أنهم ضد الغرب، فإنهم يشاركون خصومهم الغربيين فى مقولة إن «العالم يمكن إعادة تشكيله بعمل إرادى»[٧٥]. وهناك أيضا توازٍ مهم بين المشروع الإسلامى لإعادة تشكيل العالم، والمشروع الرأسمالى الليبرالى الجَديد للتجارة «الحرة» وإعادة ترتيب العالم، والدفاع عنه بواسطة مكائد المحافظين الجدد الذين يُسيِّرون الآن السياسة الخارجية الأمريكية، والذين نفذوها فى ظل حكومة بوش بتوجيه رُؤيوى واضح. فهدف بن لادن مثل هدف بوش وتشينى، ورامسفيلد، وولفوڤتس - وهو فتح العالم

والسيطرة عليه. **إنهم أيضا** سيسقطون كل أعداء أمريكا وكل عدو «الحرية» التجارة والديمقراطية والحرية فى أى مكان فى العالم، وحيثما وجدوا، وبأى أسلوب قد يكون مناسبا. بوش يعتقد بحماس شديد العقيدة نفسها التى اعتقدها ويليام شاننج أو وودرو ويلسون، والعقيدة نفسها التى اعتقدها چيرى فالويل أو رونالد ريجان، أن قضية أمريكا قضية عادلة وصادقة؛ لأن أمريكا هى أصدق نموذج على ظهر الأرض للقيم المقدسة؛ قيم الحرية والديمقراطية. إن إيمان بوش الشديد بقضيته هذه يساوى إيمان سيد قطب أو بن لادن بقضيتهما، فكما يقترح ستانلى هاورڤاس: فإن ما هو خطير حول هذه القيم هو بالتحديد الاعتقاد بأنها عالمية، وأن كل العقلاء لا بد أن يعتنقوها، وبالتالى فإن كل من يرفضها غير عقلانى، بل ومخبول(٧٦). وعلى هذا فيبدو من المعقول جدا أن يذهب للحرب لفرض قيمتى الحرية والديمقراطية. وبتعبير آخر فإن تحوّل الحلم الأمريكى إلى حرب عالمية مع أولئك الذين يقال إنهم يعارضون المصالح الأمريكية والقيم الأمريكية، هو نتيجة لعقلانية التنوير. فالتاريخ العالمى لإنسانية متنوّرة تتقدم نحو السلام، يضفى الشرعية على حربٍ مستمرة لتحقيق هذا السلام.

وعلى أية حال، فليس العقل هو الذى يجعل بوش وبن لادن يسعيان للتحكم فى قَدَر العالم، وإنما إيمانهما الرّؤيوى. فلا يمثل بوش أو بن لادن التنوير. فدعواهما المتتابعة لمهمة مقَدَّسة ولَقَدر قدَّره الله، واعتقادهما المسيانى وإيمان كل منهما أنه المختار الوحيد للدفاع عن شعبه ضد الهجوم - كل هذا يخاطب مرحلة ما قبل التنوير والخصوصية الدينية. فالمسألة ليست أنهما عقلانيان، بل العكس تماما هو الصحيح: فهما لا يريان المناقشة والحوار وتبادل الرأى بشكل عقلانى بالأمور الكافية لمعالجة ما يقومون به من أعمال، وإنما الأعداء هم الشر لا سبيل للتعامل معهم سوى باستخدام القوّة والعنف. أنت لا تُعمل العقل مع الإرهابيين (أو الأمريكيين إذا كنت أنتَ بن لادن) فما عليك إلا أن تقتلهم. **هذا كل ما فى الأمر. وهذا بالضبط هو الاعتقاد الرؤيوى لكل من بوش وبن لادن، فنظرة كل منهما للعالم هى النظرة الوحيدة الممكنة، وهى النظرة الوحيدة العقلانية المتاحة، مما يجعل كلاً منهما خطرًا شديدا يهدد سلام العالم.**

فى ذروة الحرب الباردة، قدَّم رينهولد نيبور - اللاهوتى الأمريكى البارز - تبريكات لاهوتية للنضال الأمريكى ضد السوڤييت. لقد عبَّر نيبور فى كتابه «سخرية التاريخ

الأمريكى» عن وجهة نظر نراها شائعة الآن بين المعاونين السياسيين والمنظّرين فى إدارة بوش، وهى أن الترتيبات السياسية الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى هى الأكثر ملاءمة، بل وهى الترتيبات الاجتماعية الوحيدة التى تأخذ بها الشعوب العاقلة، بل والتى يجب أن تأخذ بها كل الشعوب على أية حال، وتصبو إليها. واعتقد نيبور - رغم تحذيراته الباكرة من أخطار الديمقراطية التى قد تخطفها المصالح الجزئية(٧٧) - أن الله كلف الحضارة الأمريكية بالنضال ضد الشيوعية، وأنها - أى الحضارة الأمريكية - هى التى ستشكل التاريخ الإنسانى لتصل به إلى قدره. ورغم انتقاده الباكر للإنجيل الاجتماعى(*)، فإن جنون الشك والارتياب الناتج عن الحرب الباردة كان يعنى أن نيبور تراجع فى النهاية إلى عقيدة ما بعد الألفية - وهى العقيدة الأمريكية التقليدية - القائلة بأن مملكة الرب - قد تحققت بالفعل فى التاريخ الأمريكى، باعتبار أمريكا أول أمة ديمقراطية حقا.

حكاية ما بعد الألفية عن التفوق الأمريكى، تجد مدافعين مفوهين عنها من نخبة المفكرين فى الساحل الشرقى، برغم تصويرها فى شكل تقليدى أكثر من الشكل اللاهوتى. ويضع روبرت كاجان فى كتابه ذى التأثير (الفردوس والسلطة) أساس القوة العسكرية والأيديولوچية لأمريكا، ويربطها بالضعف الأوروبى مما يذكرنا - بعمق - بنيبور، وكذلك بأسلوب بوش وكتّاب خطبه(٧٨). يتتبع كاجان الاعتقاد فى «الأهمية السَّامِيَة للتجربة الأمريكية» منذ أيام الآباء المؤسسين؛ لأن الأمريكين «كانوا دائما دوليينَ ليس بمعنى وجود مؤسسات دولية، وإنما بمبادئهم «وهذا هو السبب الذى جعل من السهل دائما على كثير من الأمريكيين أن يعتقدوا أنهم بإحراز تقدم فى تحقيق مصالحهم، فإنهم يُحقِّقون مصالح الإنسانية جمعاء، ولا زال كثير من الأمريكيين يعتقد الفكرة نفسها، فكما قال بنيامين فرانكلين: قضية أمريكا هى قضية البشر جميعاً(٧٩).

سبق نيبور كاجانَ فى عدة طرق جديرة بالملاحظة، بما فى ذلك الزعم بأن الأمريكيين مهتمون بكسب الحروب بينما الأوروبيون مهتمون بتجنبها، وأن أمريكا قوية تقنيا وعسكريا، أما أوروبا فضعيفة، وأن أمريكا - على هذا - هى الوحيدة المناسبة والمقدَّر لها

(*) حركة مسيحية ليبرالية، تهتم بالتركيز على خدمة المجتمع أكثر من التركيز على التفاصيل اللاهوتية - المترجم.

أن تكون هى المؤيّدة للحق ولما هو خير على المسرح العالمى، وأن أمريكا فى سعيها «لخير العالم» يعوقها أصدقاؤها وأعداؤها على سواء، ومن هنا فإن أمريكا هى المهيأة للعمل وحدها [من طرف واحد] دفاعًا عن الحرية(٨٠). وعلى وفق رأى كلٍّ من كاجان وبوش، وانطلاقا من موقع كلٍّ منهما، فإن الأفراد يخدمون الصالح العام بشكل أفضل عندما يكون عملهم مؤديا لتحقيق مصالحهم، تلك الفرضية التى تؤكدها الليبرالية الاقتصادية الجديدة(٨١). **هذه الأولوية للاقتصاد والتى تجعله يسبق الاعتبارات المعنوية، تعزز زعما سياسيا أكبر، وهو أن أمريكا تعمل لصالح البشرية على نحو أفضل إذا كانت تعمل على وفق المصالح الأمريكية.**

تصور الليبرالية الجديدة والإمبريالية للاقتصاد السياسى، رؤيوى بنفس درجة رؤيوية أشكال الألفية الدينية المنفتحة، التى يعتقد المدافعون عنها أنهم مكلفون باتباعها بصرف النظر عن الدمار والعنف اللذين قد ينتجان من ذلك(٨٢). وعلى هذا، فرغم مزاعم كاجان وآخرين أنهم ورثة محافظون للتراث الأمريكى الجمهورى بجذوره التنويرية، فالحقيقة أنه لا شىء محافظ أو تقليدى فى رؤية الاقتصاد السياسى الليبرالى الجديد التى أخذ بها الرؤساء الأمريكيون من ريجان إلى بوش واتبعوها طوال الثلاثين عاما الأخيرة. فالمتابعة اللاعقلية للعقيدة الاقتصادية، قد أدّت إلى الدمار المرعب للمجتمعات البشرية والبيئية، وكان هذا بعيدا عن التراث المحافظ، أو المجتمعات المحافظة، أو البيئة الطبيعية.

يؤمن المدافعون عن هذه العقيدة بقضيتهم مهما كانت الحجج التى يسوقها الطرف المعارض لهم. حقيقة أنهم كلما واجهوا معارضة أكثر كلما زاد استخدامهم للعنف والتدمير فى متابعة مهمتهم المقدسة، فهم يرون هذا التدمير والعنف لازمَيْن لتحقيق مهمتهم، فهذا يؤكد ببساطة صدق رؤاهم النبوئية، الطريق الذى اختاروه. فمن أجل تحقيق الخلاص لا بد من معركة عنيفة ولا بد من تضحيات.

ويقتفى نورمان كوهن جذور السياسات الغربية الرُّؤَيوية إلى ألفيى العصور الوسطى، الذين اعترضوا على فساد البابوية فى أواخر العصور الوسطى: لقد وعدوا بتخليص العالم من الفساد والشر من خلال ثورة عنيفة ضد النظام القائم(٨٣). هذا

النوع من الرؤيوية كان ـ ولا يزال ـ يمثّل انحرافًا قويًا عن العقائد الأخروية فى العهد الجديد. فرغم أنّ يسوع المسيح جذب الزيلوت [طائفة يهودية عرفت بمقاومتها الشديدة للرومان] الثوريِّين وأصبحوا من أتباعه، إلا أنه قاوم الذين آزروا القيام بتمرد عسكرى عنيف ضد حكم الإمبراطورية الرومانية غير العادل. «لم يتنبأ المسيح ـ بكل تأكيد ـ بأحداث عنف تسبق المجىء الثانى لابن الإنسان «Son of Man»، لكن الحواريين أنفسهم حُذِّروا من محاولة السيطرة على هذه الأحداث. بل لقد أمروا ألا يتتبعوا من سيأتون بعده (بعد يسوع) زاعمين أنهم أعادوا اكتشاف المسيا messiah أو أن يحددوا ـ بدقة ـ وقت نهاية التاريخ. ففى إنجيل مرقس «وأما ذلك اليوم وتلك السّاعة فلا يعرفهما أحد» [١٣ : ٣٢]. وقبل كل شىء فإن أحدا لم يأمرهم باستخدام العنف لمحاولة ضبط التاريخ أو إيصاله إلى نهايته.

وتشتمل الرؤية الأمريكية الما بعد ألفية على الزعم بأن الجمهورية الأمريكية ـ وخاصة السوق الحرّة المرتبطة بشكل من الأشكال بالديمقراطية المُسَوّقة ـ هى الظهور الأول فى التاريخ لمجتمع بشرى حائز على الخلاص ـ مملكة الصّلاح الحقة المملكة الإلهية الحقّة true godly kingdom. لكن الرؤيوية المسيحية الحقّة هى الاعتقاد بأن المسيح قد أتى، وأن روح المسيح حاضرة فى الكنيسة، وأن المسيح سيأتى مرَّة أخرى ليبين للمسيحيين بدقة على الطبيعة المؤقتة وغير الكاملة لكل جهودهم لتأسيس حكم الله على الأرض. فالإيمان الأخروى المسيحى يدل على أن نهاية التاريخ يعرفها بالفعل كل المسيحيين الذين يؤمنون حقا بموت المسيح وقيامته؛ لأن هذه الأحداث هى الرؤيا التى خلّص الله من خلالها الدنيا من الشر، وقلد الكنيسة سلطة الشهادة على حكم المسيح على كل سلطة أو قوة أخرى. لكن هذه الشهادة هى دائما شهادة مؤقتة مشروطة؛ لأن المسيحيين ينتظرون أيضا المجىء الثانى للمسيح، فهم يعيشون «بين زمنين»؛ صعود المسيح ليكون على يمين القُدْرة «يمين الله ـ right hand of God» ليحكم بوصفه (ربّا للتاريخ the lord of history)، والمجىء الثانى الموعود (للمسيح) قبل القضاء الأخير. والآن فرغم أن حقيقة سلطان المسيح لا يمكن إدراكها إلا من خلال عيون الإيمان، لكن مضمونها السياسى واضح بالنسبة للمؤمنين. بعد القيامة والصعود، لم يعد لأىِّ أمة أو أى حكومة الحق فى الحكم، فكل حكومة من الآن فصاعدا مؤقتة

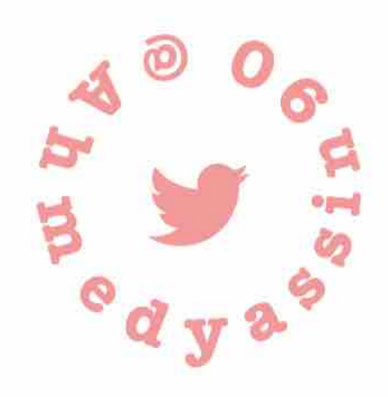
ومحدودة، ففحْوى الزعم الرؤيوى هو أن المسيح هو وحده الحاكم الحقيقى. وهذا الاعتراف يجعل كل الدعاوى الأخرى بالسيادة والسلطان والخلاص دعاوى نسبية، ويكشف الادعاء بالسلطان النهائى أو التفوق العالمى مبينًا زيفه وشره(٨٤).

هذا لا يعنى أن الكنيسة تُدعى كى تحكم لتحل محل الأمم كما فهم خطأ البابوات والأباطرة، كما أن هذا لا يعنى أيضا أن الأمة التى تَدَّعى أنها مسيحية ـ كما تخيل البيوريتانز مستعمرتهم الأمريكية على أنها مملكة الرَّب على الأرض ـ أن يكون لها الحق فى أن تمد حكمها لتبسطه على الشعوب الأخرى. بل العكس، فالاعتراف بأن المسيحيين يعيشون بين زمنين (زمن قيامة المسيح وصعوده، وزمن عودته الآتية) يمنعهم من أن ينظروا برضى كامل لمجتمعاتهم، ويمنعهم من اعتبارها تحقيقًا كاملاً لمعنى مملكة الرب. فهذه المملكة، ستقتحم التاريخ بحسم مع مجىء المسيح، فاكتمالها ما زال مُنتظرًا. وقد عرف المسيحيون الأوائل أن مجتمعاتهم وترتيباتهم السياسية كانت مؤقتة، وأنه على الأرض لا مكان لمدينة مستمرة. هذا الاعتراف يُبعد الرّؤى المسيحية عن العنف المقدر الذى يُعد من خصائص السياسات الرؤيوية الحديثة. فالمسيحى الذى يدرك المعنى الحقيقى لسفر الرؤيا ليس له الحق ـ وليس له مبرر ـ لاستخدام العنف للدفاع عن القيم المسيحية أو عن المدينة المسيحية، فهذه المدينة لم تأت بعد، وإنما هو لا يزال يتطلّع لها.

***

(٢)

ضياع الحلم


@Ahmedyassin90

الاعتقاد **ألما بعد ألفى** بأن أمريكا أصبحت قريبة من تحقيق مملكة الرّب على الأرض لم يعد نزعة سائدة فى النظرة الرؤيوية الأمريكية رغم أن بقيةً من هذا التراث ظلت موجودة فى مقولات ويلسون السياسية وفى العقيدة الاقتصادية الليبرالية الجديدة. وقد ظهرت عقيدة رؤيوية جديدة وهى العقيدة المعروفة **بالما قبل ألفية** ـ premillennialism والتى تعرف أحيانًا **بالتدبيرية الإلهية** (أى التدبير الإلهى لشئون العالم) dispensationalism ـ لدى البروتستانتية الإيفانجليكية evangelical الأمريكية، وذلك منذ الحرب الأهلية الأمريكية. هذه الرؤية الإيمانية الجديدة للدين الرؤيوى لها منظور أشد ظلمة بكثير لتاريخ أمريكا وكوكب الأرض. فالما قبل ألفيين يعتقدون أنهم يعيشون فى آخر الزمان، وهى فترة تنمو فيها الفوضى ـ انعدام القانون ـ والحروب المروّعة التى تهدد باستئصال الحياة البشرية على ظهر الأرض. فلن يعود المسيح إلاّ بعد هذه الأحداث المروّعة ليبدأ فى حكم العالم لمدّة ألف عام ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ يعمها السّلام، ويعتقد القائلون بالعقيدة الألفية أن سفر الرؤيا ليوحنا قد تنبأ بهذا. ويعتقد القائلون بالعقيدة ألما قبل ألفية أيضًا أنَّ المؤمنين الحقيقيين «سيختطفون» أو أنَّ الله «سينتزعهم» من الأرض قبل حدوث المحنة أو «الضيقة العظيمة ـ Tribulation» ولا يُبقِى على ظاهر الأرض إلاّ من قُدِّر لهم مواجهة الرعب ونهاية الزمان.

لقى انتشار فكرة ألما قبل ألفية فى أمريكا فى القرن العشرين دعمًا بسبب ضياع حلم مؤسسى الكومنولث الليبرالى الذى تحكم فيه المجتمعات نفسها بنفسها. لقد تلاشى الحلم بسبب الدمار المروّع للحرب الأهلية الأمريكية(*) وما تلا ذلك من ظهور الشركات المساهمة العملاقة الأحادية [التى تنفض من السوق المنافسين الآخرين ـ المترجم]

(*) استمرت حوالى ست سنوات، قتل فيها حوالى ستمائة ألف أمريكى، وكان إجمالى تعداد أمريكا ذلك الوقت أقل قليلاً من ٣٠ مليونًا، ويعنى هذا أنه من بين الرجال الذين فى سن القتال، قتل أكثر من ١ من بين كل عشرة ـ المترجم.

والحكومة الفيدرالية التى يزداد سلطانها من منتصف القرن التاسع عشر[١] . فالأمريكيون يشاركون أكثر من أى شعب فى العالم (باستثناء سويسرا) فى الانتخابات المحلية والإقليمية الديمقراطية - فهم ينتخبون العمد، والنواب العموميين والمحافظين والممثلين لكل ولاية، كذلك نواب الكونجرس الفيدرالى بمجلسيه والرئيس. هذا المدى الواسع من النشاط الديمقراطى على المستوى المحلى ومستوى الولايات والمستوى الوطنى العام، واكبه تعدّد غير عادى فى المؤسسات (أو التنظيمات) الدينية والروابط المحلية فى المدن الصغيرة والأحياء والمجاورات. الحد الذى تزدهر فيه ثقافة الديمقراطية والاتجاه التطوّعى هو دليل على ازدهار النموذج المثالى الأمريكى الأصلى للقاءات المفتوحة، التى تُدبِّر فيها المجتمعات أمورها أحسن تدبير. لكن استمرار هذه الثقافة ومؤازرتها قلبيًا أصبح مهددًا بشكل متزايد[٢] ، منذ استبدت الثورة الصناعية الأكثر ميلاً للمركزية ولمؤسسات الأعمال الكبرى، بهذه الرؤية الديمقراطية الباكرة.

النموذج الأمريكى الباكر للحكومة المثالية، يقوم على فرضية أنَّ الدولة تحتاج حكومة صغيرة، باعتبار أن الأفراد والمجتمعات المحلية كانت - من خلال تأثير الكنائس - فى الغالب مستقيمة وفعالة - تعتمد على نفسها وتحكم نفسها بنفسها[٣]، لكن ظهور الاقتصاد الصناعى والرأسمالية المركنتلية أوجد نمطًا جماعيًا جديدًا للحياة الاجتماعية وللحكم، مما كان يعنى أن البشر عامةً، والأمريكيين منهم خاصة، وجدوا أنفسهم أسرى سوق اقتصادى جعل منهم مجتمعًا واحدًا. وجود هذا الشكل الاقتصادى الجمعى الجديد ساعد - ومكّن - على ظهور دولة وطنية nation - state أكثر قوة، حيث أصبحت النخب الحاكمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمؤسسات الأعمال الكبرى. فى البداية كانت هذه المؤسسات مقيّدة بالطبيعة الديمقراطية لقانون الشركات الأمريكى الذى ظهر فى وقت باكر فى التاريخ الأمريكى، لكن سرعان ما أصبح لهذه المؤسسات الكبرى سلطة على المجتمعات التى كانت فى الأصل تتحكم فى أسهمها.

لقد مُنحت هذه الشركات والمؤسسات حقوقًا قانونية من خلال سلسلة من الأحكام القضائية فى منتصف القرن التاسع عشر، مكّنتها من فرض سيطرتها على رغبات مجالس المدن وعلى المواطنين[٤] .

وكان لتطور فكرة أن أمريكا هى السوق الاقتصادى الوحيد، ورأسمالية المؤسسات الأمريكية لها جذور - أيضًا - فى تراث المستوطنين الأمريكيين الأوائل. فقد كان تراث

البيوريتانز السياسى والدينى القائم على اعتماد الفرد على نفسه وعلى التجمعات [الدينية] كوسيلة لتحقيق الديمقراطية والحكم الذاتى ـ كان هذا التراث يسير جنبًا إلى جنب مع تراث الرأسمالية المركنتيلية الذى كان شكله الأول فى أمريكا ممثلاً فى اقتصاد الزراعة بين سكان ڤيرچينيا بفكرتهم الأرستقراطية عن المجتمع. كانت ڤرچينيا منذ بدايتها ـ على العكس من نيو إنجلاند ـ مجتمعًا طبقيًا بدرجة عالية، حيث كان ملاّك الأراضى قليلين، بينما كانت الأكثرية من الفقراء البيض ومن السود المسترقّين.

وكما أظهر داڤيد فيشر فإن التناقض بين ڤيرچينيا ونيو إنجلاند يعكس الأصول المختلفة للمستوطنين فى هاتين المنطقتين [٥]. فالبيوريتانز الذين استقروا فى البداية فيما يعرف الآن باسم نيو إنجلاند، معظمهم انطلقوا من التراث الخلافى فى شمال انجلترا وغربها، وكانوا ديمقراطيين ذوى توجّه مساواتى، لكن كثيرين من الڤيرچينيين كانوا ملكيِّين أرستقراطيين، أنشأوا مجتمعًا عميقًا فى طبقتيه على نسق التنظيم الإنجليزى، مجتمعًا كان على قمته الطبقة المالكة للأراضى، ومن هؤلاء كان على الجمهورية الناشئة أن تختار رؤساء بمن فيهم واشنطن، وچيفرسون، وفى ڤيرچينيا ـ على عكس الحال فى نيو إنجلاند ـ كانت المشاركة السياسية مقصورة على أصحاب الممتلكات والأراضى، وهذا ما ينطبق على ما كان عليه الحال فى جنوب انجلترا حيث تعود أصول معظم الڤيرچينيين. وكانت الحرية بالنسبة لمعظم الڤيرچينيين تعنى القدرة على الحكم، وكان هذا هو المفهوم نفسه الذى لدى الأرستقراطية الإنجليزية، وكان النموذج المثالى السياسى للڤيرچينيين هو ما أسماه فيشر «الحرية المسيطرة ـ **hegemonic Liberty**»[٦]. وكانت نتيجتها الطبيعية من الناحية الاجتماعية هى الرّق الذى هو حالة طبيعية يمكن أن يقع فيها حتى الإنجليزى إن ساقه حظه السيئ إلى ذلك، أو كان استرقاقه وفاءً لمديونية، وهذا المعتقد وافق عليه الفيلسوف الإنجليزى چون لوك الذى دلّل على أن كل الموارد الطبيعية ـ بما فى ذلك أجساد البشر ـ يمكن أن تكون تابعة لقانون الملكية الخاصّة، تمامًا كما قد يسوق سوء الحظ شخصًا إلى فقدانه مزرعته، فهو أيضًا ـ للسبب نفسه ـ قد يفقد حريته. كانت نتيجة الحرب الأمريكية الأهلية بين الشمال والجنوب هى إلغاء الرق، لكن عمق الطبقية الاجتماعية فى المجتمع الجنوبى ـ عرقيًا واقتصاديًا - لم يتم استئصاله بالحرب، بل وظل ـ حقيقة ـ مستمرًا إلى أيامنا هذه.

فالتراث الجمهورى الأمريكى هو مزاج من الاتجاهات الارستقراطية الملكية والمساواتية البيوريتانية، ولا بد من قراءة إعلان الاستقلال والدستور الأمريكى بوصفهما محاولة للمزاوجة بين هذين التراثين المتنافسين. وكانت النتيجة ـ فى الجوهر ـ دستور أكّد على الحق فى الحرية السياسية، لكن هذا الحق بقى مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالملكيّة. لم يؤسس الآباء المؤسسون جمهورية تؤيد الحرية، يُتاح فيها للعبيد أو الخَدَم المتعاقدين أن يتمردوا على سادتهم ويطالبوا بحرية يزعمونها لأنفسهم. على العكس ـ كما يدلّل ريتشارد هوفستادتر ـ فإن الدستور ـ رغم افتتاحيته ذات الطبيعة المساواتية ـ قد ضمن حريات للملاّك أكثر مما ضمنه للفقراء، بما فى ذلك «التحرر من اللايقينيات المالية ومن الاختلالات فى العملة، ومن الحرب التجارية بين الولايات، ومن التمييز الاقتصادى الذى تمارسه الحكومات الأجنبية الأكثر قوة، ومن الهجوم على الطبقة الدّائنة، ومن الهجوم على الممتلكات ومن العصيان المسلّح العام» (٧). كانت الحرية تُفهم ـ فى الأساس ـ على أنها حرية التملك وحرية التمتع بثمار الملكية. ولم يكن التأثير على الحكومة فى العملية السياسية قائما على أساس ديمقراطى، وإنما على أساس كمّ الممتلكات التى يمتلكها شخص أو مجموعة أشخاص. وتميز چورچ واشنطن، وتوماس چيفرسون بتخوفهما من العامة التى ليس لديها أراض أو ممتلكات. ومن ثمّ كان تدشين حكومة دستورية متوازنة لم تقدم حلاً مرضيًا للصراع بين الفقراء والأغنياء، هذا الصراع الذى لا يزال يميز جوهر مشكلة السياسات الأمريكية الحديثة حتى أيامنا هذه.

***

اللاهوت الجديد للملكية الخاصّة

ما هى الجذور الفلسفية والدينية لهذه الجمهوريّاتيّة القائمة على الملكية ومؤسسات الأعمال الكبيرة؟ أهذا مهم ذو مغزى مثله فى ذلك مثل البيوريتانية فى تشكيل التاريخ المقدّس لأمريكا؟ البراهين تؤكّد هذا. فچون لوك ـ الرحالة والفيلسوف الذى عاش خارج بلاده ـ يقدم لنا النص النموذجى لطبيعة الملكية والحرية التى اعتمدت عليها

منذ ذلك الحين. لقد جَالَ لوك فى أمريكا وطوّف وقضى كثيراً من وقته فى ملاحظة النضال المتنامى بين المستوطنين الإنجليز وأهل البلاد الأصليين للاستيلاء على الأرض (أرض الهنود الحمر). ومن ثمّ خصص لوك مساحة كبيرة فى كتاباته للحكم والسياسات للدفاع عن سياسة المستوطنين إزاء الأرض، خاصة القانون الاستعمارى الذى زعم التاج بمقتضاه ملكية الأرض المستعمرة وتحويل ملكيتها للمستوطنين. وبينما اعتقد لوك أن الهنود لهم الحق فى الصيد، والنباتات البريّة بدون تدخل إنسانى، فإنه يحاجج بأن أن التُربة نفسها ليست ملكًا للهنود، لأنهم غير متحضّرين وتنقصهم الصناعة؛ لذا فقد فشلوا فى زراعة الأرض، فالأرض إذن لمن استطاعوا فلاحتها بالعمل. وكان تبرير لوك لذلك لاهوتيًا.

لقد حاجج بأن الله رغم أنه أعطى الدنيا لكل البشر مشاعًا، إلا أنّ الله أيضًا أمر الإنسان أن يعمل فى الأرض، وبالتالى فليس من حق أحد أن يُلحق أرضًا بملكيته ويستحوذ عليها إلا إذا كان مطيعًا لأمر الله، فضم الأرض وحرثها وبذرها (٨). لم يكن قصْد الله أبدًا أن تبقى الأرض مشاعًا، وبالتالى غير مزروعة. وبهذه الطريقة، فسّر لوك الفقرة الواردة فى سفر التكوين (١/ ٢٨) «واملأوا الأرض وأخضعوها» باعتبارها أساس الزعم الاستعمارى بالسيطرة على جزء خاص من الأرض، واستئصال السكان الأصليين ودحض دعواهم بامتلاك هذه الأرض. فالإنجليزى حاز حق ملكيته على هذه الأرض بزراعتها وإقامة سور حولها؛ لأن ذلك يضيف قيمة للأرض، وليحيل ما أسْماه لوك «الأرض الخراب» إلى موارد منتجة لاقتصاد المستعمرة. فالأرض المملوكة على المشاع ـ كما كان الحال لدى السكان الأصليين ـ إنما هى أرض غير منتجة وغير ذات قيمة، ولا يمكن بالتالى القول ـ عن حق ـ إنها ملك لأحد. فالهنود ربما نعموا بثروة الأرض، لكنهم فشلوا ـ لنقص الحضارة والتعليم لديهم ـ فى استخدامها بشكل معقول، وبالتالى لم يطوّروها. و من هنا فإن الإنجليز ـ بما لديهم من أساليب صناعية ـ هم الملاّك الحقيقيون للأرض والجديرون بملكيتها وفق إرادة الله، ووفق القانون البشرى أيضًا. وعلى هذا فقد سيطر الإنجليز على العالم الجديد وخلّصوه بمهاراتهم الزراعية، بينما ضمه الإسپان إليهم بالغزو فقط. وبهذه الطريقة فى التفكير أعطى لوك أساسًا

لاهوتيًا للفكرة البيوريتانية التى مؤدّاها أنهم دخلوا فى الميراث الألفى لأبناء النور، ليعيدوا تكوين المملكة «مملكة الرب ـ the kingdom» على أرض أمريكا العذراء.

وقدَّم لوك أيضًا أول أساس لاهوتى لجوهر المعتقدات الأمريكية عن حرية الفرد، والحقوق القائمة على أساس الملكية، والحد الأدنى من التدخل الحكومى. فالحكم والقانون والسياسات قد جعلها الله لا لشىء إلا للدفاع عن الفرد ليستمتع ـ وهو حر ـ بممتلكاته والتوظيف الحر لتطوير عمله: «لنفهم حق السلطة السياسية ونستخلصها من أصولها، لا بد أن نضع فى اعتبارنا أن حرية الناس المطلقة ـ بحكم طبيعة الأشياء ـ هى فى تنظيم شئونهم والتصرف فى ممتلكاتهم وذواتهم على نحو ما هو ملائم لهم فى حدود قانون الطبيعة، دون استئذان أحد أو بناءً على إرادة أحد»[٩].

فجوهر العمل السياسى ليس العمل لصالح المجموع كما تصوّر فى وقت باكر القس الإيڤانجليكى والمنظّر السياسى ريتشارد هوكر، وكما فهم أيضًا الهنود، ومارسوا من خلال عاداتهم فى حيازة الأرض على المُشاع، وإنما جوهر العمل السياسى هو حماية الملكية الفردية وحماية حق استغلالها، ومنع الآخرين من أن يتدخلوا فيها. «للطبيعة قانون طبيعى يحكمها. قانون مُلزم لكل أحد: وعقل ـ منطق ـ يمثل هذا القانون، يعلمنا جميعًا نحن البشر إذا رجعنا إليه أننا ما دمنا جميعًا متساوين ومستقلين، فلا يجب أن يضر أحدنا الآخر فى حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته»[١٠].

ولاحظ لوك أن الهنود هم الذين يهددون الإنجليزى فى صناعته وممتلكاته وليس العكس. وعلى هذا فما كانت تحتاجه أمريكا بصفة رئيسية هو حكومة تدافع عن هذا الإنجليزى وممتلكاته ممن يريدون سلبه إيّاها[١١].

يقف لوك فى تناوله لقضيّتى الملكية والسياسات موقفًا مناقضًا بشكل ملحوظ للتراث المسيحى الأرثوذكسى الذى تبنَّى وجهة النظر الإسرائيلية القديمة التى مؤدّاها أنّ استغلال الأرض أو الممتلكات مشروط باحترام الالتزامات والواجبات المكلف بها من الله، والتى تشتمل على قوانين (شرائع) أخلاقية تقلل من عبودية الدَّين ـ debt slvery وعدم المساواة بين شعب الله.

وبالنسبة لتوما الأكوينى، فإن سرقة الفقير الذى هدّه الجوع من الممتلكات الخاصّة للغنى لا تعد خرقًا لأحد الوصايا العشر (لا تسرق)[١٢] لكن المستوطنين الأمريكيين الذين قاوموا إحكام الكنيسة قبضتها على العبادة والعقيدة رفضوا أيضًا القيود على الممتلكات والثروة. ربما انزعج لوك من النتائج الأخلاقية للجشع والاستحواذ، لكن مقولاته الأساسية الما بعد المسيحية عن سياسة الملكية كانت حاسمة فى ظهور النظام السياسى فى أمريكا[١٣].

كانت حجة لوك القائلة بأن الله لا يعطى ثمار الأرض لكل الناس على سواء، وإنما يميز العاملين الجادين الكادين وأصحاب المشروعات على الكسالى والمتراخين، كانت هذه الحجة إلهامًا لا للحرب ضد الهنود فحسب، وإنما أيضًا إلهامًا للحرب الثورية ضد التاج البريطانى الذى استخدم ما تمتع به من امتيازات أكثر مما استخدم العمل الجاد المجهد والصناعة، ليربح من وراء عمل الآخرين.

وطالما أن المستوطنين الأمريكيين رفضوا وصاية الكنيسة وحكم ملوك أوروبا الذين تطلعوا للكنيسة طلبًا للشرعية، فإنهم لم يكونوا متلهفين بعد الثورة الأمريكية على إعادة تكوين حكومة قويّة، فقد كانت مصلحتهم فى المقام الأوّل هى فى قيام حكومة تحميهم من الهنود، وتمكنهم من استثمار عوائد أعمالهم.

كانت الثورة الأمريكية محاولةً لفك العالم الجديد من العالم القديم، وتأكيد شكل جديد من السلطة السياسية لا تدّعى نوعًا من الحكم المطلق متجاوز الحد وهو ما ميّز ميلاد الدولة الوطنية الأوروبية. لقد كان السبب الأساسى لرحيل البيوريتانز وغيرهم من المنشقين وتوجههم نحو المحيط يعبرونه ليؤسسوا مجتمعًا جديدًا غرب الأطلنطى، هو التخلص من اضطهاد حكام أوروبا الجُدد. وتبعهم ملايين ممن فقدوا مصادر رزقهم فى الأراضى المنهوبة الشاسعة للأرستقراطية القوية الجديدة [فى أوروبا]. لم تكن الثورة الأمريكية تقاتل عن أمور لاهوتية، ولم يكن القصد من الحرب هو جلب الحرية أو الديمقراطية لأهل البلاد أو لما لا يحصى من الخدم، وعبيد نبلاء بوسطن والأرستقراطيين ملاك المزارع فى الجنوب مثل چورچ واشنطن. لا، فالحرب كانت ضد الضرائب، خاصة تلك التى فرضتها بريطانيا على الواردات من المنتجات إلى المستعمرة

مثل الشاى، وقد انتهت فى قاع البحر فى ميناء بوسطن فى بداية الثورة. هذه الضرائب كانت تُدفع للجيوش التى تحتفظ بها بريطانيا فى المستعمرات الأمريكية للدفاع عن المستوطنين ضد الفرنسيين والإسپان. لكن ملاّك المزارع وكذلك الحضريين كانوا ساخطين لإلزامهم بدفع ضرائب على وارداتهم من مواد الترف الأوروبية - الشاى والملابس ذات الرسوم. . . إلخ - بينما الصادرات الأمريكية من الدخان والقطن كانت تباع فى أوروپا كمواد خام بربح لا يزيد إلا قليلاً على تكاليف الإنتاج.

كان ظهور حكومة أمريكية فيدرالية بعد الثورة يمثل المحاولة الأولى التى بذلها الأوروپيون لصياغة نموذج من السلطة السياسية يتجاوز النمط الملكى. هؤلاء الأوروپيون الذين سيرون أنفسهم بعد الحرب مع بريطانيا لأول مرّة «أمريكيين». وبسبب النموذج الذى رسمه لوك بالتأكيد على حقوق الملكية، وجدنا الفلاحين فى الدستور الفيدرالى يتطلعون إلى تأكيد سلطة الدولة وشرعية استخدامها للعنف. لقد كانت الجمهورية الأمريكية - فى الأساس - جمهورية مُلاّك، وأعطى إخضاع الطبيعة وتذليلها للإنسان التبرير الرئيسى لحق المالك فى استثمار ممتلكاته بالطريقة التى يراها باستقلال ذاتى.

وبطبيعة الحال فإن الممتلكات وحدها لا تُقدم الأساس لمجتمع فاضل منظَّم من النوع الذى تخيله الآباء المؤسسون. لقد كان ما تحتاجه أمريكا - وهو على القدر نفسه من الأهمية - هو بعض الخطط لتبيان كيفية ارتباط المستوطنين بمشروع يشتركون فيه لخلق مجتمع فاضل منظم من النوع الذى كان قد تخيَّله جوناثان إدواردز وغيره من القائلين بالفكر الما بعد ألفى - فكما رأينا فإن الفكر الما بعد ألفى يجعل أمريكا مسئولة عن تاريخ قُدسى، نهايته ستكون ألف سنة من حكم يسوده السلام ويعود فيه المسيح. لكن الجمهوريين الرّبوبيين(*) مثل ماديسون وچيفرسون، يرفضون فكرة تخليص المجتمع الإنسانى من الخطيئة الأصلية من خلال مخلّص هو يسوع المسيح.

إنهم يعتقدون فى جمهورية مبنية على سياسات قوامها الحرية والعقل، وسكانها فاضلون عقلاء بفضل التعليم والتنشئة. وما يقف فى سبيل تحقيق هذه الجمهوريات

(*) المقصود بالربى، فى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، من يؤمن بإله للكون، ولكن ليس هو كما جاء فى العهد القديم، ولا العهد الجديد - المترجم.

الحرّ ليس الخطيئة الأصلية، وإنما طغيان سلطان الدولة طغيانًا مفرطًا، سواء اتخذ هذا الطغيان المفرط شكلاً ملكيًا أو بيروقراطيًا، وكذلك الاضطهاد على أيدى قوى أو إمبراطوريات خارجية (١٤). حول مثل هذه الأفكار وجدت أن المسيحية البيوريتانية والجمهورية التنويرية قضية مشتركة فى الثورة الأمريكية، وفى بناء التقاليد الجمهورية الأمريكية.

طور هذان التراثان فكرة استقلالية الفرد الإنسان فى تحقيق أمريكا أفضل، وكلاهما استلهم إيجاد مجتمع يوتوبى فى العالم الجديد، وكلاهما شارك فى الاعتقاد فى ضرورة المعارضة العميقة، ومن ثم الصراع والنضال لتحقيق هذا المشروع اليوتوبى.

* * *

دين أمريكا

أدت المزاوجة بين الأفكار الجمهورية التى تعوّل على الملكية وتراث المسيحية البيوريتانية فى القرن الثامن عشر إلى ما أسماه مارك نول «بالتركيبة الأمريكية» المكونة من الدين البروتستانتى الإيفانجليكى والأيديولوجيا السياسية الجمهورية الفكر الأخلاقى العام (١٥).

لقد راح القسس الإيفانجليكيون بعد الحرب الأهلية يبحثون عن نموذج جديد لمجتمع ليحل محل الفكرة البيوريتانية التقليدية عن الكنيسة، ووجدوا هذا البديل فى المشروع الوطنى العام الممثل فى «الألفية المدنية» أو «الجمهورية المسيحية» (١٦).

لقد كانت الرذيلة والفضيلة محكّات هذه الأفكار الجمهورية الدينية، وأصبحت الإيفانجليكية هى الدين الوطنى السائد للجمهورية الناشئة. تضمنت هذه الشراكة عناقًا دينيًا لعقيدة الحرية، وعقيدة أمريكا بوصفها «أرض الحرية». تجلّى ذلك فى السياسات والاقتصاد والعلم والدين.

تكونت الأفكار الجمهورية الأمريكية من فكرتين: مقاومة إساءة استخدام السلطة السياسية، «واعتقاد يكاد يكون مسيانيًا» (مرتبط بعودة المسيح) فى فوائد الحرية (١٧). وارتبط بهاتين الفكرتين حديث عن الحاكم الفاضل، والمواطن الصالح، وضرورة تقييد سلطان الحكومة عن طريق ضبط الفصل بين السلطات وموازنته فى الدستور

الأمريكى، وعن طريق الفضائل التى يتحلّى بها حكام الولايات، وعلى النحو نفسه فإن الدولة لا يمكنها أن تؤدى إلى ازدهار إنسانى إلاّ عندما تتيح الحرية لمواطنيها ليستثمروا ممتلكاتهم، وليعيشوا حياة فاضلة وسعيدة. هنا يأتى مكان الكنيسة وإمكانية دورها فى المشروع الجمهورى؛ لأن المواطنين سيتعودون الفضيلة ويتدربون على ممارستها فى تجمعاتهم الدينية، أكد الواعظ عزرا ستايلز فى نهاية الثورة الأمريكية على أن «الدين الحقيقى» و«نشر الفضيلة» لازمان لإتمام النظام الحكومى الجديد «ولتحقيق السعادة الدنيوية للناس» (١٨).

وقد لاحظ النقّاد اللاهوتيون للأفكار الجمهورية أنَّ الدِّين المصاحب لهذه الأفكار لم يعد هو الأورثوذكسية المسيحية؛ لأن الأفكار الجمهورية تتطلب خضوع المسيحية لمشروع إنسانى ذى نظام سياسى وحرية شخصية وملكية خاصة واعتقاد فى تقدم اجتماعى وأخلاقى، اعتقاداً يفوق الاعتقاد فى الخَلاَص الإلهى، وكان من نتيجة ذلك ظهور دين مدنى أصبح فيه الله صفراً. لقد أصبح إلها بعيداً تقترب أغراضه من قيم الجمهورية(١٩). ورغم أن الجمهورية كان يمكنها تدبير مساحة للدين، إلاّ أنها فضّلت ديناً لا يتحدى دعائم أساساتها. فكما لاحظ ديترش بونهوفر خلال إقامته فى أمريكا فى ثلاثينيات القرن العشرين، أن الحرية أو الإمكانية التى أعطتها الجمهورية الأمريكية للدين، كانت إعلاناً يمثل النموذج الأمريكى للحرية، وكان هذا شكلاً تقليدياً لما أسماه فى وقت لاحق «النعمة الزهيدة». لكنّ ضرورة أن يعطى العالم الكنيسة حرّيتها، كان يعنى بالنسبة لبونهوفر هرطقة تُناظر الهرطقة النازيَّة التى طلبت من الكنيسة أن تتمسك بالآرية وتعترف بالفوهرر. وبالنسبة لبونهوفر فإن حرية الكنيسة التى تمكنها من مقاومة الطغيان لم تُعطها لها السلطة السياسية أو «العالم» وإنما الأقرب للصحة أنها هبة من الله ونتيجة التبشير بعالم الله (٢٠).

وثمة عنصر آخر محورى فى تحالف البروتستانتية الأمريكية والأفكار الجمهورية كان ممثلاً فى الدعوة إلى العقل والتجربة باعتبارهما محكّاً للفهم العام والحكمة السياسية والعلمية. لقد كان الاعتقاد فى أن العقل والتجربة ـ بوصفهما مناقضين للتراث (التقاليد) والوحى والدين ـ قد يقودان البشرية إلى مستقبل أكثر سلاماً وأكثر عدلاً. لقد كان هذا الفكر محورياً فى التراث الجمهورى (التقاليد الجمهورية) وفلسفة التنوير اللتين انجذب إليهما هذا التحالف الآنف ذكره. لقد زاد تبنّى الأمريكيين فى

القرن الثامن عشر لنظرة بيكون للعقل حيث يقوم الحكم على الحقيقة على ملاحظة نتائج التجارب. لم يعد مستقبل البشرية مقدَّرًا بالتعويل على الكتاب المقدس والتراث - التقاليد المتوارثة - فالدولة القائمة على الأفكار الجمهورية الربوبية ستضع التجربة فى قلب فهمها لتقدّم أمريكا لتصبح أوّل مجتمع ملتزم دستوريًا بسعادة مواطنيه. و على النحو نفسه فإن الأفكار الجمهورية التقدمية بدأت فى تحدى المعتقد القائل بالعصر الألفى بمعناه الحرفى (٢١).

لقد قرأ الفيلسوف الألمانى هيجل هذا التحول الإنسانى فى الإيمان الأمريكى، على أنه أوّل ازدهار كامل لدين التجسُّد Incarnation (تجسد الإله)، فبتجسّد الله فى المسيح أصبح تابعًا للزمان والمكان وعلى هذا أصبح حقيقة قائمة بدلاً من مثالية مجردة. وفق ما ذهب إليه هيجل، عنى التجسّد أنه لا شيء فى الكون أكثر قداسة من البشر، وعلى هذا فأمريكا بوصفها أوّل أمّة تؤكد قُدسية التجربة البشرية، وأول أمة لا ذاكرة لها، أو لا بقية لديها من ماض بشرى بدائى، فهى بهذا حاملة للروح الإنسانية. كانت أمريكا - على هذا - «هى دولة المستقبل»(٢٢).

وكما يحاجج ريتشارد رورتى، فإن هيجل - هنا - يميل إلى تشخيص البراجماتية الأمريكية التقدمية المهتمة فى الأساس بالمستقبل، والاعتقاد بتفوق الإمكانات البشرية على أية فكرة مجرّدة أو نظرية، بما فى ذلك الله ذاته (٢٣). فبالنسبة للبراجماتيين مثل چون ديوى كانت أمريكا عظيمة، لأنها قد تخلَّت عند صياغة مبادئ تأسيسها، وعند ممارسة نظم الحكم فيها عن أية دعاو أو رغبات فى صياغة الحياة على الأرض على وفق حقائق مجردة أو حقائق سماوية. انطلاقًا من هذا التحرر من الحقيقة المفروضة من الخارج، ظهر الإيمان بتفرّد الديمقراطية الأمريكية بوصفها النظام الوحيد الذى لا «يقوم على فكرة أن التجربة لا بد أن تتعرض فى مرحلة أو أخرى لتحكم من الخارج: من مرجعية خارج عملية الممارسة»(٢٤).

حلم أمريكا بهذا المنظور التقدمى البراجماتى هو الحلم بحريتها فى خلق كيانها بنفسها وفى تشكيل قَدَرها بنفسها. هذا القَدَر أخذ شكله فى ظهور الدولة الجمهورية التى وضعت نُصب عينيها فى الأساس أن تسمح للأفراد النشيطين (الفعّالية) أن يهتموا

بحياتهم بأنفسهم وأن يضبطوها بأنفسهم دون عائق من أية مؤسسة أو تراث أو حواجز أو طبقة [٢٥] . هذا ما يزال يعنيه كثيرون من الأمريكيين عندما يتحدثون عن «الحرية» .

***

ثورة السوق
والإحياء الإيڤانجليكى

فى القرن التاسع عشر حدث على الساحل الأمريكى الشرقى ما أسماه شارلز سيلرز بالثورة الثانية ـ «ثورة السّوق» . (رغم أن هذه الثورة كانت تنتشر بالتدريج غربًا خلال الداخل الزراعى) . كوّنت هذه الثورة الاقتصادية أوّل مؤسسة على منطقة شاسعة مكوّنة من كيانات سياسية كثيرة متعدّدة مرتبطة فى فيدرالية ناشئة ، ومن سوق مشتركة بين الولايات يتميز بمؤشرات تقليدية للعلاقات الرأسمالية : تقسيم العمل ، والتجارة من أجل تحقيق مزايا تنافسيّة بين المدن والأقاليم المتباعدة جغرافيًا ، والتى تخصّصت فى منتجات مختلفة ، وظهور اقتصاد المحاصيل النقديّة ـ خاصة ما يتعلق بزراعة القطن وتطوير صناعة المنسوجات ـ هذه السياسة الاقتصادية الجديدة للولايات المتحدة كانت منتجة بشكل هائل . فعلى سبيل المثال ارتفعت قيمة صادرات القطن من ٢٣ مليون دولار إلى ١٢٤ مليون دولار فى خلال عقود قليلة من القرن التاسع عشر[٢٦] . وساعد تطور البنك ا لوطنى والشركات المساهمة ونظام الكمبيالات والحوالات هذا الاعتقاد الناشئ [٢٧] . وقد قدم ذلك نوعًا جديداً من الاقتصاد السياسى فى الداخل ، جعل ـ بشكل متزايد ـ الاهتمام بمصالح الشركات والمؤسسات المالية يفوق الاهتمام باقتصاد الحائزين الصغار القديم ، الذى كان يعتمد عليه غالب المستوطنين .

وقد كانت هناك مقاومة دينية للازدهار السريع للسوق الرأسمالى ـ خاصة من قبل الإيڤانجليكية فى المناطق الريفية ، تلك الإيڤانجليكية التى تعكس قيم الاستقلال واقتصاد المقايضة للفلاح ذى الملكية الصغيرة ، والمكتفى ذاتيا . لكن ، وفى الوقت نفسه ، وكما يقول سيلرز ، ومن قبله ماكس ڤيبر ، فقد قدمت الكالڤينية الأمريكية «الوسيط الروحى» لتحويل أمريكا إلى مجتمع رأسمالى «يقدس العمل الدنيوى بوصفه واجبًا دينيًا ، ويقدس الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة»[٢٩] . وثمة فارق دقيق بين

نول وكل من سيلز وڤيبر، فهو يلاحظ تناقضًا بين الطبقة البروتستانتية العليا والطبقة البروتستانتية الوسطى من ناحية، والطبقة البروتستانتية الدنيا من ناحية أخرى، فيما يتعلق بأمور المال والسوق، فالطبقتين العليا والوسطى تأخذان بعلاقات السوق والنقود الورقية، بينما الطبقة الدنيا لا تثق فى تكريس الثروة والمشروعات الاقتصادية الوطنية(٢٩).

يكمن الصراع الأيديولوچى حول طبيعة مؤسسات الأعمال فى قلب الحرب الأهلية. فقد كان الرّق مؤسّسة محورية لاقتصاد المزارع الواسعة فى الجنوب، أما فى الشمال فقد كانت حرية حركة العامل ضرورية لظهور الرأسمالية الأمريكية النَّشطة القائمة على الصناعة. وهذا الصراع نفسه اتخذ أبعادًا دينية. فبينما رأى المنادون بإلغاء الرّق أن إلغاءه أمر مطلوب من الصّالحين قبل إشراق فجر الألفيّة، رأى المترددون على الكنائس فى الجنوب استمرار الرّق وفرض قيود على سلطة الحكومة باعتبارهما مسألتين ضروريتين لمفهومهم للولاء لمثل الميثاق الأول(٣٠).

وكلما كانت الرأسمالية تنمو بسرعة، وتنمو منها شبكات الخطوط الحديدية التى مكّنت من انتقال التجارة عبر مسافات شاسعة، كلما ازدهرت - أيضًا - المسيحية البروتستانتية بنسب غير مسبوقة بانضمام أعداد كبيرة إلى الكنائس البروتسانتية، بنسب تصل إلى ضعف نسبة الزيادة السكانية(٣١). وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت زيادة أعداد البروتستانت قد ارتبطت غالبًا باقتصاد السوق الجديد بمؤسساته النّشطة بما فيها البنك الوطنى وكثير من البنوك الأصغر، والشركات المساهمة، وأسواق الأسهم، وقطاعات تجارة التجزئة فى المدن الأمريكية، وما يرتبط بكل هذا من تطور شركات البريد. حقيقة إن كثيرًا من ملامح الدين الإيڤانجليكى قد ارتبطت بأنشطة السّوق.

وعلى هذا، مثلت الكتيبات والكتب الإيڤانجليكية أول سوق كبيرة للإعلام المطبوع (الميديا المطبوعة) متوقعة بزوغ ثقافة المستهلك، بينما رأت الإرساليات التبشيرية الإيڤانجليكية والوعاظ الإيڤانجليكيون فى تطوّر الأسواق وازدهارها سواء فى أمريكا أو خارجها أداة ممنوحة من الله لنشر الإنجيل - وبسرعة - فى كل أنحاء أمريكا وفيما وراء حدودها إلى الجنوب وعبر المحيط الهادى(٣٢).

وفى قلب الزواج الناشئ بين البروتستانتية الإيڤانجليكية والرأسمالية الأمريكية، كانت محوريّة الاختيار الفردى هى الهُويّة الإيڤانجليكية(٣٣).

نمت الإيڤانجليكية بسرعة ـ بوصفها دين الاختيار ـ إثر الثورة الأمريكية؛ لأنها كانت «أكثر قدرة على مواجهة احتياجات بشر من رجال ونساء ذوى عقول لا جذور فيها للمساواتية، من المؤسسات الكنسية الجامدة القائمة على معايير القرن الثامن عشر والقائمة على الإذعان، واحتكارات النخبة للأورثوذكسية» (٣٤).

لقد قدمت التجربة الدينية الإيڤانجليكية للفرد الإحساس «بالقوة والاستقرار الشخصى» و«احترام الذات» فى دوّامة التغيّر السريع الذى أحدثته الثورات السياسية والصناعية والاقتصادية فى القرنين الثامن والتاسع عشر: أفراد مفوَّضون بالسلطة على هذا النّحو كانوا أيضًا مفوّضين اجتماعيًا وسياسيًا ليؤكدوا سيادة جماهير العامة، وليشكلوا الثقافة فى نطاق مصالحهم.

وعلى هذا فقد أراد الإيڤانجليكيون فى القرن التاسع عشر كلا من الجمهورية والسوق محرَّرتين من الهيراركية التقليدية للكنيسة والدولة. بكلمات أخرى، كان لفك المؤسسة الدينية «religions disestablishment» نتائج سياسية واقتصادية، فقد كانت هناك رابطة ضمنية بين التحرر السياسى وحرية الدين، واعتناق اقتصاد السوق لدى الأمة الجديدة. أمَا وقد تمّ رفض التنظيمات الهيراركية الإكليركية الكنسيّة فى عباداتهم وعقائدهم وقراءاتهم للكتاب المقدس، فقد كان الإيڤانجليكيون ـ على النحو نفسه ـ معارضين للترتيبات الحكوميّة «للمجالات العامة التى عقدوا الآمال على تطوير دينهم فيها، كما كانوا مُهيَّئين لتفضيل أوضاع يكون فيها الأفراد قادرين على اختيار طريق الله بحرية»(٣٥). وعلى نحو مناظر، فإنه إذا استطاعت الروح القُدُس أن تُرشد الفرد للاختيار الصحيح لطريق الله، عندئذ ـ وبالتأكيد ـ تكون هناك عمليات مماثلة فى الكيمياء الجديدة لاقتصاد السّوق. وعلى هذا أصبح اختيار العميل جزءًا من الإيمان الإيڤانجليكى.

ولقد استجاب الإيڤانجليكيون فى آخر القرن التاسع عشر فى أمريكا لظهور العالم الحديث ـ الدولة الأمة ذات السيادة، والسوق الاقتصادى الذى يوجهه العلم وتقوده الصناعة ـ بتخلّيهم عن كل أخلاقيات المسيحية التاريخية ليحلّوا محلها شكلاً من

أشكال الدين قلّت فيه الدعاوى الاجتماعية، مركزين على الحياة الداخلية «الباطنية ـ inner» للفرد المتديّن. لقد صنعوا فضيلة الضرورة necessity ، واقترحوا ـ وفق كلمات الواعظ الأمريكي ذى الجماهير العريضة هنرى وارد بيشر ـ أنه «بينما تلقينا العلم على أيدى العلماء فى الحقيقة المتصلة بالطبيعة المحسوسة، وبينما نتلقى العلم على يد الاقتصاديين، ذلك العلم المرتبط بالطبيعة الاجتماعية ، فإننا نحتاج أيضًا إلى رجل الدين المسيحى ليعلمنا ما لا يُرى» (٣٦). فأمريكا المسيحية فى الرؤية الإيفانجليكية كانت قد صنفت نوعًا من السلام بين الدين والحداثة. فقد كانت التقوى هى مفتاح الضمير الاجتماعى الإيفانجليكى والتعاليم الاقتصادية، وكان النجاح فى الأعمال لا يشكل عائقًا أمام التقوى الإيفانجليكية مادام حافظ رجل الأعمال على الأمانة والاستقامة، وعلى استخدام ثروته الكبيرة فى أعمال الخير (٣٧).

وعلى أية حال فبحلول أواخر القرن التاسع عشر، وُجدت توترات شديدة داخل هذا التحالف الجديد بين الإيفانجليكية والحداثة. لقد ظهرت الحداثة فى الدين مع ميلاد الليبرالية اللاّهوتية الأمريكية التى سعى معتنقوها إلى إحداث توافق بين تعاليم الكتاب المقدس والعقائد المسيحية من ناحية والاكتشافات العلمية من ناحية أخرى. وقد أثار هذا هجومًا مضادًا من الإيفانجليكيين الذين نشروا كتيباتهم المشهورة باسم «الأصول ـ Fundamentals» التى يؤكدون فيها **عصمة** الكتاب المقدس، وبالتالى صحة رواية الكتاب المقدس عن الخلْق (*) وعن العقائد المسيحية التقليدية الأخرى، كان ناشرو هذه الكتيبات بأن عالم أمريكا القرن التاسع عشر ينزلق بعيدًا عن نفوذ المسيحية الإصلاحية التى كانت قد أنجبت أمة جديدة من خلال الآباء الحُجَّاج ـ Pilgrim Fathers» وأسستها «كمدينة فوق التل».

هذا الإحساس بعدم الارتياح مع أمريكا الحديثة الجديدة نما بسرعة فى الأعوام التى سبقت الحرب العظمى والأعوام التى أعقبتها، وشكل عودةً ـ على نطاق واسع ـ إلى حماسة الألفيَّة خلال الانهيار الاقتصادى الكبير فى عشرينيات القرن العشرين. لكن بدلا من أفكار ما بعد الألفية التى أكّدت على تقدم أمريكا المسيحية نحو الحكم الأرضى

(*) فى مقابل نظرية داروين ـ المترجم.

وصاحب ذلك المبيعات الهائلة لنسخة شارلز سكوفيلد لشرح الكتاب المقدس، وتعاليم القس الخمسينى إدوارد إيرفنج، وتعاليم قائد الإخوان (Brethern leader) چون نيلسون داربى ـ المترجم.

للمسيح، فإن الإيڤانجليكيين الأمريكيين الآن تحوّلوا إلى الما قبل ألفية ذات الأفكار الأكثر انتحاءً نحو التشاؤم، وإلى العقائد القائلة بالتدبير الإلهى لشئون العالم مرتبطة بالكتاب المقدس بطبيعته واسعة الانتشار ونعنى بها طبعة شارلز شوفيلد Schofield وتعاليم القائل بالأفكار «الخمسينية ـ Pentecostal» إدوارد إرڤنج والإخوة چون نيلسون داربى John Nelson Darby.

***

صعود ما قبل الألفية

The Rise of Premillennalism

أسّس الواعظ الإنجليزى چون داربى «إخوان پلايموث» لأنه كان منتقداً لفساد الدين «المؤسسى» فى كنيسة انجلترا. وكان قصده هو تأسيس كنيسة جديدة على نسق مبادئ مسيحية العهد الجديد كما فهمها هو. وهاجر كثيرون من جماعة أخوة پلايموث إلى الولايات المتحدة هجرة نهائية، وأخيراً هاجر داربى نفسه [٣٨]. وفق ما ذكره داربى، هناك سبعة تدبيرات إلهية فى التاريخ البشرى؛ التدبير الأوّل هو جنّة عَدْن، والتدبير الأخير هو حُكم القدّيسين الألفى، مشيراً بذلك إلى سفر الرؤيا ٢٠ : ١-٧[*] والذى يقع بالنسبة لداربى وأتباعه فى المستقبل بعد المجىء الثانى للمسيح. ويعتقد المؤمنون بالفكر الما قبل ألفى أنهم يعيشون فى قرب نهاية التدبير الإلهى السّادس، والذى يسبق مباشرة هذه الألفية (التى يحكم فيها المسيح) وعلى وفق قراءتهم لسفر الرؤيا، فإن الفترة السابقة مباشرة لألفية السّلام هى وقت «المحنة أو الضيقة الكبرى ـ Great

(*) ثم رأيت ملاكًا نازلاً من السماء، وبيده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة قيد بها التنين، أى الحية القديمة، وهو إبليس أو الشيطان، وسجنه مدة ألف سنة، وطرحه فى الهاوية وأغلقها عليه، وختمها، حتى يكف عن تضليل الأمم، إلى أن تنقضى الألف سنة. ولكن لابد من إطلاقه بعد ذلك لمدة قصيرة.
ثم رأيت عروشا منح الجالسون عليها حق القضاء. ورأيت نفوس الذين قتلوا فى سبيل الشهادة ليسوع وفى سبيل كلمة الله، والذين رفضوا أن يسجدوا للوحش ولتمثاله، والذين رفضوا علامته على أيديهم وجباههم، وقد عادوا إلى الحياة، وملكوا مع المسيح ألف سنة. هذه هى القيامة الأولى. أما بقية الأموات فلا يعودون إلى الحياة حتى تنقضى الألف سنة. ما أسعد وأقدس من كان لهم نصيب فى القيامة الأولى! لن يكون للموت الثانى سلطة عليهم، بل يكونون كهنة لله والمسيح، ويملكون معه ألف سنة. فحين تنقضى الألف سنة، يطلق الشيطان من سجنه. رؤيا يوحنا ـ ٢٠ : ١ ـ ٧.

Tribulation» حيث تزيد الخطايا والشرور، وتزيد الحروب وأعمال العنف، وتزيد الكوارث الطبيعية، وينحرف الناس عن الإيمان الحقيقى، وتنشب معركة بين بقايا المسيحيين المؤمنين والغالبية المطيعة لأمير الدنيا والمعادى للمسيح «عدو المسيح - Antichrist».

وعلى وفق ما ذكره داربى، فإن ممالك الدنيا لا يمكنها أن تتحد مع «مملكة الرب - Kingdom of Christ» إنها - أى هذه الممالك - بعيدة منعزلة عن خطّة الرب، بُعد إسرائيل عن الكنيسة المسيحية. فإسرائيل فى التدبيرات االإلهية الخمسة الأولى كانت - مثلها فى ذلك مثل ممالك الدنيا - قد رفضت ربوبيّة المسيح. أما فى التدبير الإلهى السادس - الذى يمتد من صعود المسيح إلى مجيئه الثانى - فيخص أولئك الذين يعترفون بعيسى كمسيح وملك سماوى (مقدّس)، أولئك هم الذين يعيشون فى ظل هذا التدبير الإلهى الجديد لم يعودوا مواطنين أرضيين (دنيويين) وإنما هم مواطنو السماء؛ لأن «الكنيسة كيان سماوى خالص فى دعوتها وفى علاقتها بالمسيح، فهى - أى الكنيسة - لا تشكل جزءًا فى مسيرة الأحداث على هذه الأرض فى هذه المرحلة»(٣٩).

وعلى كل حال يبقى العالم تحت حكم «أمير هذا العالم» الشيطان، لكن المستقبل يكون لأبناء مملكة الرّب. أما الآن فالعالمان فى المعركة الأخيرة لخلاص الأرواح، ومهمة الكنيسة المقدسة هى إنقاذ الأرواح، ودعوة الرجال والنساء لفصل أنفسهم عن مجتمع الخطيئة؛ ليكونوا مواطنين سماويين استعدادا لعودة المسيح، وحلول فجر التدبير الإلهى السابع.

النظرية التدبيرية الإلهية الآنف ذكرها والتى روّج لها داربى، دعا إليها المبشرون الإيڤانجليكيون الأمريكيون بحماس، فهؤلاء المبشرون - منذ الحرب الأهلية حتى الكساد العظيم - رأوا المزيد من البراهين الدالة على أنّ ألفية السّلام أبعد - مما كانوا يتصورون - عن التحقيق، فبدلا من أن مسيرة البشرية متقدمة صوب المملكة التى تنبأ بها جوناثان إدواردز، فإن القائلين بالتدبيرية الإلهية رأوا طوفانًا متفاقمًا من المصائب والجوائح والمآسى بما فى ذلك النكبات الزراعية، والفساد السياسى، والرأسمالية الاحتكارية، ورجال الصناعة الجشعين، واللاهوت الليبرالى، والصور الداعرة والفنون الإباحية، وازدياد الفساد فى المدن، وزيادة الهجرة والاضطرابات التى تسببها

اتحادات العمال، وظهور الشيوعية، والحرب العالمية، بل وحتى غرق السفينة العملاقة تيتانك[٤٠]. وقد أوجز الواعظ الإيڤانجليكى دويت إل. مودى ذو التأثير حالة المصائب قائلاً: «أرى العالم بوصفه سفينة محطّمة تغرق، وأعطانى الله قارب نجاة وقال لى: يا مودى أنقذ كلّ من تستطيع إنقاذه فالله سيأتى ليُدين هذا العالم ويحرقه، لكن أبناء الله ليسوا تابعين لهذا العالم، فهم ليسوا من أهله رغم وجودهم فيه. إنهم كسفينة فى الماء. هذا العالم يسير حثيثًا نحو الظُّلمة، لذا فخرابه بات وشيكا، إن كان لك أى أصدقاء فى هذه السفينة المحطّمة الغارقة، فمن الأفضل ألا تُضيع وقتا، هيًّا أنقذهم»[٤١].

مودى يشير هنا إلى رؤيته الخاصة للتدبيرية. إنه يأخذ بفكرة «الاختطاف ـ rapture» حيث يعتقد القائلون بالما قبل ألفية أنّ المؤمنين سيخطفون من الأرض، بينما يظل فيها الخطاة ليواجهوا محنة نهاية الزمان، ومعركة هرماجدون، وهى آخر المعارك. وفكرة «الاختطاف ـ rapture» مستقاة من سياق ما ورد فى رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكى (٤ : ١٦-١٧) التى يقول فيها بولس «لأن الرب نفسه سينزل من السماء حالما يدوى أمر بالتجمع وينادى رئيس ملائكة ويبوق فى بوق إلهى، عندئذ يقوم الأموات فى المسيح أولاً. ثم إننا نحن الباقين أحياء نختطف جميعا فى السُّحب لملاقاة الرّب فى الهواء، وهكذا نكون كلّ حين مع الرّب، لهذا عزّوا بعضكم بعضا بهذا الكلام».

تعاليم ما قبل الألفية لها مضامين واضحة للدور المسيحى فى العالم. فالما قبل ألفى «يحتقر كل الجهود المبذولة باسم الدين لتصحيح أمراض المجتمع»؛ لأنه «حين نبدأ أى برنامج إصلاحى، أو لوضع الكنيسة على القمة، سيعوق الهدف الإلهى وسيؤخّر قدوم المسيح الثانى»[٤٢] وعلى وفق ما ذكره الواعظ التدبيرى لويس شيفر فإن الإصلاح الاجتماعى كان نتيجة المسيحية الليبرالية، وهى تضلّل حقيقة إنجيل يسوع المسيح: «الشيطان ـ كالأم المحبّة ـ إنه ينحنى نحو من يحمله بين ذراعيه، يَنْفُس فى أفواههم البلسم المهدّئ ـ بلسم أبوة الله ـ لكل البشر، وأخوّة البشر، مقنعًا إياهم أنهم جديرون أمام الله على أساس طبيعتهم الأخلاقية وتكوينهم الفيزيقى، مغذّيا ميلهم لمحاكاة الإيمان الحقيقى بالأعمال الإنسانية الجليلة، وبمشاريع إصلاح الأفراد وتحسين النظام الاجتماعى»[٤٣].

المتبنون ما قبل الألفية، بدلا من أن يحاولوا تحسين أحوال العالم الكئيبة نجدهم قد تبنوا مشروع تنصير العالم استجابة لتعليمات المسيح الأخيرة لحوارييه، والقاضية بضرورة التبشير بالإنجيل «فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى» (إنجيل متى ٢٤/ ١٤).

انخرط ـ بعمق ـ القائلون بالتدبيرية الإلهية فى ثقافة يائسة، تلك الثقافة التى ظهرت بين الملايين الذين عاشوا بعد الشرور المرعبة للحرب الأهلية ومن ثم عانوا ـ غالبًا ـ من الظروف المعيشية القاسية فى أحياء الفقراء ومن معاملتهم كرقيق يتلقى أجرًا أثناء الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشرو الحرب العالمية والكساد الاقتصادى الكبير فى بواكير القرن العشرين، فكما قال سكوفيلد فى سنة ١٩١٨:

«ثمة شيء غير قابل للموت فى قلب الإنسانية... إنه الاعتقاد بأنه لا بد أن يتوقع البشر على هذه الأرض حياة مشتركة منضبطة، ليست قصرًا على المحظوظين والأقوياء، وإنما للجميع.. الجميع الذين سيكونون أثرياء فى الحقيقة والعدالة والقوة والحب... فالجنس البشرى هو جنس واحد قبل كل شيء، وإنه لمن المنطق أن يظل الأمل فى العصر الذهبى حيا فى العقل الإنسانى العام»(٤٤).

وعودة المسيح والحكم الذى يسوده السلام لمدة ألف عام، هو المناسبة الوحيدة للأمل المسيحى، لكن كلما اقتربت هذه الأحداث (عودة المسيح والعصر الألفى) ستصبح الكنيسة مرتدَّة (عن الإيمان الصحيح) وسينغمس العالم فى الفساد الأخلاقى والفوضى. بل إنَّ بعض المعتقدين فى التدبيرية الإلهية dispensionalists أبدوا فرحا وسرورًا للأحداث المرعبة التى جرت فى بواكير القرن العشرين، فقد ترنَّم روبن تورى ـ فى معهد الكتاب المقدس فى لوس أنجيلوس فى سنة ١٩١٤م «كلما زاد الليلُ ظلمة، كلما تألق قلبى بالنور»(٤٥).

* * *

التدبيرية الإلهية الصهيونية

وبينما نرى القائلين بالتدبيرية الإلهية لا يجدون أى دور لبريطانيا أو أمريكا لتحسين ظروف نهاية الزمان، المتفاقمة فى السوء بالنسبة للمواطنين فى كليهما، فإن لهما دورًا مهمًا فى تقريب نهاية الزمان بأعمالهما المتعلقة بفلسطين واليهود. فقد كان الملمح الرئيسى فى التدبيرية الإلهية فى فكر داربى هو مكان اليهود فى خطة الله

لنهاية التاريخ: فاليهود رفضوا المسيح، وعلى هذا فقد نحّاهم الله عن وصفهم كشعب مختار، وأحل الكنيسة محل إسرائيل. لكن قبل الاختطاف يلعب اليهود دورًا حاسما فى تحقيق نبوءة نهاية الزمان التى أشار إليها الكتاب المقدّس بعودتهم إلى فلسطين واستقرارهم مرّة أخرى فى الأرض التوراتية، وإعادتهم بناء القدس ـ خاصة الهيكل الثالث فى الموضع الذى يشغله المسجد الأقصى وقبّة الصخرة. ومن المفترض أنّ إسرائيل الجديدة تواجه مقاومة عنيفة وتخوض حروبًا قاسية، لكن من يتبقى من اليهود سيعترف ـ أخيرًا ـ بعيسى باعتباره المسيح الحقيقى، ومن ثم يرحبون به فى مجيئه الثانى.

فى نطاق هذا الاعتقاد بخطّة إلهية بإعادة إنشاء إسرائيل قبل نهاية المرحلة التاريخية الحالية، راح القائلون بالتدبيرية الإلهية يمارسون ضغطا على السياسة الخارجية لكل من بريطانيا وأمريكا، وعلى الأحداث فى الشرق الأوسط بدءا من سنة ١٩١٧م حتى يومنا هذا. فقد حاجج البريطانى الإيفانجليكى ـ إيرل شافتسبرى Earl of Shaftsebury ـ فى سنة ١٨٣٩م على أنّ اليهود لا بد أن يعودوا إلى فلسطين قبل المجىء الثانى للمسيح، وفى ظل تأثيره أقامت الحكومة البريطانية قنصلية فى القدس، وكان القُنصل المعيَّن إيفانجيليكيا، كان هو أوّل من عزّز فكرة فرض الحماية البريطانية على فلسطين للدفاع عن ١٠,٠٠٠ ـ عشرة آلاف ـ يهودى كانوا يعيشون فيها بالفعل، وليكون لبريطانيا قاعدة استراتيجية فى قلب الإمبراطورية العثمانية[٤٦].

وقد رأى القائلون بالتدبيرية الإلهية فى سقوط القدس فى سنة ١٩١٧[*]، وفى انهيار الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى فرصةً ذهبيةً لتأسيس محمية بريطانية فى فلسطين، والتى كانت قد دُشِّنت بوعد بلفور فى سنة ١٩١٧م[٤٧]. وفى الوقت نفسه راح المسيحيون القائلون بالتدبيرية الإلهية يبذلون جهودًا تبشيرية بين اليهود فى بريطانيا وأمريكا.

فالمسيحيون القائلون بالتدبيرية الإلهية هم الأسلاف الأساسيون للصهيونية. فقد بدأت حركة « محبة صهيون ـ Love of zion » ردًا على تنامى موجة معاداة السَّامية فى روسيا وألمانيا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر (١٨٨٠-١٨٩٠) وبتأثير هذه الحركة

(*) المقصود سقوطها فى أيدى القوات الإنجليزية المسيحية، بعد أن كانت تحت أيدى المسلمين، سواء كانوا أتراكًا أم عربًا ـ المترجم.

انتقل ٢٥,٠٠٠ يهودى إلى فلسطين ليعملوا فى مجال الزراعة فى الفترة من ١٨٨٢م إلى ١٩٠٣م. وفى سنة ١٨٩٥م نشر تيودور هرتزل كتابه الشهير «الدولة اليهودية - Der Judenstaat» الذى فصّل فيه لأوّل مرّة القضية الصهيونية بإنشاء وطن يهودى جديد. وفى بداية الأمر لم يحدّد هرتزل مكان هذا الوطن اليهودى، وإنما عزف على نغمة إيجاد دولة لليهود الذين لا دولة لهم، لكن فى المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧م أكدّ على أنّ فلسطين هى المكان المناسب ليكون وطنًا لليهود(٤٨). وكان اليهود الأمريكيون أقل اقتناعًا من نظرائهم الأوروبيين بأن فلسطين يجب أن تكون هى وطن اليهود، فقد كانوا معتقدين بشدّة بفكرة أن أمريكا - العالم الجديد - هى نفسها صهيون الجديد. وعلى أية حال، فبتأثير المسيحيين القائلين بالما قبل ألفية، انجذبوا بالتدريج للقضية الصهيونية. فكما حاجج وليم إى. بلاكستون الأمريكى البارز فى التدبيرية الإلهية:

«لماذا لا نعيد فلسطين مرة أخرى لليهود؟ فوفق توزيع الله للأمم، فإن فلسطين هى وطنهم الذى طردوا منه بالقوة. . . دعونا الآن نعيدهم إلى الأرض التى سلبهم إياها بقسوة أجدادنا الرومان»(٤٩).

وقد مجّد الأمريكيون الصهيونيون - فى وقت لاحق - بلاكستون باعتباره «أبو الصهيونية» واعترف الإسرائيليون أنفسهم بدوره فى تهيئة المناخ السياسى فى أمريكا للتعاطف مع قضية الدولة الإسرائيلية، فأطلقوا اسمه على حديقة الغابة الوطنية(٥٠).

لقد كان إنشاء الدولة اليهودية فى سنة ١٩٤٨م حدثا بارزا بالنسبة للمسيحيين القائلين بالتدبيرية الإلهية؛ لأنه بشر بالعودة القريبة للمسيح. وكانت حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م حدثا يساوى فى أهميته إنشاء دولة إسرائيل؛ لأن إسرائيل - بسبب هذه الحرب - احتلت القدس مرة أخرى خاصة جبل الهيكل الذى سيبنى فوقه الهيكل الثالث قبل نهاية الزمان. هذا الحدث تضمنه كتاب هال لندساى الذى يحمل عنوان The Late Great Planet(*) **والذى أدى عرضه المبسط لأفكار التدبيرية الإلهية حول الأحداث الجارية فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى ازدياد عدد القائلين بالتدبيرية الإلهية زيادة كبيرة جدًا، فتحولت من عقيدة للأقلية فى الكنائس الإيفانجليكية الأكثر محافظة وفى كليات دراسة الكتاب المقدس إلى عقيدة الأغلبية من**

(*) كان من أكثر الكتب مبيعًا، وتجاوزت مبيعاته ٤٠ مليون نسخة - المترجم.

المسيحيين الأمريكيين الإيڤانجليكيين إذ آمن بها الملايين، ذلك أن كتا ب لندساى تناول ميلاد دولة إسرائيل وميلاد التجمع الاقتصادى الأوروبى والحرب الباردة مع روسيا، وإنشاء العراق العلمانى المستقل على أرض بابل التوراتية (كما حدّدتها التوراة).

لم يضف لندساى سوى القليل إلى نبوءات القائلين بالتدبيرية الإلهية ممن سبقوه، لكنه قدَّم نبوءاتهم فى شكل يفهمه الجمهور، مقدما نفسه بوصفه نبى الناس الذى يقدم «أملاً من أجل المستقبل» فى أزمنة تعُجُّ بالاضطراب يبدو فيها المستقبل نفسه ومصير الكوكب وما عليه من بشر مهددا. والكتاب المقدس فيما يرى لندساى هو المخزن الأساسى للحكمة النبوئية التى بها يمكن تأويل الأيام الأخيرة لكوكب الأرض، والتى يعتقد أنها قد بدأت بالفعل، لأن الكتاب المقدس يتنبأ بأن نهاية الزمان يمكن أن يُقال بأنها تحديدا قد بدأت بعودة اليهود إلى أرض إسرائيل بعد آلاف السنين من الشّتات. فاليهود هُم أكثر العلامات أهمية لهذا الجيل [٥١]. ويربط لندساى تفسيره هذا بالمبشرين البيوريتانز الأمريكيين من أمثال إنكريز ماثر والد كوتون ماثر الذى تنبأ فى كتابه سر خلاص إسرائيل The Mystery of Israel's Salvation بعودة اليهود إلى فلسطين، قبل عودتهم فعلا بمئات السنين[٥٢]. لقد كتب لندساى عقب الاحتلال الإسرائيلى للقدس الشرقية فى سنة ١٩٦٧م مباشرة، ذاكرًا أنّه لم يبق أمام إسرائيل الآن (١٩٦٧م) سوى أن تُعيد بناء الهيكل القديم فى موقعه التاريخى لإعادة إسرائيل كما وردت فى التوراة. واقتبس لندساى من كتا ب المؤرخ الإسرائيلى إسرائيل إلداد الذى أجاب عندما سئل عن المدة التى سيستغرقها اليهود لإعادة بناء الهيكل بعد استعادتهم للقدس القديمة قائلاً: « من الوقت الذى استولى فيه الملك داود على القدس إلى وقت بناء الملك سليمان للهيكل، أى مدّة جيل واحد. وعلى هذا سيكون هذا ونحن على قيد الحياة[٥٣]. وكانت زيارة أريل شارون المثيرة للجدل للمسجد الأقصى على جبل الهيكل فى سنة ٢٠٠١م، حيث بدا يُعاين الموقع الذى كان فيه الهيكل فيما مضى، والذى سيعاد بناؤه من جديد، وقد فجّر هذا العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، فأصبحت أكثر عنفًا بشكل لم يسبق له مثيل طوال الخمسين سنة الماضية.

لقد وُضع الفلسطينيون موضع الحسبان فى خطط الصهيونية التى أعلن عنها منذ زمن طويل، وكما رسمها لندساى وآخرون.

وفق ما ذكره ليندساى، حيث نجده هنا يتبع مرة أخرى التأويلات التى يأخذ بها القائلون بالتدبير الإلهى - الذى أصبح فكرا دينيا راسخا - إنها رؤيا النبى حزقيال الذى تنبأ بوضوح بأحداث نهاية الزمان. «فالأعوام الأخيرة» هى الزمن الذى ستعود فيه إسرائيل إلى الأرض: يحدث هذا بعد فترة طويلة جدا تصبح فيه أرض إسرائيل مهجورة بائسة بسبب الحرب والكوارث البيئية، سيعود اليهود قادمين من أمم كثيرة قاطعين الأرض، وراحوا يخوضون تجربة الإحياء الروحى (الانبعاث الروحى) وأخيرا ستثير عودتهم واستقرارهم من جديد وانبعاثهم الروحى عداوة شديدة من أمم أخرى، وتصل هذه العداوة ذروتها فى معركة هرماجدون. ويحاول لندساى أيضًا أن يُدلل على قراءته النبوئية للتاريخ الجارى بإشارات إلى أقوال يسوع وبولس وسفر الرؤيا.

ويفهم كثيرون من الباحثين المعاصرين أقوال يسوع النبوئية المتناظرة فى أناجيل: متى ومرقس ولوقا، باعتبارها تشير إلى حروب اليهود مع روما سنة ٧٠م، تلك الحروب التى جرى فيها سلب القدس وهدم الهيكل. ويبدو الأمر هنا حقيقة لا يتطرق إليها إلا القليل من الشك، طالما أنّ الأناجيل كُتبت بعد هذه الأحداث، فهذه الأحداث هى حقيقة ما كان كتَّاب الأناجيل يشيرون إليها. فالمسيح نفسه لم يتنبأ فقط بأن الهيكل سيتحطم بحيث لا يبقى فيه حجر فوق حجر مما يُسبب إزعاجًا بالغًا لرجال الدين واليهود، وللسلطات السياسية التى تحكم من الهيكل فى ظل سيادة روما، وإنما تنبأ أيضًا بأن هذه الأحداث - سلب القدس وتدمير الهيكل - ستتم فى حياة أتباعه «الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله» [مرقس ١٣/ ٣٠]. وعلى أية حال فإن لندساى - مثله فى ذلك مثل داربى وسكوفيلد - قد فهم هذه الأقوال النبوئية الواردة فى الأناجيل السالف ذكرها باعتبارها تشير إلى أحداث ستتحقق بعد فترة طويلة من زمن المسيح وحوارييه، إنهم يرون أحداث زمننا هذا هى المقصودة بالنبوءة، عندما سيُجبَر يهود يهودا Judea - بسبب الصراع - إلى اللجوء للجبال، التى هى الموضع المحدد لكثير من المستوطنين الصهيونيين غير الشرعيين، وعندما سيعود حفظ السبت التقليدى إلى إسرائيل بعودة اليهود. فالصراع فى فلسطين - الذى تنبأ به يسوع - يقول عنه الآخذون بالتدبيرية الإلهية إنه سيحدث فى «المملكة الشمالية» التى حددها حزقيال ويوئيل ودانيال، وسيكون مع روسيا، باعتبار أن روسيا - وفق هذا التفسير ستكون

على رأس تحالف يضم معظم الدول العربية سيشن حربًا ضد إسرائيل، وقد شنوا بالفعل هذه الحرب ضد إسرائيل فى سنة ١٩٦٧م. وينظر لندساى إلى مصر وروسيا فى قراءاته للنبوءات الواردة فى الكتاب المقدس بوصفهما حجر الزاوية فى الحرب ضد إسرائيل. ومن هنا فلا بد من أن تُساق روسيا للدمار والخراب قبل أن تحين النهاية، ومن ثم يأتى الدور على مصر التى ستقود المواجهة ضد إسرائيل وستُهزم، إذ سيقهرها ملك أجنبى شرس يحكمها، وهو على وفق ما يقول لندساى «عدو المسيح ـ Antichrist»(٥٥).

ولأن لندساى لم يكن قانعًا بتخطيط بنية الأحداث فى الشرق الأوسط فقط، إذ وجدناه يرغب فى إدراج أمم أخرى كثيرة وأحداث عالمية سياسيّة فى قصته النبوئية. فجعل الصين هى «الخطر الأصفر» بوصفها الجيش العظيم الذى سيظهر فيما وراء الفرات [سفر الرؤيا ٩/ ٦](*) ليبيد ثلث سكان العالم. وضمَّن لندساى أيضًا تأسيس السوق الأوروبية المشتركة التى أصبحت الآن الاتحاد الأوروبى: «نحن نعتقد أن السوق الأوروبية المشتركة والاتجاه إلى توحيد أوروبا، ربما يكون أيضًا بداية للكونفدرالية الأممية المكوّنة من عشر أمم، والتى تنبأ بها دانيال كما تنبأ بها يوحنا فى سفر الرؤيا.»(٥٦). فالمرحلة الأخيرة من توحد أوروبا اقتصاديا وتوحيد عملتها سوف ينتج عنها إنشاء «إمبراطورية رومانية» تحيا من جديد، وسيكون زعيم هذه الإمبراطورية هو «ديكتاتور المستقبل وسيكون هذا الزعيم هو«عدو المسيح ـ Antichrist» نفسه ولا بد أن يسود حكمه المُظْلم الأرض قبل المعركة الأخيرة هرماجدون). وسيُعطى هذا الزعيم سلطان السيطرة على اقتصاديات العالم وعلى كل من يضع «علامة الوحش» وشما مميزا له. وكما يرى لندساى «ففى مجتمعنا الذى يحكمه الكمبيوتر، حيث كل واحد منا مرقَّم (له رقم) من ميلاده حتى وفاته، يبدو معقولا أنّ يومًا سيأتى فى المستقبل القريب ستتوحد فيه الأرقام ليكون لكل منا رقم واحد فقط ينضوى تحته كل نشاطه وأمواله وديونه ومعاملاته»(٥٧). وسيصحب الاقتصاد العالمى الجديد والحكومة العالمية عبادة

(*) «وعندما نفخ الملاك السادس فى بوقه، سمعت صوتًا آتيًا من القرون الأربعة لمذبح الذهب الموجود أمام الله، يقول للملاك السادس الذى يحمل البوق: أطلق الملائكة الأربعة المقيدين عند نهر الفرات الكبير. وكان هؤلاء الملائكة الأربعة مجهزين استعدادًا لهذه الساعة واليوم والشهر والسنة، فأطلقوا ليقتلوا ثلث البشر وسمعت أن جيشهم يبلغ مائتى مليون محارب». الرؤيا ٩: ١٣ـ١٦.

عَوْلمية جديدة، فيتحول الناس فى العالم كله إلى عبادة الأوثان أو الآلهة الزائفة ويجد لندساى - مرَّة أخرى - دليلاً على أن هذا يحدث بالفعل فى أن كثيرين من أتباعه الأمريكيين قد تحوّلوا نحو علم التنجيم - الأسترولوچيا - والعبادات المختلفة المتأثرة بالعبادات الشرقية. لقد فسد الحلم الأمريكى منذ زمن - فيما يرى لندساى - فأمريكا التى تخيّلها القائلون بالفكر الما بعد ألفى «مدينة فوق تل» قد حلت محلَّها أمريكا الآثمة الوثنية التى يبتعد أهلها أكثر فأكثر عن العقيدة المسيحية، ويتجهون أكثر فأكثر نحو الظُّلمة.

وستحدث نهاية كل هذه الأحداث المظلمة فى عملية ذات مرحلتين:

أولا: أولئك الذين يبقون مخلصين ليسوع المسيح كرب حقيقى للتاريخ البشرى سيُخطفون إلى السماء قبل سبع سنوات من العد التنازلى لمعركة هرماجدون. وفى تقاليد الاختطاف الذى يسرده لندساى، سيختفى الأفراد من أماكن عملهم أو أسرّتهم أو سياراتهم فى اللحظة المحدّدة، عندما يدعو الرّب كل المختارين ليكونوا معه فى السماء؛ لينجوا من «الضيقة الكبرى - the Great Tribulation» فى السنوات السبع الأخيرة.

ثانيا: سيقع العالم ضحية للحريق الهائل - حريق هرماجدون أو «الحرب العالمية الثالثة» والتى ستحدث نتيجة تصاعد الأزمة فى الشرق الأوسط.

لم يرد ذكر هرماجدون إلاّ مرّة واحدة فى الكتاب المقدس وذلك فى سفر الرؤيا [١٦/١٦]، ويبدو أنها تشير إلى جبل مجدو Mount of Megiddo فى سهل چزريل Jezreel فى وسط فلسطين. وسيكون ميدان المعركة واسعًا لدرجة أنه سيغطى مئات الأميال المربعة شمال القدس وجنوبها وسترتفع بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألجمة الخيول(*). ولن ينتهى الصراع هناك: «فستدّمر كلّ مدن الأمم» بفعل الأسلحة النووية والتى سوف تحرق الأرض و«تمزقها إربا وفق نبوءة الكتاب المقدس. ولن يعود المسيح إلى الأرض إلاّ إذا بدت وكأن الحياة فيها ستنعدم، عندئذ يعود لإنقاذ من تبقى(٥٨) وعندئذ يبدأ حكم القديسين فى الألف سنة الموعودة.

(*) «... فانبثق منها الدم وجرى أنهاراً حتى إلى لجم الخيل، مسافة ألف وست مائة غلوة [نحو ٣٢٠ كم]» سفر الرؤيا ١٤ : ٢٠.

وبالنسبة لمعظم الأوروبيين وكثير من الأمريكيين سيكون «تفسير» لندساي للكتاب المقدس وللأحداث السياسية المعاصرة لنا تطرفًا بعيد الاحتمال وخياليًا. **وعلى أية حال فقد بيع من كتابه (the Late Great Planet Farth) أكثر من أربعين مليون نسخة وأصبح واحدًا من أكثر النصوص الدينية تأثيرًا فى أمريكا الآن. وقد قرأه رونالد ريجان وقرأ الأحداث فى ضوئه، كما يدل على هذا تفسيره فى سنة ١٩٧١م لضرب القذّافى فى ليبيا «هذا علامة على أن يوم هرماجدون لم يعد بعيدا... كل شىء أصبح فى مكانه. لا يمكن أن يطول الأمر الآن. يقول حزقيال: إن النار والكبريت ستمطر على أعداء شعب الله. لا بد أن هذا يعنى أن الأسلحة النووية ستدمرهم»**[٥٩].

تحديد القائلين بالتدبيرية الإلهية لروسيا باعتبارها عاملاً محوريًا فى نهاية الأزمنة حمّس إدارة ريجان للانخراط الكامل فى الحرب الباردة، انخراطًا فاق من سبقوه. ولم يكن ريجان وحده فى هذا. **فأكثر من ثلث الأمريكيين اعتقدوا فى ذلك الوقت فى حتمية الحريق النووى، مُعتبرينه جزءًا من خطة إلهية لنهاية التاريخ، خطة لا يمكن لأى أمة أن تمنع تنفيذها، واعتقد ربع الأمريكيين أيضًا أن الله سينقذهم من هذا الحريق باختطافهم فى الهواء**[٦٠].

كان أحد الناصحين الدينيين المخلصين لريجان هو چيمس روبيسون الداعية الإيڤانجليكى التليفزيونى المؤمن بالفكر ما قبل الألفى، والذى صلى فى وقت لاحق مع چورچ دبليو بوش فى التليفزيون الوطنى خلال معركته الانتخابية فى سنة ١٩٩٩م. **وقد أعلن چيمس روبيسون أن الناشطين للدعوة للسّلام هم حقا هراطقة لأن أية تعاليم تدعو للسلام قبل عودة المسيح إنما هى هرطقة... إنها ضد كلمة الله against the World of God إنها ضدّ المسيح**[٦١]. وعلى النحو نفسه كان الناشطون لحماية البيئة يعتبرون شيوعيين هراطقة من وجهة نظر أعضاء فى إدارة ريجان. وأشهد السكرتير الأول للشئون الداخلية لرونالد ريجان لجنة الكونجرس على اعتقاده بأن عودة المسيح باتت وشيكة. وكان هذا السكرتير الأول، وهو چيمس وات من المسيحيين المحافظين من الطائفة الخمسينية. وقد أثر هذا الاعتقاد - بوضوح - فى موقفه وموقف الرئيس ريجان المعارض لأچندة المحافظة على البيئة، وبناء عليه جرى إلغاء ترتيبات كثيرة

للمحافظة على البيئة (٦٢)(*). وتشير ارتباطات بوش بالقائلين بالتدبيرية الإلهية مثل روبيسون وفرانكلين جراهام إلى أنه هو نفسه من القائلين بالتدبيرية الإلهية، رغم أن مستشاريه منعوا بشدّة أية إشارة إلى مثل هذه المعتقدات فى خطبه ولقاءاته. **لكن بوش يتبع ريجان فى كل خطوة خطاها، فيما يتعلق بالبيئة والسوق الحرة وإسرائيل، وقطع الدعم عن الخدمات العامة وخدمات الرفاهية الاجتماعية، والزيادة الهائلة فى حجم الإنفاق العسكرى، ومن المعروف أن ريجان كان من القائلين بالتدبيرية الإلهية**. وحتى غزو أمريكا للعراق واحتلاله فى سنة ٢٠٠٣، وإثارتها لحرب المقاومة داخل العراق، والأعمال الإرهابية ضد الأمم الغازية يُفسره القائلون بالتدبيرية الإلهية بأنه حَدَث نهاية الزمان، لأن سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى [٩/ ١٤-١٥] تحدّث عن فك «الأربعة الملائكة المقيدين عند النهر العظيم الفرات» والذين سيُدمّرون ثلث العالم(٦٣).

فالقيادة السياسية الأمريكية التى كانت فى وقت من الأوقات ترى نفسها صهيون الجديدة the new Zion قد تحوّلت الآن فى غالبها من الاتجاه الما بعد ألفى إلى الاتجاه الما قبل ألفى فى توجّهها نحو الأرض المقدسة، فبدلاً من إعادة بناء صهيون فى أمريكا، فإن أمريكا ـ الآن ـ ملتزمة ماليًا واستراتيجيًا بإعادة بناء صهيون بمعنى دولة إسرائيل. **ومرّة أخرى فإن بوش قد راح يسير بشكل ثابت فى هذا الطريق معلنًا فى الأيام الأولى من رئاسته أن الوقت قد حان لرفع الضغط عن إسرائيل، والسماح للإسرائيليين بالتعامل مع «القضية الفلسطينية» بما يرونه مناسبًا** (٦٤). ومنذ هذا الإعلان راح الإسرائيليون يدّمرون الاقتصاد الفلسطينى الوليد، ويدمّرون أجهزة الأمن الفلسطينية ـ وإن كانت هذه الأجهزة فاسدة ـ كما راح الإسرائيليون يُنشئون جداراً عازلاً محصنًا عبر مئات الأميال من الأراضى الفلسطينية عازلين به الفلسطينيين عن مزارعهم، وعن المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية. ونتج عن هذا زيادة البطالة الفلسطينية ونقص الغذاء، مما أدى إلى غضب ويأس غير مسبوقين، وظهرت موجة جديدة من العمليات الاستشهادية ضد الإسرائيليين.

(*) كذلك فإن چورج دبليو بوش غير مهتم بالحفاظ على البيئة، وخرجت الولايات المتحدة عن الإجماع الدولى، ولم توقع على اتفاقية كيوتو ـ المترجم.

جعل الشرق الأوسط مواتيًا لإسرائيل عدوانية من جديد، هو أيضًا غرض محورى لإدارة بوش فى حربها وفى احتلالها للعراق. بل إن مصر والعراق وإيران وسوريا ولبنان وحتى المملكة العربية السعودية بعد تورطها فى هجمات ١١ سبتمبر(*) على الولايات المتحدة يقال إنها تهدد إسرائيل وأمريكا. من هذا المنظور **فإن تأسيس أمريكا لنظام اقتصادى من القطاع الخاص فى العراق، وديمقراطية سياسية خاضعة للمصالح المالية والاستراتيجية للمؤسسات الأمريكية، هو السبب الجوهرى لغزو واحتلال العراق. فبإخصاء (إضعاف) العراق وخصخصته وتحويله لديمقراطية وإعادة تشكيله وفق التخطيط الأمريكى، وجعله «مثلاً» للدول العربية الأخرى، ومع الوجود العسكرى الأمريكى فيه لمدّة طويلة، تهدف إدارة بوش من هذا كله أن تمكن إسرائيل من هزيمة الفلسطينيين، وتُمكّن على نحو خاص شارون وخلفائه من تحقيق حلمهم فى الاستقرار فى كل الأراضى التوراتية - الضفة الغربية والقدس الشرقية - وأخيرًا ليعيدوا بناء هيكل سليمان الكبير فى القدس. فعندما يتم بناء الهيكل، وليس قبل ذلك، تتوالى أحداث نهاية التاريخ التى يقال إن سفر الرؤيا قد تنبّأ بها. هذه السياسة الخارجية الصهيونية أبعد ما تكون عن التقدم فى طريق السلام فى الشرق الأوسط، فليس من نتيجة لها إلا إشعال غضب الإسلاميين ومن هنا تستمر، «الحرب على الإرهاب». لكن مع العلم بأن نهاية الأزمنة هى حقًا فترة حرب مستمرة، فليس هناك مدعاة للقلق؛ لأن الحريق النهائى فى الشرق الأوسط سيضع حدًا للتاريخ وينهيه على وفق النهاية الموعودة التى أشار إليها سفر الرؤيا.**

***

تقسيم أسلاب نهاية الزمن

تمثل التدبيرية الإلهية الما قبل ألفية قوّة ثقافية ودينية فى أمريكا الحديثة. ومن بين تأثيراتها الداخلية الغادرة تآكل العقيدة البيوريتانية المنصوص عليها فى الدستور، والقائلة: إنه ما دام كل الناس خلقهم الله، فإنهم جميعًا - كما يعلن الدستور -

(*) ليس مفهومًا الأساس الذى بنى عليه الكاتب تورط كل هذه الدول فى هجمات ١١ سبتمبر، إلا إذا كان فى ذلك يردد ما يقوله بعض من يدعون لصراع الحضارات أولهم أجندتهم الخاصة فى الدوائر السياسية الأنجلوساكسونية - المترجم.

متساوون. أما فى الرؤية التدبيرية الإلهية، فالناس ينقسمون إلى أشرار ومؤمنين حقيقيين. فمجتمع تأثر بعمق بهذا اللاهوت السيئ - لاهوت رفع الصالحين إلى السماء مع الرب. هو مجتمع مستعد أيديولوچيًا لأقصى درجات التفرقة بين المواطنين - أو أقصى درجات عدم المساواة - وأقصى درجات الانقسام الاجتماعى التى يمكن أن تنتج عن فرض رأسمالية السوق «الحرة» الليبرالية الجديدة، منذ إدارة ريجان فى ثمانينيات القرن العشرين. ويشترك مع التشاؤمية الملازمة للتدبيرية الإلهية المتشككة فى إمكانية تكوين مجتمع أكثر عدلاً، ذلك الحماس الدينى الذى تم به فرض الرأسمالية المتطرفة للشركات والمؤسسات التجارية على المجتمعات الأمريكية، ومن خلال وكالات المنظمات ذات الأساس الأمريكى، مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، فى مختلف بلاد العالم.

فى الرأسمالية واللامساواة المتطرفة، مزق العنف مدن أمريكا الكبيرة فى السنوات الثلاثين الأخيرة، بينما يتراجع الأثرياء بشكل متزايد إلى مجتمعاتهم المغلقة. وقد يتخيل القارئ أن الفقر فى أغنى الأمم فوق الأرض ليس هو الفقر بمفهومه التقليدى الذى نعرفه. لكن ٣٣ مليون أمريكى يعيشون دون مستوى خط الفقر الفيدرالى، وأكثر من ثمانية ملايين يعيشون فى منازل لا يجدون فيها - بشكل متتابع - وَجَباتهم لنقص دخولهم المالية[٦٥]. ووفيات الأطفال بين الفقراء الأمريكيين أعلى منها فى كثير من الدول «النامية». آلاف الأمريكيين الفقراء ماتوا فى سنة ٢٠٠٣م بسبب موجات الحر فى شيكاجو وغيرها من المدن الأمريكية لأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على أجهزة تكييف، بينما مات من البرد القارس فى الساحل الشرقى فى أوائل سنة ٢٠٠٤م كثيرون؛ لأنهم لم يكونوا قادرين على تدفئة مساكنهم. وليس زيادة انتشار الفقر نتيجة عنيدة للرأسمالية، وإنما نتيجة للقرارات السياسية لنخبة المؤسسات الأمريكية التى أظهر لها بوش أنه رئيس مخلص لها. لقد قطعت إدارة بوش الدَّعم فى مجالات شتى بدءًا من إعانة الفقراء إلى الرعاية الصحية وتدفئة المنازل والإسكان والطعام وبرامج التعليم ورعاية الطفولة[٦٦]. وبالنسبة لبوش - كما أشار هو نفسه فى خطابه فى بداية ولايته - إن الغنى - وليس الحكومة - هو الذى يجب عليه أن يعطف على الفقير. ومن هنا فقد خفّض الضرائب على الأغنياء مفترضًا أنه سيمكنهم من ذلك، ولم يكن بوش مبتدعًا فى أخذه من الفقير ليعطى الغنى. فالعكس هو الصحيح كما يشير پول كروجمان،

ففى الثلاثين سنة الماضية كانت التخفيضات فى الضرائب ـ بشكل مستمر ـ لصالح أغنى ١٪ من الأمريكيين بدخول متوسطها ٢٣٠,٠٠٠ دولار، بينما من بين هؤلاء الواحد فى المائة ٦٠٪ ذهبت لأغنى ٠,١٪ بدخول سنوية تزيد على ٧٩٠,٠٠٠ دولار أمريكى [٦٧]. وبينما يزداد الفقير فقرًا راح الأغنياء ـ بشكل متزايد ـ يميلون إلى الابتعاد عن المحيط العام، وراحوا ـ كما يرى روبرت كاپلان ـ يختارون أن يعيشوا حياتهم كلها بين محيط المؤسسات فى مجتمعات مغلقة حيث تخلّوا عن حقوقهم الشخصية من أجل ميزات الأمن الاقتصادى والبدنى اللذين لم يعد يمكن توفيرهما فى الجو العام الذى يزداد تمزّقًا. ودلَّل كاپلان أنه هو وأمريكيون آخرون راغبون فى التخلّى عن حقوقهم الفردية إن كان هذا يعنى حماية ما يملكون. . . »[٦٨].

أمّا وقد انسحب الأغنياء من المحيط العام، بالإضافة إلى الإنكار المروّع للحريات فى الممارسة اليومية لأمريكيين كثيرين أقل تمتعًا بالامتيازات الأخرى، وهناك أيضًا هيمنة النخبة من المؤسسات، والنخبة من المتبرعين على الآلية الديمقراطية فى أمريكا، فالزعم بأن هجمات ١١ سپتمبر كانت هجمات على الديمقراطية والحرية، هو حماقة فاسدة [٦٩] **فأمريكا أقل ديمقراطية من البلوتوكراسيا (حكومة الأثرياء) عندما يمتلك ـ فقط ١٣,٠٠٠ من أغنى الأسر ثروة من الأراضى والأسهم والسّندات أكثر مما يمتلك الأفقر ٢٠ مليون، أى ٨٠٪ من إجمالى ثروة أمريكا الآن فى أيدى ١٠٪ من الشعب الأمريكى، وتزداد الفجوة، فالمدراء التنفيذيون يتقاضون ما يزيد ١٠٠٠ مرة عن موظفيهم**[٧٠] **. مثل هذا التفاوت المفْرط يُفسد الديمقراطية: فالأربعون فى المائة من الأمريكيين الذين لا يشاركون إلاّ فى أقل من ١٠٪ من الثروة الأمريكية مشغولون جدًا فى الكفاح لتدبير معاشهم، إن انشغالهم بهذا أكثر بكثير من انشغالهم بالتصويت فى الانتخابات. إن الواحد منهم يبحث عن عملين إضافيّين أو ثلاثة بأجر ضئيل وبدون تأمين صحى أو معاش، وهؤلاء لا يجدون جدوى من التصويت فى الانتخابات لأى من الأحزاب بأطيافها السياسية المختلفة. ليس من مجتمع يستثنى هذا العدد الكبير من حقهم فى حياة جيدة، بينما يستمتع الآخرون بمستويات من الثروة لا تُصدّق، لا يمكن لمثل هذا المجتمع أن يزعم أنه مجتمع ديمقراطى أو حُر. وتآكل الديمقراطية الأمريكية ليس مقصورًا على اختفاء عدد كبير جدًا من المصوّتين من خلال الإحساس باستبعادهم من السياسات الأمريكية. ويمكننا أن نعلنها صريحة واضحة: إنهم مستثنون على كافة**

المستويات، من انتخابات المدن إلى الانتخابات الرئاسية، فمؤسسات الأعمال واللوبى المموّل يوجهان السياسة العامة فكما يوضح تدْ هوندريتش «شخص واحد يعنى صوت واحد، أمر طيب» لكن «ما هى قاعدة التأثير على الحكومة بعد الانتخابات؟»[٧١].

التفاوت المتطرف الذى اجتاح الولايات المتحدة فى الثلاثين سنة الأخيرة قد تطوّر بفعل أيديولوچية السوق «الحرّة» التى جرت متابعتها بإخلاص وحماس من قبل الاقتصاديين الأمريكيين فى الجامعات الأمريكية والماليين فى وول ستريت، وأقطاب الإعلام فى نيويورك، وبفضل السياسيين الجمهوريين والديمقراطيين، وبفضل مؤسسات الأعمال الأمريكية التى احتوت الحزبين والانتخابات فى مجلسىْ الكونجرس والانتخابات الرئاسية ببلايين الدولارات. لكن هذه الأيديولوچيا ليست بالضبط نتيجة تغير فى توازن القوى بين رأس المال والعمل، أو حتى نتيجة تراجع نظرية عدم التدخل فى النشاط الاقتصادى Laissez Faire بين الاقتصاديين الأمريكيين. لقد جرى تطويرها على يد الإيڤانجليكيين ومعتنقى التدبيرية الإل[illegible]. فاليمين المسيحى قد اعتنق السوق «الحرّة» باعتبارها مثالا للاقتصاد الحقيقى [illegible]ذى يسير على هدى الكتاب المقدّس:

«نحن نؤكّد أنّ اقتصاد السوق الحرّة هو أقرب ما اتخذه الناس فى هذا العالم الساقط إلى الاقتصاد الذى رتبه الكتاب المقدس، ومن بين كل أنواع الاقتصاد التى عرفها الإنسان، هو الاقتصاد الأكثر تحقيقًا للحرية والعدل والرخاء لكل الشعوب. إننا ننكر أن التخطيط المركزى ـ وغير ذلك من التدخلات القسرية فى الاختيار الشخصى ـ يمكن أن تزيد إنتاجية المجتمع، وأن الحكومة المدنية لها سلطة فرض قيم الملكية، وأن الكتاب المقدس يفرض أى سعر «عادل»، إلاّ ما هو ناتج عن تفاعل العرض والطلب فى أسواق شعب حُر»[٧٢].

لقد راح الزعماء المسيحيون (الإيڤانجليكيون) المحافظون ـ متجاهلين الاعتراضات على الشرور المتزايدة الناجمة عن الانقسام الاجتماعى ـ يدافعون عن إنهاء كل المحاولات الرامية إلى ضبط أنشطة المؤسسات الخاصّة، ليس فقط إنهاء محاولات تحديد حد أدنى للأجور، وإنهاء الترتيبات الخاصة بحماية البيئة، وإنما أيضًا إنهاء برامج الرفاهية الاجتماعية والرعاية الصحية. وقد اعتبروا ضريبة المواريث وغيرها من

الضرائب التى توجّه حصيلتها للخدمات العامة والرفاهية الاجتماعية ضرائب غير مبررة وغير قائمة على أسس من الكتاب المقدس؛ لأنها تدخّل فى حق الملكية وحق توريث الممتلكات. وهم يَدْعون إلى المزيد من نظم العدالة القائمة على العقاب للتعامل مع أولئك الذين يسرقون أكثر مما يعملون. **لكن بينما نجد اللصوص الصغار يمكن أن يُرسلوا للسجون ليعيشوا بقية حياتهم تحت سياسة «الضربات الثلاث»(*) لبعض الولايات المحافظة، نجد أن جريمة سرقة البلايين من خلال التلاعب المشبوه فى حسابات مؤسسة تمضى دون عقاب، إن كلا من جورج دبليو بوش وديكْ تشينى، قد تعرضا للتحقيق لعدم الانضباط فى أعمالهما المالية، لكن أيا منهما لم يُحوّل للقضاء** (٧٣).

ويسجل إنجيل لوقا أنه عند بشارة المَلَك لمريم العذراء بأنّها سوف تلد المخلِّص (المسيح)، ابتهجت بكلمات الترنيمة (التسبيحية) التى تعد بقلب قيم سلطات الإمبراطورية الرومانية «أنزَل الأعزّاء من الكراسى ورفع المُتّضعين، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين»[لوقا ١ : ٥٢-٥٣]. لكن فى الإمبراطورية الأمريكية يرى كثيرون من (الإيڤانجليكيين) عقيدة اقتصادية يتمسكون بها مؤدّاها مباركة الغنى، أما الفقير فيُطرد فارغا. وهذا مناقض تماما لرسالة العهد الجديد.

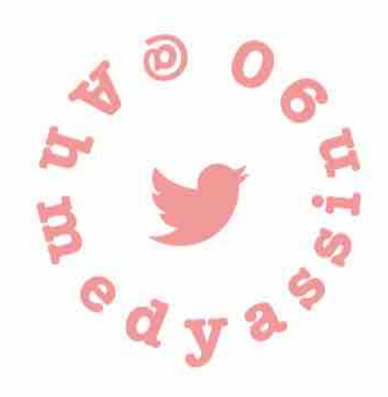
فالمزاوجة بين الفرديّة المخصخصة والعقيدة الإيڤانجليكية القائلة بالتدبيرية الإلهية، خاصة مقولتها عن الاختطاف إلى السماء عند عودة المسيح من ناحية ومداهنة رأسمالية المؤسسات ـ المثيلة لإنرون ـ من ناحية أخرى، يُعد مثالا مأساويًا لقدرة الدين المحرّف، والأيديولوچية العلمانية على إفساد حياة الناس والعلاقات بينهم، وعلى تدمير المجتمعات. وجذور هذه المزاوجة الشّريرة وغير الأخلاقية تكمن فى فكر لوك حتى لو كان لوك نفسه لم يكن يتخيّل النتائج المدّمرة لفكرته. فطالما أنّ لوك قد جعل الأولوية للملكية قبل المجتمع، وللصناعة قبل البيئة، وقَلَب رأسًا على عقب فكرة الكتاب المقدس عن الخلق وعن الأرض بوصفها هبة من الله للناس جميعًا، فإنه يكون بذلك قد وضع أسسا للتقسيم المتطرف لغنائم العالم الجديد، وهو ما يمارسه الأمريكيون الآن. ومع فشل الدولة الأمريكية فى عشرينيات القرن العشرين ومنذ سبعينيات القرن نفسه لتحسين الآثار الاجتماعية والبيئية لرأسمالية مؤسسات الأعمال المنْفلتة، ليس هناك ما

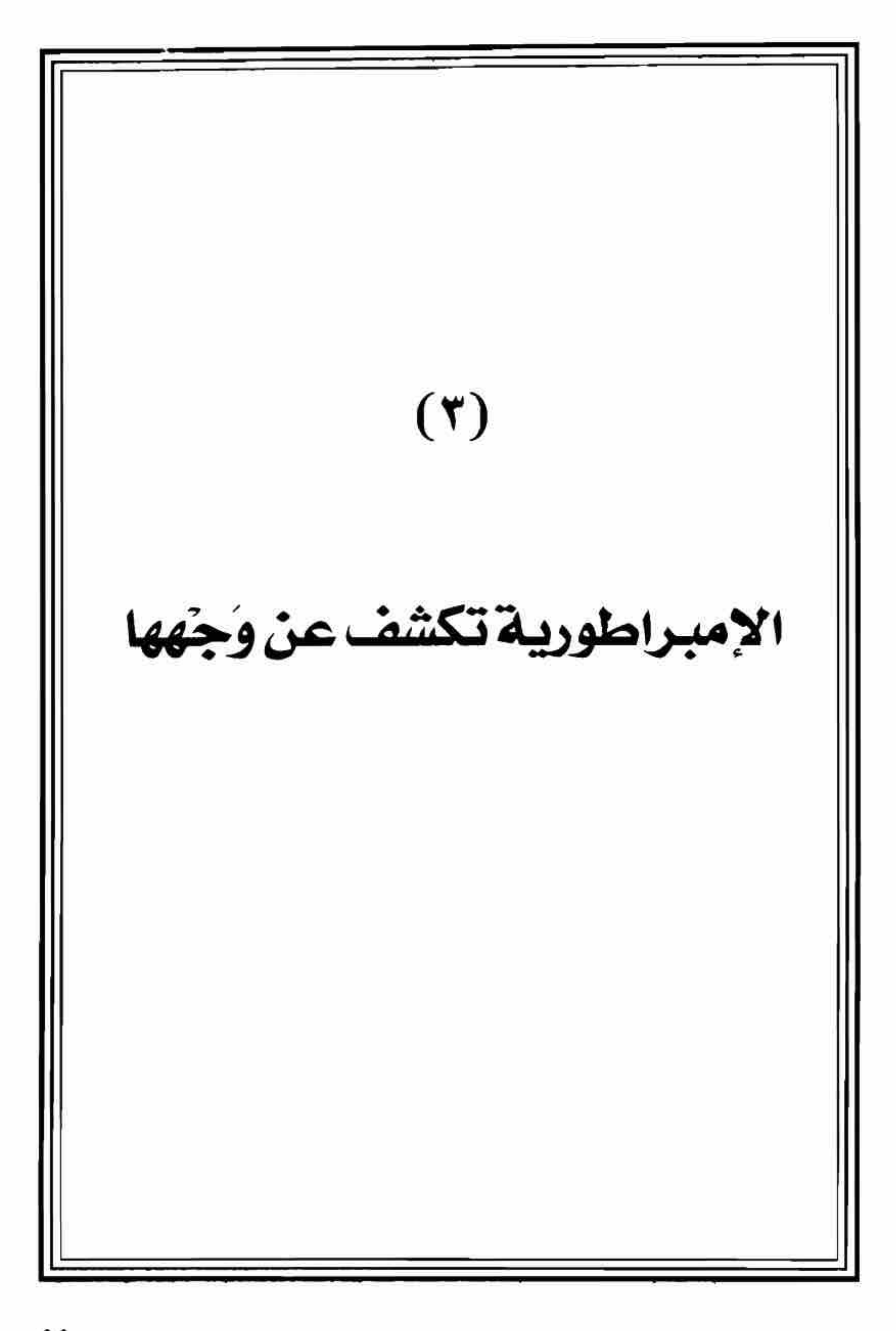
(*) سنت بعض الولايات قانون يقضى بعقوبة السجن مدى الحياة بعد ثالث جريمة يدان فيها المتهم ـ المترجم.

يدعو للدهشة فى أن لاهوت لوك الفاسد لا بد أن يتزاوج مع النظرة الرؤيوية المتشائمة لكل من داربى وسكوفيلد ولندساى. فالتدبيرية الإلهية مثال تقليدى على دين مخدِّر للشعب، أو بتعبير آخر دين يمثل أفيون الشعب. إنه يعمل كأيديولوچيا وكساتر دخانى يُضفيان الغموض ويُعمّيان على التقسيم الاجتماعى، وازدياد العنف فى شوارع أمريكا للهوس غير المنضبط للرأسمالية المتطرفة، منذ ريجان حتى بوش الابن.

وراء حوائط ورجال أمن مجمعات سكن أصحاب المؤسسات، ووراء چيتوهات سكنت الطبقة العاملة المهمشة فى مدن ما بعد الصناعة، يلجأ الأغنياء والفقراء ـ سواءً بسواء ـ إلى الحلم بأن يكونوا ضمن «المخطوفين إلى السماء» لملاقاة الرب، بدلاً من الحلم بمجتمع يتشاركون فيه الحرية والديمقراطية والثروة، ذلك الحلم الذى لم يتحقق.

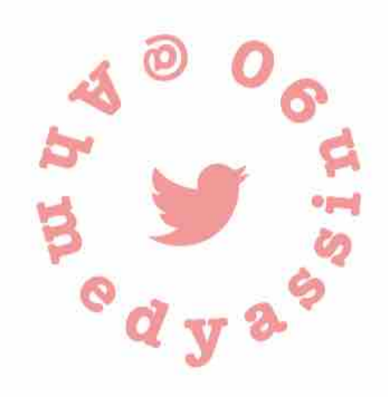
* * *


@Ahmedyassin90



(٣)

الإمبراطورية تكشف عن وُجْهها


@Ahmedyassin90

كلمة «أبوكاليبس ـ apocalypse» (سفر الرؤيا) مشتقة من الكلمة الإغريقية apocalypteo التى تعنى حرفيًا «بدون حجاب[1] ـ without veil or unveiling»، فالكتّاب الرؤيويون للعهد القديم سَعَوْا لرؤية ما تحت سطح الأحداث المعاصرة لهم ليتبيَّنوا معناها الحقيقى. كان غرضهم هو تبيّن يد الله القُدسية أو الخفية وكشف دورها فى الأحداث التى تمثَّلت فى غزو الإمبراطوريات الأجنبية لشعب إسرائيل بعد القرن الثامن قبل الميلاد[2]. لم تكن الرؤى الكتابية مهتمة كثيرا بنهاية العالم بقدر ما كانت مرتبطة بالتاريخ الحاضر (المعاصر لمن رأوها) خاصة تاريخ الظُّلم الإمبراطورى، وأمل شعب إسرائيل فى حكم الله الموعود. يقول سى. كيه. بارِت: «الأسرار التى تتعامل معها أسفار الرؤى ليست هى ـ ببساطة ـ أسرار المستقبل ـ أى ليست هى أسرار العصر الذى سيأتى ـ إنها تحوى أسرار الوضع الحالى (الحالى بالنسبة لأصحاب الرؤى) لـ «العالم المقدّس (السماوى) ـ heavenly world». حقيقة أنّ هذين السرّين لكلّ من السماء والمستقبل مرتبطان ارتباطا وثيقا طالما أنّه فى الرؤى، يجرى الإعلان عن المستقبل ذى المغزى فى هذا العالم، من العالم السماوى، معرفة ما هو الآن فى السماء؛ يعنى ـ بالتبعية ـ معرفة ماذا سيحدث على الأرض[3]».

لقد كان الغرض الأول لمؤلفى أسفار الرؤى فى العهد القديم هو شد أزر الإسرائيليين خلال فترة الاحتلال والنفى على أيدى الإمبراطوريات: الأشورية والبابلية والفارسيّة. لقد سعى أصحاب هذه الرؤى لإظهار أن خطّة الله إنما كانت تهدف فى النهاية إلى إزاحة هذه الأمم التى هزمت إسرائيل، وتأسيس حكم يهوه (الله) المباشر على الأرض من القدس أو جبل صهيون. وفى الوقت نفسه على الإسرائيليين أن يبقوا مؤمنين بعبادتهم ليهوه بوصفه الإله الحق؛ لأنه سرعان ما يكشف عن ذاته كحاكم للأمم.

ويُعتبر سفر دانيال هو الشّاهد التقليدى على هذا الأسلوب الرؤيوى. إنه يقُص حكاية ثلاثة إسرائيليين واجهوا مَلك بابل العظيم «نبوخذ نصر» وقاوموا عبادة الملك،

تلك العبادة المفروضة على كل الشعب بمن فيه اليهود المنفيِّين. وعندما عوقب هؤلاء اليهود الثلاثة بإلقائهم فى حُفَر فيها نار، على إيمانهم بعبادة يهوه وليس الملك، خرجوا من النيران دون أن يصيبهم ضُر، فأثاروا إعجاب الملك وولاهم مناصب عالية فى بلاطه. ولا بد أن قارئ هذه القصة من اليهود والمغلوبين على أمرهم أدركَ مغزاها الواضح. فقد يُجبرون على العبودية وعلى النفى بعيدا عن بلادهم بمئات الأميال، فَهُم وإن تحطّم هيكلهم فى القدس ونُهبت مدنهم إلا أنهم ـ مهما كانت طلبات قامعيهم الظالمة ـ عليهم أن يقاوموا وعليهم أن يظلوا مخلصين ليهوه الذى سيطيح ـ يوما ما ـ بالأباطرة والإمبراطوريات التى سبق أن هزمت إسرائيل. ستنهار دعاوى هؤلاء الأباطرة وتلك الإمبراطوريات ليكون يهوه هو رب كل الأمم، وسيأتى الناس جميعا لعبادته فى القُدس المستعادة. والخطاب الرؤيوى فى الكتاب المقدس هو ترجمة لفترة ما بعد النفى حيث معاداة الإمبراطورية ومعاداة العروش، وهذا هو المسار العام الصحيح فى العهد القديم. إن هذه الرؤى تتطلّع إلى زمن يعود فيه ياهو ليحكم من جديد ـ حكما مباشرا ـ «شعب الله ـ People of God» دون وساطة من عروش بشرية أو إمبراطوريات دنيوية. وهذه الرؤى تذكّر ـ أيضًا ـ الإسرائيليين بأن ياهو لا يزال إلى جانب شعبه المختار، حتى وإن أصبحوا عبيداً وخدمًا لقوى أجنبية، كما كان حالهم فى وقت من الأوقات ـ فى أرض مصر ـ خدمًا وعبيداً لقوى أجنبية(٤).

وقد استخدم يوحنا (من بطمس Patmos) الكاتب المسيحى لسفر الرؤيا مسحة رؤيوية يهودية فى تأليفه لنصّه الرؤيوى المسيحى (سفر الرؤيا). وكان غرضه هو تشجيع المسيحيين وإلهامهم أثناء تعرضهم للاضطهاد على أيدى السلطات الرومانية فى أواخر القرن الميلادى الأول، ليظلوا على إيمانهم بالمسيح. لكن بينما نجده يستخدم الرمزية على النحو الذى استخدمت فيه فى العَهد القديم، فإن سفر الرؤيا أيضًا عمل إبداعى كبير يقدم لنا تأثير الفهم المسيحى على التاريخ البشرى وتاريخ الكون بطريقة تخيلية رؤيوية(٥). فكما يشير كريستوفر رولاند، فإن الإغراء الخيالى لسفر الرؤيا نشأ ـ على وجه التحديد ـ «من تحدى الوضع القائم (وقتئذ) والتطلّع لعالم أفضل، بشكل يربط كل هذا جميعا ربطا عاطفيا بالاهتمام بالمسئوليات الراهنة». لقد أعاد الكاتب

(يوحنا) فهم العالم فى ضوء قيامة المسيح، بوصفه عالما جديدا ينتصر فيه الخير على الشر ليكون الله والبشر معًا على الأرض:

«وعلى هذا، فسفر الرؤيا يُظهر لنا أنَّ العالم لم يَعُد مقبولا كما هو (بوضعه الحالى) ذلك أنَّ الأمور تكشَّفت بلا مواربة واتضح تواطؤ العالم - بشكل متتابع - مع قوى الشر. فالحكاية كلها تمثل نضالا لتحقيق الكمال، ولا يكون هذا إلا بإزالة الحاجز بين السماء والأرض أى بين الله والبشر عندما يسكن الله هيكله، [طبقًا للعهد القديم] بين البشر، رجالا ونساء»[6].

المعنى الحقيقى لسفر لرؤيا هو أن الإمبراطورية الرومانية التى أطلق عليها السفر أسماء مختلفة «الوحش»، «التنين»، «زانية بابل»، والإمبراطور الرومانى «عدو المسيح» (الأنتيكرست) يهزمون بالفعل. والإمبراطورية الرومانية قد تظهر من جديد لتسود، لكن لن تطول سيادتها، فستأتى كل الأمم حتى «زانية بابل» لتعترف بـ «ربوبية المسيح - Lordship of Christ». فسفر الرؤيا - بعبارة أخرى - دعوة قوية ضد الإمبراطورية، فلغته الرمزية وإشاراته المُشَفَرَة، تُشير للمسيحيين الأوائل إلى حقيقة التاريخ التى تعنى أن كل الإمبراطوريات - بما فى ذلك إمبراطورية روما - ستسقط فى خاتمة المطاف لتخضع للحكم المباشر لله من خلال مشاركة القدّيسين».

***

إضفاء القدسيّة
على الإمبراطورية الأمريكية

إنّه لتشويه مأسوى لرؤى الكتاب المقدس أو لأسفار الرؤيا فيه، أن تَستَغل أمريكا فكرة الألفية لأكثر من قرنين كأيديولوچيا مُقدّسة، لتخفى بها الاتجاهات التوسعية للنخبة الحاكمة فيها، تلك الاتجاهات التى تنم بوضوح عن الرغبة فى تكوين إمبراطورية. لقد استخدمت هذه النخبة فكرة الألفية لتُخفى تأسيسها لإمبراطورية يكون فيها الكثيرون فى خدمة القوّة، أما الثروة فتكون للقلّة وبدلا من كشف الهدف فنحن هنا نغطّى عليه (نحجبه) وتصبح أيديولوچيا الرؤيا النبوئية أداة تغطى حقيقة العدوان الإمبراطورى، داخل أمريكا وخارجها[7].

لقد كانت أيديولوچيا الحجب هذه التى تُضْفى الغموض على القوّة الأمريكية، أيديولوچيا فعّالة جدا، حتى إنَّ الكثيرين من الأمريكيين ليس لديهم فكرة عن الطبيعة الإمپريالية للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الآن، أو فى المائتى عام الأخيرة، فقد حجبت عنهم وسائل الإعلام هذه الحقيقة، فوسائل الإعلام هذه كانت فى الغالب الأعم مُستعبدة تماما لنخبة المؤسسات التى تحكم الإمبراطورية. لكن الچنرال السابق أندرو باسيڤيتش بالجيش الأمريكى ذكر أنه «خلال القرن العشرين ستلعب الولايات المتحدة دورا لا يمكن فهمه إلاّ بوصفه شكلاً مختلفا من أشكال الإمبراطورية»[٨]، وبانتهاء الحرب الباردة أصبح الحديث عن الإمبراطورية الأمريكية جزءا من المناقشات اليومية فى أمريكا عن سياستها الخارجية[٩]. فكما يقول المؤرخ «آرثر شليسنجر - Schlesinger» «من ذا الذى يمكنه أن يشك فى وجود إمبراطورية أمريكية؟ إنها إمبراطورية عامة informal (غير معلنة أو غير رسميّة). حقيقة إنها ليست دولة استعمارية من ناحية شكل الحكومة، لكنها مزوّدة وبكفاءة عالية بكل الأدوات الاستعمارية: جيوش وسفن وطائرات وقواعد وحكام إداريون واسعو الصلاحيات وعملاء.. كل هذا منتشر فى الكوكب سيئ الحظ»[١٠]. فقد كان الهدف الأساسى للإمبراطورية الأمريكية هو «فتح العالم للمشروع الأمريكى؛ لأنه بدون عالم مفتوح لا يمكن أن يكون الاقتصاد السياسى فى النظام الأمريكى فاعلا ومؤثرا، خاصة وأن هذا النظام قائم على منطق التوسع غير الظاهر»[١١].

فالنظرة القاضية بأن أمريكا تحقق أهدافها بشكل أفضل فى عالم شكَّلته القوّة العسكرية الأمريكية، وأتبعته للاستثمار الاقتصادى الأمريكى - هذه النظرة أصبحت محورية أكثر من أىّ وقت مضى فى السياسة الخارجية الأمريكية. فبعد فشل أمريكا المدوِّى فى جنوب شرق آسيا فى القيام بدور «الأمّة المخلِّصة - redeemer nation» - دخلت واقعية جديدة فى مداولات السياسة الخارجية الأمريكية فى عقود تالية. فالتحليلات تذهب إلى أنَّ أمريكا قد انجرفت إلى الحرب الڤيتنامية فى الأساس بسبب مصالحها فى وقف الشيوعية، أكثر من انجرافها بسبب تنمية مصالحها الاقتصادية. فقد كانت ڤيتنام وكمبوديا ولاوس فى الأساس جزءا من الفرانكوفون (مناطق النفوذ الفرنسى) ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الشركات الأمريكية تعمل فى المنطقة، وأكثر من هذا لم يكن هناك بترول. وفى الخمسة عشر عاما التى شهدت التدخل الأمريكى

فى ڤيتنام وكمبوديا ولاوس سقط مليون ما بين قتيل وجريح، ومات بعد ذلك أكثر من مليون آخرون فى أعمال الإبادة الجماعية المرعبة (پول پوت)، نتيجة القصف المرعب وتدمير كمبوديا بناء على سياسة تبناها نيكسون وكيسنجر. وكان الخطأ الذى ارتُكب فى جنوب شرق آسيا هو - على وفق الواقعية الأمريكية الجديدة - أنَّ الولايات المتحدة تدخَّلت فى ثلاث دول فى الوقت الذى لم يكن لديها فيه مصالح اقتصادية واضحة. وقد لخَّص كاسپر وينبرجر هذه الواقعية الجديدة بأنها «الاعتقاد فى القوة الكاسحة التى توظَّف بشكل حاسم لخدمة المصالح الأمريكية»[١٢]، **وقد عبّرت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية فى عهد الرئيس كليتون عن الرأى نفسه عندما شرحت الهجوم على العراق بصواريخ كروز «إن كان علينا أن نستخدم القوّة فذلك لأننا أمريكا. إننا الأمّة التى لا يمكن الاستغناء عنها. إننا «نقف شامخين طوالاً - we stand tall»، إننا نرى أبعد عبر الزمان»**[١٣].

وقد عمل پول ولفوفيتز - أحد الشخصيات المهمة جدا فى إدارة چورج دبليو. بوش - فى الپنتاجون فى حكومة چورج بوش الأب. إنه يفصِّل فى ذلك الوقت مستخدمًا مصطلحات أكثر انفتاحا بكثير من أى استراتيچى عسكرى سابق، سياسة المصالح الذاتية الإمپريالية، والتى جرى تنحيتها سابقًا بالتظاهر بأن أمريكا أمّة مخلِّصة تعمل بتجرّد كامل دون مراعاة مصالحها على المسرح العالمى، أى أنها تعمل لصالح البشرية. لقد كتب ولفوفيتز «وثيقة خطة الدفاع - Defence planning» - وهى وثيقة خلافيّة مثيرة للجدل - فى بداية هزيمة العراق على يد القوات العسكرية لأمريكا وحلفائها فى حرب الخليج الأولى، **يرى فيها ضرورة أن توجَّه السياسة الخارجية الأمريكية - مستقبلاً - نحو توديع (أى إزاحة) كل المنافسين المحتملين لأمريكا وإبعادهم عن المسرح العالمى. لا بد أن تفرض أمريكا نفسها كقوة عالمية وحيدة قادرة على الدفاع عن مصالح الأمم المتقدمة صناعيًا، ولا بد أن تكرّس نفسها عسكريا وديپلوماسيا «لإعاقة أى منافسين مُحتملين كى لا يطمحوا للقيام بأىِّ دور أكبر على الصعيدين الإقليمى والعالمى»**[١٤].

وقد رفضت - فى ذلك الوقت - إدارة بوش الأب اتجاه ولفوفيتز، لكن بعد ذلك فى تسعينيات القرن العشرين، وجد عدد من الشخصيات المهمة فى إدارة چورج بوش

الابن أنفسهم يأخذون باتجاه (عقيدة) ولفوفيتز، ويفصّلونه بمن فيهم ديك تشينى، ودونالد رامسفيلد، وريتشارد بيرل. **لقد قرروا تحت شعار مشروع «القرن أمريكى جديد ـ New American Century» أن هدفهم هو «تدعيم قيادة أمريكا للعالم» وكذلك «تشكيل قرن جديد لصالح القيم الأمريكية والمصالح الأمريكية»**(١٥). وفى العام الأول من القرن الجديد أصدرت الـ PNAC وثيقة بعنوان «إعادة بناء الدفاعات الأمريكية ـ Rebuilding America's Defenses» يبدو ما توصلت إليه وكأنه عرض دقيق للارتباطات العسكرية، وللسياسة الخارجية لإدارة جورج دبليو بوش. لقد أعلنوا أن الرسالة الأولى المحورية للقوات المسلحة الأمريكية هى الدفاع عن «الوطن الأمريكى ـ American homeland»، وبعد ١١ سپتمبر أسست إدارة بوش «قوات الدفاع عن الوطن ـ Homeland Defence Force». والرسالة المحورية الثانية هى «خوض حروب تكتيكية كبرى متعددة فى وقت واحد، وكسبها بحسم»، ومنذ ١١ سپتمبر خاضت الولايات المتحدة حربين كبيرتين فى مسارح مختلفة؛ فى أفغانستان والعراق، وكانت تقدم فى الوقت نفسه «عونًا عسكريًا ـ military assistance» فى الفيليپين وكولومبيا وهايتى(١٦). **وأبدت الوثيقة أنه رغم نهاية الحرب الباردة كانت هناك حاجة طارئة لزيادة نفقات الدفاع، إذا كان على أمريكا أن تُحافظ على مكانتها المهيمنة فى النظام العالمى، وهذا قريب مما وَعَد به الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى خطاب توليته، وَوَضَعه موضع التنفيذ بعد ذلك. وأوصى التقرير بتطوير ونشر «وسائل الدفاع الصاروخية على مستوى العالم» التى كانت ـ فى الأساس ـ إحياء واستلهامًا للنظام الدفاعى الذى أخذ به ريجان والمعروف بـ «حرب النجوم». ومرةً أخرى وجدنا أن هذا مبادرة لإدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش**(١٧). **وأوصت الوثيقة أيضًا أن تكون السياسات الأمريكية أكثر فعالية بكثير إزاء تكاثر أسلحة الدمار الشامل، وحبَّذ التدخل العسكرى فى العراق وإيران وسوريا وكوريا الشمالية**(١٨). **مرّة أخرى نجد أنَّ قائمة (miscreant nations)، أى الدول الكافرة أو اللئيمة، هى نفسها دول «محور الشر» التى حدّدها بوش بعد ١١ سپتمبر ٢٠٠١م**.

هذه المبادرات الدفاعية الجديدة قد صُمّمت للحفاظ على السلام الأمريكى ليغمر العالم «global pax Americana» الذى يمكن أن يقدّم هيكلاً چيوپوليتيكيا للنمو

الاقتصادى الأمريكى على نطاق واسع، ولنشر المبادئ الأمريكية ـ الحرية والديمقراطية. وهذا الهيكل الچيوپوليتيكى ـ فيما يُقال ـ مهدّد بأحداث شرق آسيا ووسطها بسبب نهوض الصين، وكذلك بأحداث الشرق الأوسط. فلا بد أن يُعاد نشر القوات الأمريكية انطلاقًا من قواعدها فى فترة الحرب الباردة فى أوروپا الشمالية وشمال شرق آسيا إلى «الخليج العربى ـ Persian Gulf» وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى، مُمركزة قواعد أمريكية دائمة فى المناطق التى يكون فيها «السلام الأمريكى ـ Pax Americana» أكثر عُرضة للتهديد[١٩]. مرّة أخرى نجد الآن أنه من المثير واللافت للنظر مدى ارتباط هذا المخطط بما حدث بالفعل منذ سنة ٢٠٠١م. فقوات الولايات المتحدة تنتشر الآن بقوة ملحوظة فى أفغانستان وكازاخستان والعراق والكويت، وكذلك فى المملكة العربية السعودية. ولا يستثنى من هذه الاستراتيچية سوى جنوب شرق آسيا، رغم أن الولايات المتحدة أرسلت قوّة عسكرية إلى الفيليپين بعد أحداث ١١ سپتمبر ٢٠٠١ مباشرة. لقد تحركت إدارة بوش بسرعة بعد ١١ سپتمبر ٢٠٠١ لترجمة الاستراتيچية الآنف ذكرها (استراتيچية الـ PNAC) إلى إجراءات تنفيذية، بنشرها «استراتيچية الأمن القومى ـ National Security Strategy». لقد أعلنت الوثيقة أن أمريكا فى ظل حُكم بوش ستستخدم قوّتها التى لا نظير لها ونفوذها فى كل منطقة فى العالم للدفع بـ «العالمية الأمريكية الواضحة ـ American internationalism، التى تعكس وحدة قيمنا ومصالحنا الوطنية[٢٠]. وستكون الوسائل المستخدمة لتحقيق هذا هى زيادة الميزانية زيادة كبيرة مما سيمكّن أمريكا من توجيه ضربات إجهاضية لأى تهديد محتمل، وأى دولة «شرّيرة ـ rogue» وأى أمّة تُؤوى الإرهابيين وأى أمة تهدد بتطوير أسلحة الدمار الشامل. وعلى هذا فالـ «PNAC» قد وضعت مسبَّقا أسس كلّ من الاستراتيچية العسكريّة العدوانية «أحادية الجانب ـ unitateral» والقائمة على الضربات الإجهاضية، تلك الاستراتيچية التى أخذت بها إدارة بوش بعد ١١ سپتمبر ٢٠٠١، وكذلك وضعت أسس سَعْى إدارة بوش سعيًا حثيثا لفرض سيطرتها الإمپريالية على الاقتصاد العالمى وفرض هيمنتها العسكرية.

ورغم هذه العقيدة الجديدة القائمة على الضربات المسبَّقة وعلى «الحرب على الإرهاب» فإنَّ سعى إدارة بوش للسيطرة العالمية ليس فى حدٍّ ذاته جديدا، و «وليم

چيفرسون كلينتون» سعى بنشاط ـ قبل بوش الابن ـ إلى توجيه العَوْلمة بطريقة تجعل أمريكا فى مقعد القيادة لتوجيه اقتصاد العالم، مستغلاً كل المستجدات الثقافية والاقتصادية والتكنولوچية لتحقيق هذا الغرض[٢١]. فقد وضع كلينتون أسس الجهود الساعية للسيطرة على الاقتصاد «العالمى ـ global» الجديد الذى يتجاوز حدود الدول بشكل متزايد، واستغلال ثورة المعلومات لدفعه للأمام، وكان هذا هدفًا أساسيًا لإدارته (إدارة كلينتون). لقد كان المشروعان الاقتصاديان الكبيران فى فترة حكم كلينتون هما: إنشاء«منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ـ North American Free Trade Area» و«منظمة التجارة العالمية ـ World Trade Organisation» ـ لقد كان هذان المشروعان يشغلان مكانًا مركزيا فى استراتيچيته. ولم يختلف كلينتون مع المتحدّث الجمهورى باسم الكونجرس نوت جينجرتش الذى قال: إنه بالسيطرة على مرحلة العولمة الجديدة والهيمنة عليها ستصبح أمريكا «لا تُبارى فى ثروتها وقوّتها والفرص المتاحة لها»[٢٢]. ستكون أمريكا قادرة على السيطرة على العولمة وتطويعها على وفق ما تتخيله وعلى وفق مصالحها، ليس فقط من خلال براعتها فى علوم الحاسب الآلى والأقمار الصناعية و«السوفت وير ـ software»، تلك الوسائل التى تسيطر على ثورة المعلومات، وإنما أيضًا من خلال الهيمنة الكلية الممتدة عبر العالم كله للعلامات التجارية الأمريكية، والأطعمة الأمريكية، ووسائل الترفيه الأمريكية، والقيم الاقتصادية والسياسية الأمريكية[٢٣].

وبوش والبيت الأبيض فى عهده ـ مثلهم مثل كلينتون ـ يرون العوْلمة فتحًا للحدود للتجارة والاستثمار الأمريكيين، وهما بدورهما وسيلة لنشر القيم الأمريكية، خاصة الفهم الأمريكى للحرية «فتوقّع الحرية لا بد أن تغذّيه السوق الحرّة، وتنشرها التجارة الحرة، ويتم حملها عبر الحدود عن طريق الإنترنت»[٢٤]. والفرق الحقيقى بين بوش ومن سبقوه ليس فى حق أمريكا فى السيطرة على العالم من خلال العولمة وليس فى ضرورة ذلك، وإنما فى المدى الذى وصل إليه بوش خاصة بعد ١١ سبتمبر، فى حربه الشاملة ضد أى مصدر محتمل للمعارضة، بما فى ذلك المنشقّين داخل الولايات المتحدة نفسها، وكذلك الإرهابيين فى الخارج والدول المتخاذلة. فكما يؤكد جور ڤيدال وناعوم تشومسكى دون ملل، فإن كارتر وريجان وبوش الأب وكلينتون، كلهم

قد استخدموا القوة العسكرية الأمريكية لقصف دول أخرى مستقلة، وغزوها بما فى ذلك جرينادا ونيكاراجوا وپنما وليبيا والصومال والسودان، دون الرجوع للأمم المتحدة[٢٥]. لكن ١١ سپتمبر كان هو الحدث الذى مكّن إدارة بوش بشكل فريد من تحويل الحرب من أجل أسواق تسيطر عليها المؤسسات التجارية الأمريكية إلى «حرب صليبية - military crusade». لقد أعطت أحداث ١١ سپتمبر البيت الأبيض فى عهد بوش الفرصة نفسها للسيطرة الكاملة، التى منحها اليابانيون والنازيون والروس للرؤساء الأمريكيين قبل بوش. وكما يقول باسڤتش فإن الحرب الجديدة باسم «الحرية وضد الشر» مماثلة للنازية، تعطى مبررًا شرعيًا لاستخدام القوة الأمريكية. وأكثر من هذا فحرب بوش ضد الإرهاب ومن أجل الحرية هى فى صميمها حرب باسم المشروع الأمريكى لخلق عالم مفتوح موحد[٢٦].

منذ أكثر من مائتى سنة، فى فجر التنوير الأوروپى الذى اعتقد الأمريكيون أنهم هم ورثته، كتب عما نويل كانط مقالاً بعنوان «سلام دائم»[٢٧]. لقد كان إيمان كانط بأن نور العقل واستبدال الدين بقواعد دستورية قائمة على أسس عقلية، كل هذا سينهى الحرب ويؤدى فى النهاية إلى عالم كامل (مثالى) يصبح فردوسًا أرضيا. **ومما يدعو للسخرية - إذن - أن نجد الرئيس الأمريكى المسيحى رئيس الجمهورية العلمانية يستخدم لغة الحرب الصليبية - وهى لغة رؤيوية دينية - وعبارات على شاكلة الرعاية المقدسة، ومحور الخير ومحور الشر؛ ليواصل الضربات العسكرية الاستباقية دون حدود ضد العدو الإسلامى، وذلك دفاعًا عن الأفكار التنويرية عن الحرية. وأثناء «الحرب على الإرهاب» نجد بوش يعلن مرارا وتكرارًا «أن أمريكا ستقود العالم نحو السلام»[٢٨]، لكن إذا كان السلام يعنى غياب الصراع ومسالمة الأعداء، فإن العمليات الأمريكية فى «الحرب على الإرهاب» تبدو لا نتيجة لها إلا المزيد من الكراهية ضد أمريكا وحلفائها.**

***

الجذور الفكرية للإمپريالية الجديدة

لم تتطوّر الواقعية الاستعمارية الجديدة لـ «PNAC» والنزوع العسكرى المصاحب

لهـا والذى أخـذت به إدارة بوش، من فـراغ فكرى. وإنما كـان لهـا جـذورها الفكرية العـميقة. إنهـا تعكس التـحوّل الكبيـر فى الفكر السياسى والاجتماعى الأمريكى فى الأربعين سنة الأخـيـرة، والذى يمكن أن نلـمحـه بادئ ذى بدء فى أفكار الفـيلسـوف «فريدريك هايك ـ Hayek» والمنظّر السياسى «ليو شتراوس ـ Strauss» والاقتصادى «ملتون ج. فريدمـان ـ Friedman». فيكاد يكون كل برنامج المحافظين الجدد الذين صاغوا أنفسهم بأنفسهم، والذين يسيِّرون إدارة چورچ دبليو. بوش مُستقى من أفكار هايك، وشتراوس وفريدمان، وعدد من أعلام إدارة بوش بمن فيهم چون أشكروفت، وپول ولفوفيتزس تَتَلْمذوا على يد شتراوس فى شيكاجو.

والفكرة المحورية فى النقد الذى وجّهه فريدريك هايك للاشتراكية فى بحثه «الطريق إلى العبـودية ـ Road to Serfdom» هى أن جُـهـد الدولة الموجَّـه إلى تحسين المجتـمع أخلاقيّا تؤدى إلى الظلم والطغيـان[٢٩]. لقد كـان هايك يكتب ما كتب أثناء الحرب العالمية الثانية، ونماذج على شاكلة هيتلر وستالين اللذين كانا لا يزالان يبثان الشر بين ملايين البشر، فى ظل هذه الظروف دلَّل هايك على أن الدولةَ عنيفةٌ بالضرورة وبشكل أساسى وأنها ـ فى الأصل ـ تميل للإجبار والإكراه وعلى هذا فأفضل ما يمكن عمله هو التقليل من تأثيرها والتقليل من سلطانها القانونى. لقد اقتبس هايك مقولة فريدريك هولندرلين «ما تفعله الدولة دائما هو أن تشيِّد جحيمًا على الأرض، يحاول الإنسان أن يجعلهُ لَهُ جنة»، ليقول إن عمل الدولة هو تحسين الظروف البشرية بمعنى أنها تساعد الفرد فى فقره، أو تمنع الشركات من الإضرار بالبيئة، وهى بهذا أداة قسرية (إكراهيَّة) ـ بشكل لا مفر منه ـ تقيّد حرية الفرد، وبالتالى فهى ـ أى الدولة ـ فاسقة «لا أخلاقية ـ immoral»[٣٠].

وأضاف ليو شتراوس بُعدا آخر لمنظور هايك عندما وضَّح فى محاضراته وكتاباته فى جامعة شيكاجو فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، أنه كان خطأ أساسيا أن ننظر بمنظور أخلاقى للنتائج السياسية وفعاليَّات «الدولة الوطنية الحديثة ـ modern nation state». فالحقبة الأولى للديمقراطية ممثلة فى الدولة الديمقراطية الحديثة تميَّزت بالميل إلى مركزة السلطة واحتكارها، وقمع من يقاومون مركزيّة السلطة من خلال احتكار

العنف، ذلك أن الدولة هى التى تمتلك الشرطة والجيش - وهى تختلف بهذا عن التكوينات السياسية التى وُجدت فى «الدولة - المدن فى اليونان القديمة ـ Greak City States». وعلى هذا فقد كان المجتمع الصالح فيما يرى شتراوس ليس نتاج سلطة الدولة؛ لأنه من المحال أن نُجبر الناس على أن يكونوا صالحين. وليس من الممكن أيضًا إيجاد مجتمع أو نظام اجتماعى لتحسين يؤدِّى إلى الخير، إلا إذا أصبح الناس أنفسهم صالحين. فالأفراد ذوو الفضل والصلاح - وليس الدولة المنظَّمة - هم المتربعون فى قلب المجتمع الصالح[٣١]. فالأفراد الصالحون يمكنهم أن يُقرروا أن يعملوا معا لإيجاد مجتمعات منضبطة أخلاقيا. فجهود الدولة لهندسة مجتمع أفضل من خلال إعادة توزيع الثروة أو تقديم خدمات لتحسين الأحوال العامة، هى - على هذا - جهود ضلَّت السبيل بشكل مزدوج. فالدولة الحديثة واسعة جدا وقَسْرية جدا بدرجة لا تجعلها قادرة على هندسة مجتمع صالح. عندها تختلس الدولة ثروات الأفراد لتفعل ما هى غير مهيّأة له، وهى بذلك تُقوِّض حرية الأفراد وأخلاقياتهم، وإحساسهم بالمسئولية، بل وتسلب الجماعات الاعتبارية والمجموعات الصغيرة حقَّها فى تحقيق مجتمع صالح لها[٣٢]. والمنطق الاقتصادى الذى ينساب من الرؤية السياسية لشتراوس المرتبطة بالفرد الفاضل، ورؤية هايك للدور «المؤذى للدولة ـ malign state» تبنَّاه ملتون فريدمان الاقتصادى ابن مدينة شيكاجو، وبسبب تأثيره تبنَّته إدارة الرئيس ريجان. فما هو مطلوب ليس إعادة توزيع الثروة وإنَّما أن تنحو نحوا «مقاوليًّا ـ entre preneurialism»، فليس من عمل الدولة أن تحسِّن أحوال الفقراء وإنما هذا هو عمل المواطنين الصالحين الذين يعرفون كيف يُجنِّبون أنفسهم الفقر وكيف يساعدون الذين يعانون منه. فما يسمَّى الآن «المحافظة الرحيمة ـ Compassionate Conservatism» الذى حل محل دولة الرفاهية، يعتبر تدخُل الدولة فى إطارها لتحقيق الرفاهية الاجتماعية تطفّلاً وتدخُّلاً فى حريات الأسر والجماعات التى هى أدرى بالطريقة التى تساعد بها نفسها. وباختصار فإنَّ الاقتصاد الليبرالى الجديد يمثل عودة إلى عقيدة اقتصاد عدم تدخل الدولة Laisse Faire فى القرن التاسع عشر، وتنازل عن فكرة أنَّ الدولة يمكنها أن تفعل ما هو صالح، فهذا أمر مشكوك فيه. والإدارات الأمريكية منذ ريجان - سواء كانت جمهورية أو ديمقراطية - راحت تخفّض إنفاق الحكومة الفيدرالية

على الرفاهية الاجتماعية والصحّة والتعليم والمشروعات العامة، بينما راحت تزيد الإنفاق الفيدرالى على الشرطة والسجون والجيش. إنّ الدور الشرعى للدولة من المنظور الليبرالى الجديد هو منع النشاط الإجرامى وتحسين الأوضاع «الأمنية» خاصة لحماية ملكيّة المواطنين وثرواتهم الخاصّة، وحماية المؤسسات المالية والاقتصادية الأمريكية سواء داخل أمريكا أو خارجها.

وكل عنصر من عناصر «الليبرالية الجديدة ـ neo Liberalism» على الصعيدين الأخلاقى والاستراتيچى، واضح بجلاء فى أحاديث وسياسات إدارة بوش. لكن بوش يضيف مكوّنًا آخر حاسما لأچندة «الإمبريالية الجديدة البارزة»، ونعنى به المزاوجة بين الخطاب الرُّؤَيوى الدينى القائم على التدبيرية الإلهية من ناحية، والعناصر الأساسية للأخلاقيات الاجتماعية للپروتستانتية الأمريكية خاصة «التراث المسيحى الواقعى الذى قال به رينهولد نيبور. لقد ذكر بوش فى خطاب التولية أنّ الأمريكيين قد اعتمدوا على الدولة اعتمادا كبيرا لتحقيق المجتمع الصالح، وهذا قلّل من المواطنين النشطين المعتمدين على أنفسهم والذين يتحلّون بالفضيلة والذين يؤدون دورهم فى الاستجابة لحاجات جيرانهم، بدلا من الاعتماد على الدولة فى تقديم هذه الحاجات لهم:

«يقع على عاتق الحكومة مسئوليات كبيرة لتحقيق الأمن العام والصحة العامة، الحقوق المدنية والمدارس المشتركة. ومع هذا فإن التعاطف هو من عمل الأمة (الشعب) وليس الحكومة فحسب».

وبصدد معارضة بوش لبرامج الرفاهية الاجتماعية و«المعاونة الطبية ـ Medicaid» ولبرنامج رصد الأموال للإجهاض، زعم بوش أنّ الله يقف إلى جانبه فى معركة الخير ضدّ الشر الذى يتصدى للأفراد النبلاء العطوفين والمواطنين النشطين باستخدام الدولة المهيمنة الفاسدة (غير الملتزمة بالأخلاق). وافتراض بوش أيضًا أن الأمريكيين فى الماضى كان لديهم تقاليد أقوى فى الخدمة والتضحية بالنفس أكثر مما هم عليه الآن فى بعض الأحيان. والتحدى الذى يواجهه الأمريكيون ـ فيما يرى ـ هو الانتقال من الهدف المعيب المتمثّل فى «خدمة النفس» إلى الدعوة الأخلاقية المتمثلة فى خدمة هدف مشترك ـ العمل ضد قوى الشر:

«أمريكا فى أفضل حالاتها هى مكان نتوقّع فيه أن يتحمل الفرد مسئوليته، ونتوقع فيه أن يحظى تحمل المسئولية بالتقدير. فتشجيع تحمل المسئولية ليس بحثا عن كبش فداء، وإنما هو دعوة لـ «إحياء الضمير». ورغم أنّ هذا يتطلب التضحية فإنه يؤدى إلى إنجاز أعمق. . . إن مصلحتنا العامة تعتمد على الطبيعة الشخصية للأفراد وعلى الواجب الحضارى وعلى تماسك الأسرة وعلى الالتزام بالأسس الصحيحة ومستلزمات المعيشة اللائقة، فكل هذا هو الذى يوجهنا إلى حريتنا».

فبوش - إذن - يعلن قصْده وهو تشجيع الأفراد والمؤسسات الدينية لتلبية حاجات الذين لا يجدون من يعينونهم والفقراء والعاطلين من الأمريكيين:

«بعض الاحتياجات وبعض الأمور المسبِّبة للضرر عميقة جدّاً لا يمكن الاستجابة لها إلا من خلال لمسات المخلصين الطيبين أو دعوات رعاة الأبرشيات، والكنائس، وتقديم الصدقات، ومن خلال المعابد اليهودية والمساجد؛ لأنها أماكن موقَّرة فى مخططاتنا وفى قوانيننا. كثيرون فى بلادنا لا يعرفون آلام الفقر لكن يمكننا أن نُصغى لأنَّات من يشكون منه. ويمكننى أن أتعهّد لأمتنا بهذا الهدف: عندما نرى مسافراً جُرِح فى الطريق إلى «أريحا» لن نتركه لنعبر إلى الناحية الأخرى من الطريق»[٣٣].

فملامح أمريكا التى يريد بوش أن يراها هى: الفضيلة الشخصية والأعمال المنطوية على رحمة وشفقة يقوم بها أفراد، والتعاطف الشخصى والصدقة بوازع دينى. والشكل الإطارى لتحقيق هذا سيكون هو مجتمع يحترم الملكية الخاصّة والحرية الفردية اللتين تقلّلان من المطالب المالية التى تفرضها الدولة على الأثرياء - لقد وَعَد بشكل خاص «بتخفيض الضرائب» فى خطابه حتى وهو يزعم أن على الأمريكيين واجب معالجة مشكلة «الفقر العميق - deep poverty» - كما وعد بتحسين روح التعاطف من خلال تقديم الصدقات، وأعمال البر، وتشجيع الجماعات الدينية، لتفعل ما تستطيع فعله أفضل من الدولة:

«حيث توجد مُعاناة، يوجد واجب. فالأمريكيون المعوزون ليسوا غرباء. إنهم مواطنون. إنَّهم ليسوا مشكلة، وإنما أولويات. وكلنا معرَّضون للضعف عندما يكون بعضنا فاقدى الأمل. ويقع على عاتق الحكومة مسئوليات كبيرة لتحقيق الأمن العام،

والصحة العامة والحقوق المدنية والمدارس المشتركة. ومع هذا فالتعاطف هو من عمل الشعب (الأمة ـ nation) وليس الحكومة فحسب».

تُظهر مقولة بوش السابق عرضها لُغزا غريبا فى «الليبرالية الجديدة ـ ne liberal» أو ما يسمّى الآن تفكير «المحافظين الجُدد ـ neo conservative» عندما يستخدم المعاناة الإنسانية لحث المواطن الصالح على العمل، بينما نجد أن الوعد بتخفيض الضرائب والإنفاق العسكرى يصب فى صالح الأثرياء والمؤسسات الأمريكية لدعْم «رسالة الحرية ـ message of freedom» فى أنحاء العالم الذى لا يزال يقاومها. فكرة بوش عن «العمل العام ـ public action» ـ مثل فكرة هايك وشتراوس ـ وهى أنه مشكوك فى نتائجه لأنه قائم على الإجبار (قسْرى)، بينما عمل الأفراد ومؤسساتهم الدينية والخيرية هو الذى يتعاطف مع المعاناة البشرية ويُحسِّن أوضاع الناس. وعلى أية حال فإن هذا التناقض يتجلَّى فى أنّه لم يختر تقليص إنفاق الدولة. بل العكس فقد أوجد أكبر عجز فى ميزانية الولايات المتحدة طوال تاريخها ـ عجزا مقداره ٣٧٤ بليون دولار وقت كتابة هذا الكتاب، وهذا العجز يرتفع بمعدل ١,٦ بليون دولار يوميا ـ من خلال المزاوجة الخيالية (الدونكيشوتية) بين تخفيض الضرائب والزيادة الكبيرة فى الميزانية العسكرية[٣٤]. هنا لا نجد دولة معتدلة (تريد قصر سلطاتها على «الحد الأدنى»)، وإنما نجد شهية مفتوحة إلى أقصى حد لأموال المواطنين ولموارد العالم، شهيةً لا حدود لها.

وما يريد أن يقوله بوش عن القيم الأمريكية والفضائل الأمريكية هو أيضًا قول «زائف» فمقولاته تَحُثُّ المجتمع على التضحية والتعاطف مع الجيران، ولكن عقودا من الأنماط السلوكية الاستهلاكية المفرطة، والولع التكنولوچى والفردية المفْرطة قد عجَّلت ـ وبعمق ـ بثقافة الفساد (الانحطاط الأخلاقى)، كما حاجج «ريتشارد ستيڤرز» بقوَّة فى كتابه «ثقافة الكلبية ـ The Culture of Cynicism»[٣٥]. إن أمريكا ـ إذا وضعنا فى اعتبارنا عدد حالات الإجهاض، وكذلك الإعدام والسجن والحجز ـ تبدو وقد اعتنقت ثقافة الموت كما تُبيّن كثير من أفلام هوليوود الأكثر تشاؤما، وكما تُبين الروايات «الرؤيوية ـ apocalyptic» «الانجذاب للموتى ـ necrophilic» لفنّانى ما بعد الحداثة.

وكما يشير مُنْتَقدو العوْلَمة، فإنَّ إيجاد سوق مفترض بغير حدود تقل فيه كثيرا الحواجز أمام الاستثمار الأمريكى والنفوذ الأمريكى، إنما هو عوْلَمة لهذه الثقافة الأمريكية ـ ثقافة الموت(٣٦). فطالما أنّ المؤسسات الأمريكية تشترى الموارد الطبيعية، والخدمات العامة، بل وحتى الماء فى أمريكا اللاتينية وما وراءها، فإن الأيديولوچيا التى يُطلق عليها «أسواق العوْلَمة (الحرة)» ينتج عنها وضعٌ يُحرم فيه الفقير من أدنى ضروريات الحياة؛ بسبب أسواق العولمة هذه. وعندما تنهار الاقتصاديات تحت ضغط الأعباء الاقتصادية التى تفرضها بنوك أمريكا ومؤسساتها؛ فلن تكون النتيجة سوى مجاعات عامة فى دول مثل الأرچنتين كانت يومًا ما دولة منضبطة وفى حالة رخاء نسبى(٣٧). وعلى وفق بيانات اليونيسيف، فإن ١٠٪ فقط من الميزانية العسكرية الأمريكية يكفى لإنقاذ الملايين من الموت، تلك الوفيات التى تحدث فى العالم كل عام نتيجة الجوع والأمراض التى يسهل علاجها. لكن الإنفاق العسكرى دعم مؤسسات الطاقة أهم بكثير فى التدخلات الأمريكية فى أسواق العالم من إنهاء المعاناة البشرية(٣٨). مرَّة أخرى نصل إلى اللغز الغريب فى خطاب بوش الذى ألقاه بمناسبة توليه الرئاسة، حيث نجده يعفى الحكومة من مسئولية دعم الفقراء، ويطلب من المواطنين الصالحين القيام بذلك، وفى نفس الوقت يخفض الضرائب على الأثرياء، ويزيد الإنفاق العسكرى ليستفيد الأثرياء والمؤسسات، ويزيد الإنفاق لنشر «رسالة الديمقراطية» بشكل قَسْرى. تبدو فكرته عن العمل «العام ـ public» منطوية ـ وبعمق ـ على الإكراه والجبر والعنف، بينما الأفراد وهيئاتهم الدينية ومشروعاتهم الخيرية ـ فقط ـ يمكن أن يكونوا متعاطفين مع المعاناة البشرية وقادرين على التخفيف من وَطْأتها.

فَصْل بوش الحاد بين القَسْر العام (الحكومى) والحرب من ناحية، والتعاطف والتقوى على المستوى الخاص (غير الحكومى) يلقى ضوءاً لا بد من إدراكه بوضوح على العلاقة بين الكنيسة والدولة، تلك العلاقة التى تُعززها إدارته. فبوش ومؤيدوه مُتّهمون بأنهم يسعون لإنهاء الفصل التقليدى بين الكنيسة والدولة. وهذا صحيح بمعنى من المعانى. فبالإضافة إلى مكتب «المبادرات القائمة على الإيمان»، فإن البيت الأبيض ـ فى عهد بوش ـ يعقد اجتماعات للصلوات ودراسة الكتاب المقدس للعاملين فيه، أكثر

مما كان يحدث فى أية إدارة سابقة، وچون أشكروفت يقيم الصلوات ويدرس الكتاب المقدس مع العاملين فى مكتبه يوميًا. وريتشارد لاند عضو مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين، هو مسئول سياسى فى قلب إدارة بوش - ريتشارد هذا منتقد للجهود الإنسانية العلمانية «لتخليص الميدان العام من وجهات النظر الدينية التقليدية»[٣٩] - ويسوق لاند الحجج ليؤكد أن الأمريكيين المسيحيين وغير المسيحيين لهم الحق فى أن نعطيهم آذانًا صاغية لنسمع وجهات نظرهم الدينية وقيمهم فى مجال السياسة العامة. ولا بد أن يكون الأطفال الأمريكيون قادرين على ممارسة قناعاتهم الدينية فى المدارس العامة[٤٠].

أيُعد هذا كله إعادة هيكلة شاملة للأخلاق فى الميدان العام؟ أو بتعبير آخر: أهذا كله إعادة لصبغ الحياة العامة بـ «الصبغة الدينية - religious remoralisation». أيُحكم الأمريكيون الآن - سواء أحبوا ذلك أم لم يحبوا - بثيوقراطية؟ حسنًا، من الواضح أن بوش والمسيحيين فى الفريق العامل معه لا يرون أنفسهم ثيوقراطيين. يقول ريتشارد لاند: إن هناك فرقًا واضحًا بين أفراد يعملون لتنظيمات بها نظام الاعتراف للكاهن أو يتحدثون باسمها، وأفراد يُسيِّرون الأعمال العامة. فالمشروع إذن ليس «تمسيح - Christianize» الدولة وإنما هو تقليص نفوذها على الحياة «الخاصة» للأمريكيين، مما يؤدى إلى تقوية الأمريكيين وأسرهم وتجمعاتهم الدينية لاستعادة روح التعاطف والخدمة الاجتماعية الأخلاقية، حتى لا تُصبح قَصْرا على الدولة التى يؤدى ما تنفذه من برامج صحية وبرامج مرتبطة بالرفاهية الاجتماعية إلى زيادة روح التواكل والعجز، أكثر مما يؤدى إلى خلق مواطنين صالحين. وإدارة بوش فى نقدها للثقافة الأمريكية العامة والخدمات العامة على أنها تميل لإضعاف أخلاقيات، بل وتفسد المواطنين، لم تكشف - فقط - حماسها الدينى لاقتصاد الليبرالية الجديدة، وإنما أيضًا تأثير ما قبل الألفية عليها، مثلما أسرت ما قبل الألفية قطاعًا كبيرًا من المسيحيين الأمريكيين المحافظين.

هذا التناقض بين وضع بوش والمحافظين الجدد، وهو جَعْل الأولوية للحرية الفردية والملكية الخاصة، والفضائل الشخصية وتقديمها على الجهود الديمقراطية والجماعية لتحقيق العدالة الاجتماعية، «الصالح العام - common good» هو وضع لا يمكن وصفه - بلا جدال - بأنه تقليدى أو محافظ، أو ترويج لمجتمع يتحلَّى أفراده بالفضيلة والقدرة على أعمال البر والإحسان. بل حتى لا يمكن وصفه بأنه محافظ؛ لأن الأفكار

الجمهورية المحافظة الحقيقية كما قال بها بورك وچيفرسون تضمّنت فهما للسلوك الخيِّر كما تقضى به واجبات النبالة ـ ولدعاوى الصالح العام التى يراعيها الأثرياء . كما رأينا ، فإنه فى ظل عقيدة الرأسمالية النيوليبرالية تراجع الأثرياء إلى مجتمعاتهم الضيقة الموصدة الأبواب ، لا يكادون يقابلون الفقراء المجاورين لهم ولا يكادون يزورون مواقع العمل التابعة للشركة . وقد جرى تشجيع المحسنين الأثرياء بتخفيض الضرائب عليهم ، هذا التخفيض عادة ما تُوجهه مؤسسات المجتمع الأمريكى الكبرى إلى الجامعات و«مراكز الأبحاث ـ think-tanks» التى تتعلم فيها ـ وتتجمع ـ «الصفوف الأعلى» ، أكثر من أن توجهه إلى الأحياء والمناطق الفقيرة .

هنا نجد واحدًا من الألغاز المحيرة فى اتساع نفوذ «اليمين المسيحى» على الاقتصاد السياسى الأمريكى ، الذى به يعتبر انتخاب بوش مجرد أحدث حلقة فى سلسلة أحداث يمكن تتبّعها قبل ذلك إلى فترة حكم ريجان ، لقد ربح بوش والمحافظون الجدد المداهنة من أصوات الجمهوريين المسيحيين المحافظين لتحرير شركاتهم ومؤسساتهم وأثريائهم من الأعباء الضريبية ، ولسحب الصفقة الجديدة لدولة الرفاهية ، ولمعاقبة الأسر ذات الوالد الواحد(*) والعاطلين ، وغيرهم من الكسالى الخاملين ، بإنقاص الدَّعم المقدم للرفاهية الاجتماعية وغير ذلك من العقوبات . لقد طرق كلينتون وجور الطريق نفسه ، لكنهما لم يكسبا أصوات المسيحيين المحافظين ؛ لأنهما لم يلتزما بجوهر قضايا المسيحية المحافظة ، مثل قضايا الإجهاض والأخلاق الجنسية وإسرائيل . وأيا من كان هو الذى سيخلف بوش سواء فى ٢٠٠٤ أو ٢٠٠٨ ، ديمقراطيًا كان أم جمهوريًا ، فإن عليه أن يسلك الطريق نفسه ، فإن حدث هذا فهو مجرد مؤشّر آخر لقوى تحالف «اليمين الدينى ـ religious right» مع اقتصاديات الليبرالية الجديدة ، والتى تكونت حول ما يسميه چوزيف ستيجلتس «إجماع واشنطن ـ Washington Consensus»[٤١] . لكن السؤال هو ما إذا كانت «المحافظة العاطفية ـ passionate conservatism» ـ كما يعتقد بوش ومؤيدوه المسيحيون المحافظون ـ حقيقة تمثل ابتعادًا عن «الإنسانية العلمانية ـ secular humanism» فى السياسات الأمريكية؟ إنها تبدو للعمال الأمريكيين والفقراء ولضحايا «إجماع واشنطن» عبر البحار ، تشبه كثيرًا التأكيد

(*) التى ينفصل فيها الوالدان ، أو التى تنشأ ـ من الأصل ـ بدون زواج ـ المترجم .

من جديد على السلطة العلمانية لرأس المال والمؤسسات المتحررة على العمال والمواطنين العاديين، حتى وإن لبست العباءة السَّامية للحرب الصليبية الرؤيوية والتقوى والفضيلة.

***

استدعاء الرؤيا

رأينا إلى أى مدى كان التحول المشئوم للفكر الاجتماعى والسياسى الأمريكى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وازى التحول الرؤيوى الأمريكى واللاهوت الألفى من الفكر المتفائل لما بعد الألفية، والذى قال به جوناثان إدواردز أو «حركة الإنجيل الاجتماعى ـ Social Gospel» إلى فكر ما قبل الألفية القائل بنهاية العالم، والذى أخذ به دربى وليندساى و«الأغلبية الأخلاقية ـ Moral Majority»(*) . وهنا يظهر سؤال، أثَّمة علاقة بين هذا التحوُّل المتوازى فى الثقافتين الاقتصادية والدينية؟ إنّ الرّابط الواضح بين كلّ من النظرية السياسية الليبرالية الجديدة (أو ما تسمى الآن نظرية المحافظين الجدد) من ناحية، واللاهوت ما قبل الألفى، هو فى التشاؤم فيما يتعلق بإمكانية وجود أمريكا أخلاقية، أو عالم أفضل. كلاهما اعتبر الحلم بأمريكا «الصالحة»، أو أمريكا «مدينة فوق التل» قد فشل. وكلاهما أيضًا ينظر للقوة الأمريكية على نحو أكثر من خلال مصطلحات المصالح الذاتية وليس من خلال التعاون العَوْلمى. بل إن بوش قد حاول زيادة التعريفة على الواردات، كالحديد القادم من أوروبا لحماية الصناعة فى داخل أمريكا مع أنها ـ ملتزمة باتفاقية «التجارة الحرة» مع منظمة التجارة العالمية WTO .

وقد جنَّبت إدارة بوش الأمم المتحدة فيما يتعلق بسياستها فى الضربات الإجهاضية (الاستباقية)، وعارضت التعاون الدولى فى أمور مثل معالجة التغيرات المناخية، والحد من التسلّح. لقد كان تعاملها مع قضية الحد من التسلح ممثلا فى التهديد بغزو بعض الدول التى تشك فى أنَّها تمتلك أو فى سبيلها لامتلاك أسلحة دمار شامل، بينما راحت أمريكا تخزن مثل هذه الأسلحة لتبيعها لحلفائها الحاليين رغم أن هؤلاء الحلفاء ـ بطبيعة

(*) أسسها چيرى فالويل ـ المترجم.

الحال - قد ينقلبون فى المستقبل ضد أمريكا ويتوقَّفون عن خدمة مصالحها، كما حدث مع صَدَّام حسين.

والقائلون بـ «التدبيرية الإلهية» مثلهم مثل بوش نزّاعون لانتقاد تجمعات الأمم انتقادا عميقا، خاصة الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى، فهم يرون مثل هذه التجمعات دليلاً على نهاية الزمان وأنها حكومة عالمية خبيثة ستؤدى فى النهاية إلى دعوة عدو المسيح لرئاستها. وفيما يرى القائلون بالتدبيرية الإلهية - وكذلك بوش - فإن قوة أمريكا تكون فى أفضل حالاتها عندما تُستخدم من طرف واحد؛ لأن لها دوراً فريداً عليها أن تلعبه فى نهاية الزمان، وهو أن تجعل الشرق الأوسط آمنا بالنسبة لإسرائيل، وأن تهيؤ الظروف تجعل المنتصر يأخذ كل شىء والتى سينتهى فيها التاريخ.

يوجد هنا تعاون خادع بين نوع المنظور الفردى فى التاريخ الرؤيوى الذى يرى نهاية التاريخ مسألة قدريّة محتومة، لا بد أن تسبقها الحروب والتهديدات بالحروب. وفهم المجتمع مُداراً بشكل أفضل لا من خلال حكومة أخلاقية، وملتزمة بتحقيق أهداف بعينها، وإنما من خلال يد السوق - غير المرئية - التى تربط بين المشترين ومقدِّمى البضائع والخدمات وتتوسط بين الطرفين. وبالنسبة للقائلين بالفكر قبل الألفى، فإن الأفراد الصالحين سيُنزعون بشكل غامض ومفاجئ من أسرّتهم أو أماكن أعمالهم بيد القُدرة الإلهية، وبذا يتم إنقاذهم من الحريق القادم - وهو حريق هائل ناتج عن معركة هرماجدون عندما يتم «الاختطاف - Rapture». وفيما يقول المؤمنون بالسوق الحر، فإن الأفراد سيتم «تخليصهم» عن طريق أيدى قوى السوق غير المرئية ولا يستطيع أى عمل جماعى أن يؤثر بشكل حاسم فى أقدارهم، فى الحالتين.

فى ضوء التأثيرين المزدوجين لهذين النوعين من القَدَريّة (المحتومة)، قدرية القائلين بالتدبيرية الإلهية وأيديولوچية السوق «الحرّة» - التى هى فى الحقيقة سوق مهيأة لتعظيم قوى المؤسسات على حساب المواطنين داخل الولايات المتحدة وخارجها - يمكن فهم ازدياد وحشية تأكيد المصالح الذاتية الأمريكية فى كل قارات العالم فى السنوات القليلة الماضية. لقد راحت نخبة المؤسسات الأمريكية ترى نفسها - بشكل متزايد - مرتبطة بحرب كوكبيّة لاستمرار رخائها ومواصلة طريقتها فى الحياة، ولتوجيه كل التاريخ البشرى لصالح أمريكا. فى هذه الحرب لا قيود ولا موانع ولا شىء يستحيل التفكير فيه

حتى استخدام السلاح النووى. فالولايات المتحدة تحت حكم بوش لم تُحَوِّل ـ فقط ـ ميزانيتها العسكرية الضخمة نحو «برنامج حرب النجوم الجديد ـ anti-ballastic missile system»، وإنما بدأت أيضًا فى إنفاق مبالغ طائلة فى تطوير جيل جديد يمكن استخدامه من الأسلحة النووية الميدانية(٤٢).

أعماق هذا الجانب المظلم من الفكر الجديد اللاأخلاقى للقوة الاجتماعية ـ خاصة الأمريكية ـ الممثّل فى أنَّ تعاون هاتين الأيديولوچيتين الآنف ذكرهما فى إدارة بوش، إنما هو فى الواقع أعماق بعيدة الغور، وإدارة بوش تمنع بكل ما فى وسعها تحقيقات الكونجرس ووسائل الإعلام من الكشف عن أبعاد هذه الظُّلمة، أو إلقاء الضوء عليها. وتشتمل هذه الظلمة على الأحداث المحيطة بالوقائع المأسويّة للحادى عشر من سپتمبر. فكما رأينا فإن الـ «PNAC» كان قد ساق الحجج لعدَّة سنوات ليؤكد احتياج الولايات المتحدة الطارئ والملح لزيادة إنفاقها العسكرى بشكل كبير لضمان أمنها الاقتصادى والعسكرى؛ لتتمكّن من التحرّك ضد الأخطار المحتملة، ولاستخدام القوات المسلحة لتوسيع نطاق المصالح الأمريكية فى المناطق الغنية بالبترول فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

لقد خطا «برزينسكى» خطوات للأمام فى سنة ١٩٩٧م بفرض الديمقراطية على النمط الأمريكى بالقوة وفرض حكومات خاصة تابعة فى آسيا الوسطى، وقد كان برزينسكى مستشارًا للأمن القومى فى إدارة كارتر، وقد افترض أنه من **«الضروريات الأساسية للسياسة الإمپريالية الأمريكية هى منع التآمر أو التواطؤ، واستمرار اعتماد «المقْطَعين(*) ـ Vassals» على الولايات المتحدة فى الأمور الأمنية، ليكونوا خانعين مطيعين ومحميِّين، ومنع البرابرة (غير المتحضِّرين) من التكتل معا،** وفى سياق آسيا الوسطى فإن هذا يعنى تأكيد تفوق الوجود الأمريكى عسكريًا فى المنطقة(٤٣). ويلاحظ

(*) المُقْطَع: شخص يقطع له الإقطاعى أرضًا، مقابل أن يتعهد هذا الشخص بتقديم العون العسكرى للإقطاعى وقت اللزوم، وبالطبع يقوم الإقطاعى، أو الولايات المتحدة، بتقديم السلاح لهذا «المُقْطع»، ويدربه على استخدام السلاح للسيطرة على الأرض، وهو هنا الشعب، تحت مسمى التعاون العسكرى، ويقوم بعمل كل الخدمات والتسهيلات للمؤسسات الأمريكية لترى مصالحها فى أسواق ذلك الشعب وعمله وأعماله، تحت مسمى الإصلاح الاقتصادى. ولناعوم تشومسكى تسمية أخرى لذلك المُقْطَع: «مفوض، أو قومسيونجى ـcommissioner» ـ المترجم.

برزينسكى أنّ حشد الدَّعم العام لعسكرة الاستراتيچية الأمريكية الچيوپوليتيكية المطلوبة فى هذه المنطقة النائية سيكون صعبًا جدًا لأنه يشمل تحولاً هائلاً فى أولويات البنتاجون ووزارة الخارجية وغيرهما من أجهزة الحكومة الأمريكية. وما يذكره برزينسكى يذكّرنا باستراتيچية الإمبراطورية الرومانية، إذ يقول عالم الاقتصاد السياسى النمساوى «چوزيف شمپتر»:

«لم يكن هناك ركن فى العالم المعروف يحوى شيئًا من المصالح إلا وهو معرّض للخطر أو الهجوم الفعلى. وإذا لم تكن المصالح رومانية، فهناك حلفاء روما، وإذا لم يكن لروما حلفاء فلا بد من إيجادهم. وعندما يستحيل ابتداع مثل هذه المصالح (إيجادها)، أصبح الشرف الوطنى (والمقصود الشرف الإمبراطورى) مهانًا. لقد كانت الحرب دائمًا تُستثمر فى جو مليء بعبير الشرعية. فقد كانت روما دائمًا يهاجمها جيرانها الأشرار، وكانت تحارب دائمًا من أجل مساحة تتنفّس فيها. العالم كله تنتشر فيه جموع الأعداء ومن واجب روما ـ كما هو واضح ـ أن تحرس نفسها من خططهم العدوانية التى لا تتغير»[٤٤].

هذه النظرة للعالم واضحة وضوحًا شديدًا فى خطاب إدارة بوش وفى عسكرة الاستراتيچية الچيوپوليتيكية لأمريكا، تلك الاستراتيچية التى أوصى بها الـ «PNAC» أولا. لكن المشكلة بالنسبة لإدارة بوش كانت هى كيفية إضفاء نوع من الشرعية على مثل هذه الاستراتيچية. كان الـ «PNAC» قد اقترح أن المطلوب كان هو «پيرل هاربر جديدة» أو بتعبير آخر هجوم من نوع ما على الأرض الأمريكية. وأتت پيرل هاربر الأخرى على شكل هجمات إرهابية، ، فكانت فرصة سعيدة لإدارة كانت تبحث حتى تلك اللحظة عن الشرعية، لم يكن لديها إلا فرصة قليلة لتتابع علنًا الچيوپوليتيكية الطموحة. لكن بعد ١١ سپتمبر تغير كل شىء، على أية حال.

لا يمكن أن يكون ثمّة شك فى أن الكثير قد تغير بمعنى من المعانى فى ذلك اليوم، لكن الخطط الچيوپوليتيكية لإدارة بوش لم تتغير فى اليوم نفسه (١١ سپتمبر)، لكنها ببساطة انتقلت من مجرد رغبات إلى برنامج نشط فى ظل حماية برنامج «الحرب على الإرهاب» الذى أعلنه بوش بسرعة. وخطَتْ إدارة بوش فى غضون أيام بعد الهجوم خطوات للأمام لتمكينها من شرعية قمع مقاومة مشروعها فى الداخل بإصدارها

«الپاتريوت آكت ـ Patriot Act» المتسم بالقسوة الشديدة، وتطويرها لمتابعة برنامجها للضربات الاستباقية ضد أى دولة أو إقليم فى العالم يُكن عداءً للولايات المتحدة. فرصة قمع معارضة السيطرة الچيوپوليتيكية والإمبراطورية للولايات المتحدة كانت قد حانت فى الوقت المناسب تمامًا، فقبل أحداث ١١ سپتمبر بأسابيع تجمّع آلاف المتظاهرين فى چنوة لتحدّى شرعية المؤسسات التى تُحكم أمريكا قبضتها الاقتصادية والإمپريالية من خلالها على العالم: صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية. وعلى النحو نفسه فقد كانت أهداف أمريكا فى أفغانستان قبل ١١ سپتمبر صعبة التحقيق، لكن بعد ذلك تقدَّم ـ بسرعة ـ غزو أفغانستان واحتلالها تحت ستار «الحرب على الإرهاب» رغم عدم القبض على أسامة بن لادن، ورغم أنَّ معظم معاونيه لم يكونوا من أفغانستان، وإنما من المملكة العربية السعودية.

مُزَامَنَة أحداث ١١ سپتمبر والحاجة لأزمة أمنية كبرى لتمكين إدارة بوش من تحقيق الغرض الچيوپوليتيكى يجعل مثل هذا السؤال ملحًا إلحاحًا شديداً: إلى أى مدى عرفت إدارة بوش عن إمكانية الهجمات على نيويورك وواشنطون قبل حدوثها بالفعل؟ وهل كان من الممكن منعها أم لا؟ لقد كانت المخابرات الأمريكية ومؤسسات الطيران المدنى تعرف منذ سنة ١٩٩٥م أن «بن لادن» والقاعدة ينوون الاصطدام بطائرات مختطفة بمركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومواقع أخرى ذات أهمية استراتيچية فى الولايات المتحدة. وفى عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١م وردت معلومات تفيد أن الخطة الآنف ذكرها على وشك النضوج، وترددت هذه المعلومات فى تقارير المخابرات الأمريكية المقدمة للبيت الأبيض فى عهدى كلينتون وچورچ دبليو. بوش، وكان لدى مكتب التحقيقات الفيدرالى تحذيرات من عدد من عملائه فى عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١م أن العرب الذين يدرسون فى مدارس الطيران فى «فلوريدا» و«فونكس» وأماكن أخرى يبدون أكثر اهتمامًا بتعلُّم توجيه الطائرات فى الجو أكثر من اهتمامهم بالإقلاع بها أو الهبوط بها. وتلقت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية تحذيرات من هجوم مشابه فى سنة ٢٠٠١م، وحُذّرت كل وكالات الأمن الأمريكية من هجوم وشيك تشنه القاعدة فى الأسابيع السابقة على هجوم ١١ سپتمبر. وأكثر من هذا فإن وكالة المخابرات الأمريكية كانت تراقب بإحكام المكالمات التليفونية وخلايا القاعدة

داخل الولايات المتحدة وخارجها وتفيد أخبار ABC ـ على نحو خاص ـ أنهم سجلوا عدداً كبيراً من المناقشات التليفونية بين الخاطفين فى الولايات المتحدة وأبى زبيدة قائد عمليات «بن لادن» فى الأيام التى سبقت مباشرة هجوم ١١ سبتمبر، رغم أن محتوى هذه المكالمات لم يُعلن أبداً[٤٥]. لقد كان الشك فى إمكانية حدوث هجوم قوياً جداً؛ لدرجة أن عدداً من المسئولين فى البنتاجون ألغوا حجوزاتهم للسفر بالطائرات فى ١١ سبتمبر، وذلك على حد ما ورد فى تقرير نشرته النيوزويك[٤٦].

فشل المخابرات الأمريكية فى توجيه تحذير مسبّق للأمريكيين بشأن إمكانية حدوث هجمات ١١ سبتمبر جرى شرحه وفق سيناريوهات مختلفة: الفشل فى الربط بين تقارير مدارس تعليم االطيران لسلطات المخابرات المركزية ومعناها الحقيقى، افتقاد التنسيق بين وكالة المخابرات CIA ومكتب التحقيقات الفيدرالى FBI. فشل الاتصالات بين وكالات المخابرات وأجهزتها وهيئة الطيران المدنى والبيت الأبيض. ولم تكن إدارة بوش حريصة على إلقاء الضوء على هذه الأمور، بل لقد عملت بقوّة وبسرعة بعد ١١ سبتمبر على منع أى من الوثائق والمحادثات التليفونية والتقارير الاستخباراتية والمعلومات الأخرى التى تلقاها البيت الأبيض من مصادر استخباراتية فى الشهور والأسابيع السابقة على أحداث ١١ سبتمبر ـ منعها من أن تُعرض على بساط البحث فى الكونجرس عند مناقشة أحداث هذا اليوم (١١ سبتمبر)، رغم أنه قد نشر فى مارس سنة ٢٠٠٤ تقرير رئاسى صادر فى أغسطس ٢٠٠١ يشير إلى إمكانية أن يكون هجوم ١١ سبتمبر من تدبير تنظيم القاعدة، ولم يتم نشر هذا التقرير الرياسى إلا بضغط من الكونجرس، ووقّع بوش أيضاً أمراً رياسيّاً غير مسبوق بمنع الاطلاع على أية وثائق رئاسية لأى رئيس أمريكى طالما هو على قيد الحياة.

ماذا كانت إدارة بوش تعرف قبل ١١ سبتمبر ولا نعرفه نحن؟ ما المعلومات التى تفرّدت بها عنا ـ سواء قلّت هذه المعلومات أم كثُرت؟

ما نعرفه هو أنه فى الأيام السابقة على هجمات ١١ سبتمبر، كانت هناك خطة عاجلة لغزو أفغانستان واحتلالها، وخطة متوسطة المدى لغزو العراق واحتلاله. لقد كانت كلتا الخطتين جاهزة وفى أدراج أعضاء الإدارة. وكان لديهم أيضاً خطط لمد الوجود العسكرى الأمريكى فى آسيا الوسطى؛ لتقديم الدعم للمؤسسات الأمريكية فى

مخططاتها بشأن المخزون النفطى الكبير فى منطقة بحر قزوين. كل هذه الخطط بدأت توضع موضع التنفيذ، وتُؤتى ثمارها فى غضون الشهور والأعوام التى تلت أحداث ١١ سپتمبر تحت مظلّة «الحرب على الإرهاب».

مبدأ «الحرب على الإرهاب» أكبر بكثير من أن يكون عملاً سياسيّا تقليديّا ضد أفراد بعينهم، أو مجموعات بعينها خططوا ونفذوا هجمات إرهابية على الساحل الأمريكى الشرقى. وإنما هو عمل تكمن خلفه استراتيچية چيوپوليتيكية خُطِّط لها منذ فترة طويلة، لإرساء سيادة عسكرية أمريكية فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، والحقيقة أنَّ الحرب فى أفغانستان والعراق قد شهدت تأسيس عدد من القواعد الأمريكية العسكرية الجديدة فى جمهوريات الاتحاد السوڤييتى السابق مثل: كازاخستان وطاچيكستان. **فقد ارتبطت الحرب على الإرهاب بمعركة هدفها قمع مقاومة القوة الإمبراطورية الأمريكية على الصعيدين الداخلى والخارجى.** فقد سمح غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، بوصفهما جزءا من عمليْن يتستران بشرعية الحرب على الإرهاب - سمح هذا للولايات المتحدة ومؤسساتها بموارد آمنة ولفترة طويلة لاستغلال المخزون البترولى فى العراق ومخزون بحر قزوين المكتشف حديثًا. وعلى أية حال فإن الحرب ليست بالتأكيد بسبب البترول فقط، فهناك استراتيچية چيوپوليتيكية إمپريالية أبعد مدى بكثير تكمن وراء «الحرب على الإرهاب» والأحداث التى أدّت إليه. **فكما يقول الچنرال باسيڤتش فإن الحرب على الإرهاب: «صراع يجرى خوضه باسم «الإمبراطورية الأمريكية» لتحقيق قدرها بوصفها أورشليم الجديدة، فالولايات المتحدة أصبحت هى «القدس الجديدة» أكثر من أىّ وقت مضى وهى مهيّأة لبسط سلطانها ومدّه بوصفها «روما الجديدة - New Rome»**(٤٧).

***

العنف المقدّس
وعبادة الحرية الإمپريالية

تحتاج الإمبراطوريات للتضحية بأرواح البشر، وكان هذا معروفًا جيداً لأولئك الذين شنوا حروب الفتوح والغزوات خلال التاريخ. والسلطة الإمبراطورية هى أكثر

أدوات الهلاك على الإطلاق من بين كل الترتيبات الإنسانية السياسية والاقتصادية، بل إنه خلال التاريخ وجدنا الأباطرة والإمبراطوريات قد قاموا ليسيطروا على مناطق شاسعة من الأرض وعلى رعايا كثيرين جداً من الشعوب؛ التى تم إخضاعها: بابل وفارس وروما وإسپانيا والبرتغال وبريطانيا وفرنسا وبلچيكا وهولندا وألمانيا واليابان والاتحاد السوڤيتى والصين والولايات المتحدة، والقائمة طويلة، وأعداد ضحايا الإمبراطوريات ـ وفق روايات الكتاب المقدس ـ لا يدخلون تحت حصر، فهم بعدد مثل حبات رمال شاطئ البحر. **وهذه الإمبراطوريات غالبًا ما أفرخت دياناتها، وذلك لإضفاء الشرعية على تضحياتها العنيفة، ولإضفاء القدسية على قتلاها. والعبادة التى تخدم ـ غالبًا ـ هذا الغرض فى أمريكا هى «الدين المدنى ـ civil religion» وهذا الدين مرتبط بالفكر «الألفى الأمريكى American millennialism» قد أدى خدمة فعّالة لإضفاء القدسية على «الحرب على الإرهاب» وعلى الأچندة الأوسع للمحافظين الجدد.**

وربما كان چان چاك روسّو هو الذى أصَّل فكرة الدين المدنى عندما اقترح فى (العقْد الاجتماعى) «وممارسة إيمان مدنى خالص تحدده السيادة، ليس بالضرورة عقائد دينية وإنما التزامات اجتماعية لا يكون الإنسان بدونها مواطنًا صالحًا أو مواطنًا مؤمنًا»(٤٨). ومثل هذا الإيمان لا ينافس الأديان الأخرى بل الأقرب للمعنى أنه يقوم على التسامح مع كل الأديان «طالما أن عقائد هذه الأديان لا تحوى ما يناقض واجبات المواطنة». دين مدنى من هذا النوع رأى فيه روسّو وكذلك إميل دوركايم نوعا من «الرابط الاجتماعى القوى ـ social cement» للجمهورية الحديثة؛ لأنه يقدِّم محورًا «طقوسيًا» لربط المواطن بالمجتمع الجديد.

وقد اعتنقت أمريكا أفكار روسّو بحماس، فبينما يُفترض أن الأطفال فى المدارس الأمريكية الحكومية لا يشاركون فى صلوات عامة، فإنهم يشتركون يوميًا فى «طقوس» وطنية أمام العَلَم الأمريكى؛ حيث يُقسمون على ولائهم للقيم الأمريكية. وعلى النحو نفسه فإن الراغبين فى المواطنة الأمريكية لا بد أن يُحيوا العلم وأن يعترفوا أن لديهم من القيم والمعتقدات التى تؤهل الشخص أن يكون أمريكيًا. فكما يُدلل روبرت بله فإن الأمريكيين قد طوّروا ـ من خلال تاريخهم ـ «مجموعة من العقائد والرموز والطقوس

مرتبطة بأمور مقدّسة تحولت إلى شكل مؤسَّسى» فارتقت إلى مستوى الدين المدنى:

«للدين الأمريكى المدنى أنبياؤه، وشهداؤه، وأحداثه وأماكنه المقدسة، وطقوسه الوقورة ورموزه المحترمة. إنه مهتم بأن تكون أمريكا مجتمعا يتحلَّى بالكمال طبقًا لله، ليكون نبراسًا تحتذيه كل الأمم»(٤٩).

فالدين المدنى الأمريكى يعنى دين أمريكا، وفى بؤرة هذا الدين توجد «الطقوس» الخاصة بالعَلَم الأمريكى. يحاجج كلٌّ من داڤيد إنجل وكارولين مارڤن على أن العَلَم هو «وثن ـ totem» بدائى يقع فى قلب نظام قُربانى مقدَّس يربط المواطنين الأمريكيين معًا ليجعل منهم أمة. فإذا أخذنا بنظرية دوركايم الطَّوْطمية هذه «فإن العَلَم يكون شعاراً دالا على موافقة من يستظلون بظله أن يكونوا مجموعة»(٥٠). لقد أصبح العَلَم ذا دلالة سحرية ومقدسة، من جراء المحاولات القانونية بتحريم حرقه، وبالطقوس التى يُطلب من الأطفال أداؤها كتحية العلم فى المدرسة فى تنظيمات منضبطة وفى المعسكرات، وبوضعه فى المذابح فى كثير من الكنائس وكذلك فى كل مبانى الحكومة ومحاكمها، والأهم هو استخدامه فى لف توابيت قتلى الحروب، بالإضافة إلى الطقس القاضى بتقديمه لشريك [زوجة] الضحية أو والديه تذكاراً «طوطميًا». فالنظام ذو الطابع التَّضْحوى المقدس الذى يُعد فيه العَلَم طوطما، هو عَقْدٌ يُعقد «باستمرار فى الحياة الوطنية وفى الطقوس الوطنية»، بدءاً من تحية العَلَم يوميًا إلى استخدامه فى ظروف خاصة، كالمعارك الانتخابية الرئاسية، حيث يلوّح جماهير المؤيدين بالأعلام وصور الأعلام، واستخدام الأعلام الأمريكية فى الحروب. لكن بينما نجد أن بنية الحياة «الأسطورية» للأمة والتى تساندها الطقوس المرتبطة بالعَلَم، شائعة بين الأمريكيين، فإن السرّ الذى يخفيه الطوطم هو أن «التضحية بالدم تحفظ الأمّة. لا تُحسب تضحية أعدائنا. سرّ الطوطم ـ المقدس «taboo» الجَمْعى للمجموعة ـ هو معرفة أن المجتمع يعتمد على موت المنتمين إليه»(٥١).

وجود دين أمريكى وما يتطلبه من أن يُقدم الأمريكيون أبناءهم فى حروبها العديدة والمنتظمة، قد عُمِّى عليه بميثولوچيا «الفردية الأمريكية» كما أن التعريف الميثولوچى لأمريكا واضح، فإن الفردية تتخفّى متقنّعة بالمتطلبات الجمعيّة للتضحية البشرية

بتعريف ضحايا أعمال العنف بأنهم «أبطال ضحّوا بأنفسهم»، اختاروا بملء إرادتهم أن يخاطروا بحياتهم ببطولة والتزام بالفضيلة لصالح القضية النبيلة لأمريكا[٥٢]. فـ«المقدس ـ taboo» الذى يخدمه استمرار أسطورة الفردية الأمريكية، هو الحاجة الطوطمية للعنف؛ لأنه (أى العنف) موجود فى قلب الوطنية الأمريكية.

ويحاجج الأنثروبولوچى رينيه چيرارد على أنَّ التضحية العنيفة كامنة فى صلب كل النظم الطقوسية؛ وذلك لأن طقوسًا منطوية على عناصر تضحويّة هى وسائل تستخدمها المجتمعات لاحتواء التنافس، ومنع القتل والعنف خارج الصيغة الطقوسية والشرعية. والفرد الذى يُختار كضحيّة هو كبش فداء فى واقع الأمر ـ كبش فداء يَفْدى المجتمع. فكى نتعامل مع الأزمات التى يبدو أنها تهدد هُويّة المجتمع: المرض، الكوارث المناخية، التنافس بين الأقرباء أو بين أفراد المجموعة، فى كل هذه الأحوال يُحمّل كبش الفداء بأعباء وتهديدات وعيوب فى خبرات المجموعة، فيتم اضطهاده أو طرده أو إلحاق العار به أو قتله[٥٣]. وبطبيعة الحال فا الأمريكيين الحديثين لا يرون أنفسهم ـ بوعى منهم ـ أنهم يعيشون نظامًا مقدسً ضحية. فـ«التضحية بالدم ـ blood sacrifice» تعتبر ملمحًا من ملامح المجتمعات البدائية، على سبيل المثال «مجتمعات الهنود الحمر» أكثر مما هو ملمح مجتمع أمريكا المتنوّر المتقدّم. لكن چيرارد وجد أنَّ محاكاة العنف، وكبش الفداء، والتضحية، موجودة فى كل المجتمعات تقريبًا، بما فى ذلك الحديثة. وهو يحاجج على أن المزاوجة الحديثة بين التضحية الطقوسية والعلم والتكنولوچيا قد أصبحت أكثر خطورة بكثير من التضحية البدائية؛ لأن تكنولوچيا القتل الجماعى تهدد البشرية ليس بسبب حوادث القتل الطقوسى للأفراد فى مناسبات مختلفة، وإنما هى تهدد بالإبادة الكاملة[٥٤]. وعندما تحدَّث كل من مارڤن وإنجل عن «التضحية بالدم ـ blood sarifice» فى أمريكا، اعترفا بأنهما مدينان لچيرارد عندما افترضا أن تكون «التضحية الجمعيّة» مرتبطة بالعَلَم الأمريكى، وأن هذا الارتباط يكون أساس «الهوية الوطنية الأمريكية ـ American national identity». إنهما يُطابقان بين العلاقة الغامضة للأديان الطائفية لأمريكا بنظام التضحية الجمعية الذى أشرنا إليه. فمن الناحية الرسمية تعطى الولايات المتحدة الحرية لكل المجموعات الدينية بوصفها «طوائف ـ denominations» أو «جماعات ـ sects» وتبدو

هذه الحرية مشيرة إلى عدم وجود احتكار دينى فى أمريكا. لكن هذا غير صحيح ويدعو للسخرية؛ لأننا بينما نجد «الطائفية» تتخلّى عن الزعم بحقها فى الاحتكار الدينى للدولة، فإنها تساند حقيقة كون الدولة فى أمريكا هى - بالفعل - «إله - the deity»الدين المدنى الأمريكى؛ لأنّ الدولة وحدها - وليس «الإله - deity» - هى القادرة على طلب التضحية. فالدولة - وليس الطائفة - هى التى تملك احتكار العنف والقتل: «المبدأ الأساسى لأى نظام دينى هو أن الإله وحده هو الذى قد يَقْتُل، والدولة التى تقتل. والدولة التى تمارس القتل، تسمح لأىّ كان ممن يقبل هذه الشروط بالبقاء، وبمتابعة ممارسة معتقداتهم وليسمّوا أنفسهم بما شاءوا من المسميات. وبمعنى أشمل فإن هدف الدين هو تنظيم «طاقة القتل - killing energy» هذا يبين كيفية إنجاز الدين الأمريكى لوظيفته الاجتماعية فى تحديد المجموعة وتنظيمها. على هذا المستوى، فالوطنية - بلا جدال - هى أقوى الأديان فى الولايات المتحدة[٥٥].

بينما نجد أنه من المحرَّم الاعتراف بأن التضحية بالدم، هو المبدأ المُنظم فى الولايات المتحدة، فإنه مُتضمَّن بوضوح فى التعبئة الواسعة النشطة باستخدام العَلَم فى المؤسسات العسكرية وفى الطقوس العسكرية بما فى ذلك طقوس الموت المعقَّدة، التى تصاحب عودة رُفاة قتلى الحرب الأمريكيين إلى أرض الولايات المتحدة، وقد لُفّت أجسادهم بالعلم الأمريكى بنجومه وخطوطه، إشارة إلى أن القتلى قد ضحّوا بدمائهم.

ليس من مثال أكثر وضوحًا على المدى الذى وصل إليه العَلَم الأمريكى كرمز متعال فى قلب العبادة التَّضْحويّة الأمريكية للوطنية من هذا العرض الكاسح للعَلَم الأمريكى عند اندلاع مسيرات حق الانتماء للوطن عبر أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر. وعلى هذا راح أناس كثيرون يعرضون الأعلام الأمريكية بنجومها وخطوطها خارج بيوتهم، ومن لم يفعل ذلك اتهمهم جيرانهم وأصدقاؤهم بنقص فى وطنيتهم، ووضع الأمريكيون على سياراتهم ومعاطفهم نماذج مصغرة من الأعلام الأمريكية، وبدأ چورچ بوش والفريق العامل معه فى وضع بادچات (نماذج مصغّرة) للعلم الأمريكى على ملابسهم بعد ١١ سبتمبر، فبعد هذا التاريخ أصبح الربط بين موت الأمريكيين موتًا عنيفًا فى نيويورك، والپنتاجون، والعرض الوطنى للعلم الأمريكى، مظهراً كُلّى الوجود.

يوضح إحياء عبادة العلم - بقوّة - الملمح الرئيسى لمقولة مارڤن وإنجل الآنف ذكرها، والتى مؤدّاها أنّ الموت العنيف للأمريكيين، وليس الموت العنيف لأعداء أمريكا هو التضحية الحقيقة المؤثِّرة فى توحيد الأمة الأمريكية حول العلم الأمريكى أو العلم الطوطم. هذه النظرة العميقة قد تشير أيضًا إلى سبب انشقاق الأمريكيين بسرعة كبيرة فى دعمهم لإدارة بوش فى قراره خوض الحرب فى العراق؛ لأنه بينما كان هناك عشرة آلاف قتيل عراقى لم يكن هناك إلا أقل من مائة قتيل أمريكى فى العمليات (بفضل التفوق التكنولوچى الأمريكى الكاسح) قبل إعلان إنهاء الحرب رسميًا، رغم أنّ أمريكيين كثيرين ماتوا منذ هذا الإعلان الرسمى. ووفق مقولة مارڤن وإنجل «ليست المسألة مسألة انتصار أو خسارة وإنما المسألة أن يُراق الدم بشكل خطير، فهذا هو العامل الحاسم فى «النجاح الطقوسى»[٥٦]. وعلى هذا فقد يبدو - بغرابة - محققًا لعكس المطلوب، أن يقرر بوش منع عرض اللقطات التليفزيونية التى تُظهر جثث الجنود الأمريكيين العائدة إلى قواعد القوات الجوية الأمريكية من ميدان الحرب العراقى. من الواضح أن إدارة بوش تعتقد أن مثل هذه الصور ستثير ذكريات حرب ڤيتنام، لكن ثمة دليل قوى على أن التقارير الحقيقية عن لا إنسانية الحرب، التى عانى منها المدنيون كما عانى من قبل المدنيون الڤيتناميون، خاصة الصورة الصحفية التى وضّحت هذه القسوة - مثل صورة بنت صغيرة تجرى عارية هاربة من قريتها المضروبة بالناپالم، وجلدها ساقط من ظهرها، فهذه الصورة - أكثر من أى شىء آخر هى التى أججت المعارضة ضد حرب أمريكا فى ڤيتنام. وعلى هذا كان القرار بجمع الصحفيين مع الجنود فى العراق وإرهاب الصحفيين الذين رفضوا هذا، وسيلة أكثر فعالية للتلاعب بالأخبار[٥٧].

وحجة أنّ الدين المدنى الأمريكى هو «نظام تضحوى طوطمى - totemic sacrificial system» يتضمّن صراعات مسلّحة بانتظام وموت، تساعد على شرح السبب فى أن أمريكا كانت دائمًا مستعدّة على تُسلم عدد كبير من أفراد شعبها وكثير من مواردها للأعمال العسكرية. **أكثر من ستة ملايين قدموا خدماتهم فى الحرب الكورية، وما يقرب من ٩ ملايين فى الحرب الڤيتنامية، ونصف مليون فى حرب الخليج الأولى، ومثل هذا العدد تقريبًا فى حرب الخليج الثانية. فى هذه الحروب الأربعة قُتل من الجيوش الأمريكية أكثر من ١١٠,٠٠٠ قتيل وجرح أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ ولم تكن أىّ**

حرب من هذه الحروب دفاعًا عن الأرض الأمريكية، وإنما كانت هذه الحروب تخدم غرضًا أكبر وهو «نشر دين أمريكا ـ advancing the religion of America».

إذا كانت هذه المقولة صحيحة فإن دين أمريكا ـ حقيقة ـ دين خَطر، «دين يؤدى للموت ـ death-dealing religion».

كيف تتواءم المسيحية الأمريكية ـ وبعمق ـ مع هذه العبادة ـ عبادة التضحية بالدم حول طوطمها؟ ـ على وفق تحليل مارڤن وإنجل فإن الجانب المحورى فى الإجابة عن هذا السؤال يكمن فى أن العلاقة بين الكنيسة والدولة كما شكلها الآباء المؤسسون بحيث جعلت الكنائس مسئولة عن الإيمان والتجارب الدينية للأمريكية، بينما جعلت الدولة مسئولة عن أبدانهم. قوض الفلاسفة الأمريكيون البرجماتيون هذا التقسيم للعمل فى القرن التاسع عشر، مثل ديوى ووليم چيمس اللّذين أصرّا على قصر الدين على الحياة الداخلية للبشر، بينما يُفترض أن تنظم الأحكام البرجماتية والعقل عالم السياسة. لقد عرَّف وليم چيمس ـ الذى كان تناول الدين كتجربة فى كتابه «Varities of Religion Experience» الدين باعتباره «مشاعر الفرد وأعماله وخبراته وهو فى حالة عزلة حتى يفهم نفسه فى علاقته مع من يعتبره إلهًا، أيًا ما كان هذا الإله»[٥٨]. وتحت تأثير هذه الفكرة تم تخصيص الدين بشكل فعّال وفقد قدرته على التفاعل مع الحياة العامة والسياسية فى أمريكا. هذا التحول البرجماتى صحبه بطبيعة الحال ظهور التقوية (الإيڤانجليكية) فى الاتجاه السائد فى البروتستانتية الأمريكية. وكانت النتيجة هى الانعزال المتزايد للبروتستانتية الأمريكية فى القرن العشرين عن تعاليمها السياسية والاجتماعية.

وربما يساعد هذا أيضًا فى شرح كيف أنَّ معظم المجموعات الدينية قد اعتنقت ـ دون تمييز كاف ـ الرمز الأساسى للدين المدنى الأمريكى رغم استغلاله لإضفاء القداسة على الحروب الإمبريالية الأمريكية. فالغالبية العظمى من الكنائس البروتستانتية والمعابد اليهودية ترفع العلم الأمريكى داخلها أو حول مبانيها، بل وتعرض كثير منها هذا العلم داخل المذبح نفسه، فالخدمات الدينية الطائفية ستشمل إشارة إلى الاحتفالات المتعلقة بالدين المدنى مثل: «يوم الذكرى ـ Memorial Day» و«عيد الشكر ـ Thanks giving»

والرابع من يوليو، والمناسبة الأكثر حداثة يوم مارتن لوثر كنج.. والكنائس الأمريكية أيضًا تشارك فى الحلم الأمريكى وتحتفى بنهج الحياة الأمريكية. بمختلف الطرق بدءاً من الإشارة إلى المنتجات الاستهلاكية فى مجلات الكنيسة أو الاحتفاء أثناء القداس والصلوات الدينية بتقدم أعضائها وازدهار أحوالهم وتقدّمهم فى مختلف المجالات كشاهد على البركة الإلهية التى حلّت عليهم. وتأخذ ظاهرة «الكنائس الضخمة - Megachurch» هذه الاحتفالات رافعةً إيّاها إلى ذرى عالمية جديدة عندما يصبح مبنى الكنيسة «سوقًا - مولاً» تجاريًا يحيطه كما يحيط المولات (الأسواق) الأخرى مواقف سيارات واسعة، وتقدم - الكنائس - كل شىء بدءاً من الألعاب الرياضية، ووسائل الترفيه، ومنافذ التسويق إلى صالات استخدام الحواسب الآلية، والمقاهى، وصالات الاستشارات والعلاج النفسى، وقاعات العبادة المصممة على نسق صالات السينما، حيث نجد - مرة أخرى - العلم الأمريكى - معروضًا بشكل نمطى سائد[٥٩].

ويشير التأثير الواسع للعَلَم والدين المدنى على المسيحية الأمريكية، أيضًا، بالدور الذى لعبته الكنائس فى تضخيم الشعور الوطنى والأحزان الوطنية التى اجتاحت البلاد بعد ١١ سبتمبر.

لقد لوحظ أن الرئيس بوش استخدم خطابًا فى الصلوات التى انعقدت فى ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ فى الكاتدرائية الوطنية فى واشنطن ليمتدح جَلَد الأمريكيين فى مواجهتهم للمأساة، وليشير إلى نية «تخليص العالم من الشر»، وهى نية لم يزعمها حتى يسوع المسيح نفسه: «بعد مرور ثلاثة أيام فقط(*) من هذه الأحداث فإن الأمريكيين لم يعودوا بعيدين عن التاريخ، لكن مسئولياتنا إزاء التاريخ قد أصبحت بالفعل واضحة: أن نرد على الهجمات وأن نحرر العالم من الشر»[٦٠]. تشير هذه الجملة فى هذا السّياق الطقوسى إلى أن بوش اعتزم أن يمضى أبعد من ريجان للدفع بالدِّين المدنى إلى مهمة إلهية بشن حرب ضد «أعداء أمريكا»، فبوش - مثله فى هذا مثل ريجان - يعتقد أنَّ أمريكا وحدها تقف كلها وبقوَّة ضد شرور الشمولية والطغيان. وعلى النحو نفسه فإن المسيحى (الإيفانجليكى) المحافظ تيموثى لاهى رئيس الائتلاف

(*) يتمثل فى انتفاضة أمريكا بعد ثلاثة أيام من الحادث، مثل ما فى العقيدة المسيحية من قيام المسيح من الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه - المترجم.

الأمريكى للقيم التقليدية يحاجج بأنه بدون أمريكا سيخسر عالمنا المعاصر تمامًا معركته من أجل العقل وسيعيش ـ بلا شك ـ فى دولة هى عالم واحد يتَّسم بالشمولية[٦١].

هذا التواصل بين (الإيڤانجليكية) المحافظة والدّين المدنى، يشير إلى جذور الدين المدنى الأمريكى فى المسيحية البروتستانتية. لكن عقائد الدين المدنى تختلف اختلافًا جوهريًا عن «المسيحية التقليدية ـ orthodox Christianity». بإهمالها عقيدة التثليث، خاصة تجسّد يسوع المسيح الذى قاوم الشر بغير عنف، والذى سيق للموت على أيدى الإمبراطورية ـ وبدلا من هذا فالمسيحية الإيڤانجليكية المحافظة تركّز على قصة الإله الخالق الذى وضع العالم فى حركته، والذى كشف أغراضه الإلهية بالنسبة للتاريخ ـ خاصة تاريخ أمريكا ـ كنوع من «العناية الكامنة ـ latent providence». هذا «الإله» لا يمكن إدراكه بشكل مباشر إلا من خلال فرد متديّن تقى، خاصة من خلال تكريس الفرد لتأثيرات الصلب التكفيرى للمسيح. لكن فى العالم العام، فإله أمريكا هو الأب المقدَّس للأمّة الذى يغمرها بالرخاء والذى يحارب معها أعداءها، والذى يتقبل ـ بامتنان ـ تضحيات الأمريكيين بدمائهم. فكما يحاجج «روبرت بيله»، يبدو الدين المدنى الأمريكى موظَّفا بشكل أكثر فعالية عندما يصبو إلى «الحقيقة الدينية المتعالية (المتسامية)»، «حقيقة تتكشف من خلال تجربة الشعب الأمريكى»[٦٢]، وبوش مثله مثل الرؤساء الأمريكيين الأخيرين، غالبًا ما يعزف فى خطاباته على وتر أهمية التعالى أو التسامى فى ممارسة الأمريكى. **فإله أمريكا هو إله ينفِّذ مشيئته فى العالم فى أمريكا ومن خلالها ومن خلال قواتها المسلّحة.**

وللنظام التَّضحوى فى الدين المدنى الأمريكى ـ وما به من عبادة بطولة الفرد العسكرى ـ لهذا النظام جذور فى الفردية التَّقويّة وفى الدين الرؤيوى الذى يميز الثقافة الأمريكية منذ بدايتها المؤلمة فى ڤيرچينيا ونيو إنجلاند. فالحرية بمفهومها المُستمد من رؤيتهم لأمريكا على أنها القدس الجديدة، وهم الشعب المختار أو بنو إسرائيل الجدد، فاز بها الأمريكيون الأوروبيون على حساب حياة آخرين؛ فالتوسع فى الأراضى استلزم إبعاد «أهل البلاد ـ native Americans» والمكسيكيين، كما أن الاقتصاد الوليد للمستوطنات تطلّب استرقاق مئات الآلاف من الأفارقة وشعوب الكاريبى للعمل فى مزارع الأرستقراطية الاستعمارية الجديدة، لقد جرى كسب الحرية إذن ـ بما فى ذلك

الحرية الدينية - بممارسة كثير من الظلم والعنف، وهذا شمل بالضرورة شخصنة المسيحية؛ لأنَّ الرسالة السياسية الأصلية للمسيحية ضمت - بوضوح - كل طبقات البشر؛ من العبيد إلى الأمراء فى وعدها لهم بالخلاص والحرية. بتخلل وخصخصة الأخلاقيات الروحية والاجتماعية للمسيحية، وبتحويلها من عالميتها إلى المحلية أمكن تحقيق التحالف بين الإيمان المسيحى والدين المدنى الأمريكى، ليتحول لخدمة النيوليبرالية والإمبريالية الأمريكية، وطقوس أضحياتها.

يقطع هذا التحليل شوطا فى شرح المزاوجة الغريبة بين التقوى الشخصية والعنف الإمبريالى الشرير الذى تدعمه مؤسسات الأعمال، والذى تتسم به إدارة بوش. فالقادة الدينيون الذين قابلوا بوش، وصلّوا معه فى المكتب البيضاوى، يشهدون بأنه مخلص فى معتقداته الدينية. لا شك أن بوش بدون هذا التحوّل الدينى ما كان يمكن أن يكون فى هذا المكتب البيضاوى اليوم؛ فعقيدته التى أعيد ترسيخها هى التى ساعدته على التخلى عن شرب الكحول والتخلى عن المخدرات.

يرى العلمانيون أن رياء الإيمان الخاص والفساد العام إنما يؤكد تفضيلهم للإلحاد على المسيحية، يعتقدون أن المسيحية دين شمولى، وحسنًا فعلت الحداثة إذ تخلّصت منها، فالدين عامة، مصدر لمزيد من الحروب والعنف أكثر مما هو مصدر للتآلف والوفاق. وعلى هذا يعلن جور ڤيدال أن مشكلة بوش وتونى بلير هى أن كليهما «يحب يسوع» ويلاحظ ريتشارد دوكنز أن بوش يُعد إعلانًا جيدًا «للسكارى فى حب المسيح»[٦٣]، لكن المزاوجة بين الممارسة الدينية الشخصية والعبادة القُدسية للحرية قد زكاَّها ووثّقها العنف الإمبريالى المجذّر بشكل أعمق فى النفسية الأمريكية، مما أبدته المقتطفات التى أوردناها آنفا.

بوش هو الإثمار الأخير لتحول البروتستانتية الأمريكية إلى الممارسة الدينية بوصفها الميدان الحقيقى للروحانية الأصلية، إنه تحول ترك حقيقة العنف الذى شهدته الحرب الأهلية، والمجتمع القائم على العبودية، والاقتصاد الذى تديره المؤسسات وعبادة العلم التضحوية، لينتعش دون عائق من انتقادات نبويَّة. والقائلون برؤيوية ما قبل الألفية قدّموا رؤية للتاريخ الأمريكى وتاريخ العالم تدق الناقوس - بانسجام - مع هذا الانحراف المبنى على التحول والفردية والقدسية فى الدين الأمريكى. فعملية «الاختطاف - rapture» ستنتزع الأفراد من عالم يعج بالعنف والخطيئة فى أعلاه

وأسـفله. فكلمـا زادت أعـمـال العنف فى المحـيط الاجـتـمـاعى، زادت الحـروب والشائعات التى ترعاها الحكومة الفيدرالية من خلال سياستها الخارجية، وكلما زادت التضحيات التى يقدمها الأمريكيون فى معركة النهاية، وكلما زاد هذا اقتربت اللحظة التى يتم فيها إنقاذ الفرد نهائيا من الحريق الهائل - حريق نهاية الزمان.

* * *

المراجع والتعليقات

المقدمة

1 Sheldon Rampton and John Stauber, *Weapons of Mass Deception: The Uses of Propaganda in Bush's War on Iraq* (London: Robinson, 2003), p. 25.
2 Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004).
3 Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush* (Lake Mary, FL: Charisma House, 2003), pp. 85 – 6 and 92 – 6.
4 Michael Moore, *Stupid White Men and Other Sorry Excuses for the State of the Nation* (New York: Regan Press, 2001).
5 Mansfield, *Faith of George W. Bush*, p. 109.
6 George W. Bush, 'Inaugural Address', 20 January, 2001.
7 Bush, 'Inaugural Address'.
8 Jacob Duche cited Clifford Longley, *Chosen People: The Big Idea that Shaped England and America* (London: Hodder and Stoughton, 2002), p. 66.
9 Longley, *Chosen People*, p. 67.
10 Howard Fineman, 'Bush and God', *Newsweek*, 10 March, 2003.
11 Bush, 'Inaugural Address'.
12 Bush, 'Inaugural Address'.
13 Bush, 'State of the Union Address', 29 January, 2002.
14 George W. Bush, Address at a prayer breakfast of the National Religious Broadcasters Convention, Nashville, Tennessee, 10 February, 2003.
15 Bush, 'State of the Union', 2002.
16 الليموند فى ١١ أبريل ٢٠٠٣ ذكرت فى تقرير لها أن ضابطا بريطانيا فى القيادة المركزية بقطر قدّر أنّ حوالى ٣٠٠٠ من الجيش العراقى ربما يكونون قد قُتلوا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من القصف فى شهر مارس. وسجلت هيئة مراقبة حقوق الإنسان ـ على أساس مسح أجرته فى المستشفيات العراقية ـ ٣٠٠٠ حالة وفاة أثناء الغزو.
17 George W. Bush, 'Victory Address on the *Abraham Lincoln*', April 2003.
18 George W. Bush's remarks at Central Command headquarters, February 2003.
19 Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Charles Scribner, 1955), p. 70.
20 Christopher Columbus cited Paul Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern America* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), p. 225.
21 Thomas Paine, *Common Sense* (Harmondsworth: Penguin, 1976), p. 120.

22 Catherine Keller, *Apocalypse Now and Then: A Feminist Guide to the End of the World* (Boston: Beacon Press, 1996), p. 8.
23 Charles Strozier, *Apocalypse: On the Psychology of Fundamentalism in America* (Boston: Beacon Press, 1994), p. 175.
24 Jack G. Shaheen, *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People* (New York: Olive Branch Press, 2001).
25 Bush, 'Inaugural Address'.
26 John Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern* (London: Faber and Faber, 2003).

١- سفر الرؤيا الأمريكي

1 Sacvan Bercovitch, *The Rites of Assent: Transformations in the Symbolic Construction of America* (New York: Routledge, 1993), p. 147.
2 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 137.
3 Jonathan Edwards, *A History of the Work of Redemption* (Edinburgh: W. Gray, 1774), p. 296.
4 Ernest Lee Tuveson, *Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role* (Chicago: Chicago University Press, 1968).
5 Bercovitch, *Rites of Assent*, pp. 155 – 7.
6 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 158, citing a sermon by the eighteenth-century preacher Jonathan Mayhew.
7 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 150.
8 John Quincy Adams, *An Oration Delivered on 4 July* (1837) cited Bercovitch, p. 176.
9 For an account of neoliberal economics see below chapter 3.
10 Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton and Co., 1996).
11 A. David Lindsay, *The Modern Democratic State* (London: Royal Institute of International Affairs, 1943), p. 77.
12 Jeffrey Stout, *Democracy and Tradition* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2004), p. 167.
13 Thomas J. Curry, *The First Freedoms: Church and State in America to the Passage of the First Amendment* (New York: Oxford University Press, 1986).
14 Rodney Stark and Laurence R. Iannaccone, 'A Supply Side Re-Interpretation of the "Secularisation" in Europe', *Journal for the Scientific Study of Religion*, Vol. 33 (1994), pp. 230 – 52.
15 Stanley Hauerwas, *After Christendom: How the Church is to Behave if Freedom, Justice, and a Christian Nation Are Bad Ideas* (Nashville, TN: Abingdon Press, 1991).
16 See for example Ernest R. May, *Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power* (New York: Harcourt, Brace and World, 1961).
17 Andrew J. Bacevich, *The American Empire: The Realities and Consequences of U. S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002).

18 Michael Ignatieff, 'Why are we in Iraq?', *New York Times*, 7 September, 2003.
19 Anders Stephanson, *Manifest Destiny: American Expansionism and the Empire of Right* (New York: Hill and Wang, 1995), p. 5.
20 Winthrop S. Hudson, *Nationalism and Religion in America: Concepts of American Identity and Mission* (New York: Harper and Row, 1970), p. 55.
21 Ezra Stiles, 'The United States Elevated to Glory and Honour', a sermon at the anniversary election, 8 May, 1783, New Haven, excerpted in Hudson, *Nationalism and Religion*, p. 64.
22 William Ellery Channing cited Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 49.
23 Michael Hardt and Antonio Negri, *Empire* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000).
24 On the history of the corporation in America see further David Korten, *When Corporations Rule the World* (London: Earthscan, 1995).
25 Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 75.
26 Albert J. Beveridge, 'For the Greater Republic, Not for Imperialism: An address before the Union League Club of Philadelphia, February 15, 1899', excerpted in Hudson, *Nationalism and Religion*, pp. 117 – 8.
27 William Appleman Williams, 'American Intervention in Russia: 1917 – 1920', in David Horowitz (ed.), *Containment and Revolution* (Boston: Beacon Press, 1967).
28 Michael Ignatieff, 'The Burden', *New York Times Magazine*, 5 January, 2003.
29 Ignatieff, 'The Burden'
30 Albert K. Weinberg, *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History* (Baltimore: John Hopkins Press, 1935), pp. 63 – 4.
31 Woodrow Wilson cited Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 469.
32 Robert Jewett and John Shelton Lawrence, *Captain America and the Crusade Against Evil* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2003), p. 73.
33 Wilson cited Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 470.
34 Wilson at Oakland cited Tuveson, *Redeemer Nation*, p. 211.
35 Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 123.
36 Mike Davis, 'Furcht vor der Fünften Kolonne' cited and trans. Ulrich Duchrow in Ulrich Duchrow and Franz J. Hinkelammert, *Property for People, Not for Profit: Alternatives to the Tyranny of Global Capital* (London: Zed Books, 2004), p. 116.
37 Stout, *Democracy and Tradition*, p. 200.
38 Steve Brouwer, Paul Gifford and Susan D. Rose, *Exporting the American Gospel: Global Christian Fundamentalism* (New York: Routledge, 1996) pp. 47 – 9.
39 Piero Gleijeses, *Shattered Hope: The Guatemalan Revolution and the United States 1944 – 1954* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).
40 National Security Council, National Security Decision Memorandum 93, Policy Towards Chile, 9 November, 1970 archived at http://

www.lakota.clara.net/Library/nsaebb8/nsaebb8.htm.
41 Department of Defense, U.S. Milgroup, Situation Report 2, 1 October, 1973, archived at http://www.lakota.clara.net/Library/nsaebb8/nsaebb8.htm.
42 Christopher Hitchens, *The Trial of Henry Kissinger* (London: Verso, 2002).
43 Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for Control of Iran* (London: McGraw Hill, 1970).
44 Mark Curtis, *Web of Deceit: Britain's Real Role in the World* (London: Vintage, 2003), pp. 310 – 11.
45 Annabelle Sreberny-Mohammadi, *Small Media, Big Revolution: Communication, Culture, and the Iranian Revolution* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1994).
46 Curtis, *Web of Deceit*, p. 38.
47 Rampton and Stauber, *Weapons of Mass Deception*, p. 76.
48 'Interview with Zbigniew Brezinski', *Le Nouvel Observateur*, 15 – 21 January, 1998, p. 76.
49 Ahmed Rashid, *Taliban: Islam, Oil and the New Great Game in Central Asia* (London: I. B. Tauris, 2002), p. 18.
50 Ahmed Rashid, 'The Taliban: Exporting Extremism', *Foreign Affairs*, Vol. 78, No. 6, (November – December 1999), pp. 22 – 35.
51 John L. Esposito, *Unholy War: Terror in the Name of Islam* (Oxford and New York: Oxford University Press, 2002), pp. 10 – 11.
52 Rashid, *Taliban*, p. 211.
53 Malise Ruthven, *A Fury for God: The Islamist Attack on America* (London: Granta, 2002), pp. 134 – 5.
54 Rashid, *Taliban*, p. 211.
55 Nafees Mosaddeq Ahmed, *The War on Freedom: How and Why America was Attacked September 11, 2001* (Joshua Tree, CA: California, 2002).
56 Esposito, *Unholy War*, p. 11.
57 Robert Fisk, Interview with Osama bin Laden, *The Independent*, 6 December, 1996.
58 Osama bin Laden, 'Letter to the American People', *The Observer*, 24 November, 2002.
59 Shirley McArthur, 'A Conservative Total for US Aid to Israel: $91 Billion and Counting', *Washington Report on Middle Eastern Affairs*, pp. 15 – 16 (January – February 2001).
60 Robert Fisk, 'American Billions Keep Arabs Sweet', *The Independent*, 2 March, 2003.
61 Interview with Osama bin Laden cited Esposito, *Unholy War*, p. 24.
62 Chalmers Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire* (New York: Owl Books, 2003).
63 Interview with Zbigniew Brzezinski, *Le Nouvel Observateur*, 15 – 21 January, 1998, p. 76.
64 Francis Fukuyama, 'The End of History', *The National Interest*, Summer, 1989.
65 On the religious right's influence on American foreign policy see Martin

William, 'The Christian Right and American Foreign Policy', *Foreign Affairs*, Spring, 1999.
66 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, pp. 21 – 5.
67 Farhang Rajaee, 'Islam and Modernity: The Reconstruction of an Alternative Shi'ite Islamic Worldview in Iran', in Martin E. Marty and R. Scott Appleby (eds.), *Fundamentalisms Observed: Reclaiming the Sciences, the Family and Education* (Chicago: Chicago University Press, 1993), p. 103.
68 Jalal Al-e Ahmad as quoted in R. Scott Appleby, *The Ambivalence of the Sacred: Religion, Violence, and Reconciliation* (Lanham, Maryland: Rowan & Littlefield, 2000), p. 87.
69 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, p. 77.
70 Bryan S. Turner, *Orientalism, Postmodernism and Globalism* (London: Routledge, 1994), p. 87.
71 Gilles Kepel, *The Revenge of God* (Cambridge: Polity Press, 1993).
72 Sayyid Qutb, *Milestones* (Delhi: Markazi Maktaba Islami, 1981) p. 111.
73 Maududi, *al-Jihad fi sabil Allah* cited Ruthven, *Fury for God*, pp. 70 – 1.
74 Qutb, *Milestones*, pp. 50 – 1.
75 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, p. 25.
76 Stanley Hauerwas, *The Peaceable Kingdom: A Primer in Christian Ethics* (London: SCM Press, 1983), pp. 60 – 1.
77 Reinhold Niebuhr, *The Children of Light and the Children of Darkness: A Vindication of Democracy and a Critique of Its Traditional Defenders* (London: Nisbet and Co., 1945).
78 Robert Kagan, *Paradise and Power: America and Europe in the New World Order* (London: Atlantic Books, 2003), p. 100.
79 Kagan, *Paradise and Power*, p. 88.
80 *Irony of American History*, pp. 75, and 134 – 8.
81 Stanley Hauerwas, *Dispatches from the Front: Theological Engagements with the Secular* (Durham, NC: Duke University Press, 1994), pp. 101 – 5.
82 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, pp. 101 ff.
83 Norman Cohn, *The Pursuit of the Millennium: Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages* (revised and expanded edition, London: Temple Smith, 1970).
84 Oliver O'Donovan, *The Desire of the Nations: Rediscovering the Roots of Political Theology* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 152 – 4.

٢- ضيـــاع الحـــلم

1 Paul A. Baran and Paul M. Sweezy, *Monopoly Capital: An Essay on the American Economic and Social Order* (London: Monthly Review Press, 1990).

2 Robert Bellah et. al. (eds.), *Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life* (Berkeley, CA: University of California Press, 1985).
3 Lindsay, *Modern Democratic State*, pp. 122 – 4.
4 On the origins of the modern American corporation see further David C. Korten, *When Corporations Rule the World* (Bloomfield, CT: Kumarian Press, 1996).
5 David H. Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways In America* (Oxford: Oxford University Press, 1989).
6 Fischer, *Albion's Seed*, p. 411.
7 Richard Hofstadter, *The American Political Tradition and the Men Who Made It* (London: Jonathan Cape, 1962), p. 11.
8 John Locke, *Two Treatises on Civil Government*, II, para. 32.
9 Locke, *Civil Government*, II, para. 4.
10 Locke, *Civil Government*, II, para. 6.
11 Barbara Arneil, *John Locke and America: The Defence of English Colonialism* (Oxford: Clarendon Press, 1996), p. 151.
12 See further my discussion of Aquinas' views on property in Michael S. Northcott, *The Environment and Christian Ethics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996).
13 Will Hutton, *The World We're In* (London: Abacus, 2003).
14 Jonathan Clark, *The Language of Liberty, 1660 – 1832: Political Discourse and Social Dynamics in the Anglo-American World* (Cambridge: Cambridge University Press 1994), pp. 38 – 9.
15 Mark Noll, *America's God: From Jonathan Edwards to Abraham Lincoln* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 9.
16 Noll, *America's God*, p. 49.
17 Noll, *America's God*, p. 56.
18 Ezra Stiles, cited Noll, *America's God*, p. 64.
19 See below chapter 3 for a fuller account of civil religion in America.
20 Dietrich Bonhoeffer, 'Protestantism with Reformation' in *No Rusty Swords: Letters, Lectures and Notes from the Collected Works*, edited by Edwin H. Robertson, trans. John Bowden with Eberhard Bethge (London: Fontana, 1970), p. 100.
21 J. F. Maclear, 'The Republic and the Millennium' in Elwyn A. Smith (ed.), *The Religion of the Republic* (Philadelphia, PA: Fortress Press, 1971).
22 G. W. F. Hegel, *Lectures on the Philosophy of World-History: Introduction – Reason in History* cited Richard Rorty, *Achieving Our Country: Leftist Thought in Twentieth Century America* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 21.
23 Rorty, *Achieving Our Country*, p. 19.
24 John Dewey, 'Creative Democracy – The Task Before Us', in *Later Works of John Dewey*, Vol. 14 cited Rorty, *Achieving Our Country*, p. 29.
25 Rorty, *Achieving Our Country*, p. 30.
26 Mark A. Noll, 'Introduction' in Mark A. Noll (ed.), *God and Mammon: Protestants, Money, and the Market, 1790 – 1860* (Oxford: Oxford University Press, 2001), p. 11.

27 Charles Sellers, *The Market Revolution: Jacksonian America 1815 – 1846* (Oxford: Oxford University Press, 1991).
28 Sellers, *The Market Revolution*, pp. 29 – 30.
29 Noll, *God and Mammon*, p. 12.
30 Maclear, 'The Republic and the Millennium', p. 201.
31 Roger Finke and Rodney Stark, 'How the Upstart Sects Won America: 1776 – 1850', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 28 (March 1989) cited Noll, *God and Mammon*, p. 11.
32 David Paul Knord, 'Benevolent Capital: Financing Evangelical Book Publishing in Early Nineteenth-century America' in Noll (ed.), *God and Mammon*, pp. 147 – 70, and Kathryn T. Long, 'Turning ... Piety into Hard Cash: The Marketing of Nineteenth-century Revivalism' in Noll (ed.), *God and Mammon*, pp. 236 – 64.
33 Mark A. Noll, 'Protestant Reasoning about Money and the Economy, 1790 – 1860: A Preliminary Probe' in Noll (ed.), *God and Mammon*, p. 267.
34 Gordon Wood cited Noll, 'Protestant Reasoning about Money', p. 267.
35 Noll, 'Protestant Reasoning about Money', p. 269.
36 Henry Ward Beecher cited George M. Marsden, *Fundamentalism and American Culture: The Shaping of Twentieth-Century Evangelicalism: 1870 – 1925* (Oxford: Oxford University Press, 1980), p. 21.
37 Max Weber traces this alliance of piety and capitalism to the influence of Benjamin Franklin in *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, trans. Talcott Parsons (London: Allen and Unwin, 1976).
38 Michael Williams, *This World is Not My Home: The Origins and Development of Dispensation ..ism* (Fearn, Rosshire: Mentor Press, 2003), p. 9.
39 J. N. Darby, *Collected Works* XI, p. 156 cited Timothy P. Weber, *Living in the Shadow of the Second Coming: American Premillennialism 1875 – 1925* (Oxford: Oxford University Press, 1979), p. 22.
40 Weber, *Living in the Shadow*, p. 42, and Williams, *This World is Not My Home*, p. 113.
41 Dwight L. Moody, *New Sermons* cited Williams, *This World is Not My Home*, pp. 41 – 2.
42 Shirley Anne Case, *The Millennial Hope* cited Weber, *Living in the Shadow*, p. 66.
43 Chafer, *Satan and the Satanic System* cited Williams, *This World is not My Home*, p. 53.
44 Charles Schofield, *What Do the Prophets Say?* cited Paul Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture* (Cambridge, MA: Belknap Press, 1992), p. 98.
45 R. A. Torrey, *What the Bible Teaches* cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 101.
46 Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 184.
47 Schofield Bible cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 185.
48 Theodore Herzl, *The Jewish State*, trans. Sylvie d'Avigdor (London: Nutt, 1896).

49 William E. Blackstone cited Weber, *Living in the Shadow,* pp. 138 – 9.
50 Weber, *Living in the Shadow,* p. 141.
51 Hal Lindsey, *The Late Great Planet Earth* (New York: Bantam Books, 1973), p. i.
52 Increase Mather, *The Mystery of Israel's Salvation, explained and applyed; or a discourse concerning the general conversion of the Israelitish nation, etc* (London, 1669)
53 Lindsey, *Late Great Planet Earth,* pp. 40 and 47.
54 N. T. Wright, *Jesus and the Victory of God* (Minneapolis, MN: Fortress Press, 1996).
55 Lindsey, *Late Great Planet Earth,* p. 68.
56 Lindsey, *Late Great Planet Earth,* p. 83.
57 Lindsey, *Late Great Planet Earth,* p. 101.
58 Lindsey, *Late Great Planet Earth,* pp. 152 – 7.
59 Ronald Reagan cited Boyer, *When Time Shall Be No More,* p. 142.
60 Boyer, *When Time Shall Be No More,* p. 144.
61 James Robison cited Boyer, *When Time Shall Be No More,* p. 145.
62 Keller, *Apocalypse Now and Then,* pp. 4 – 5.
63 George Monbiot, 'Apocalypse Please', *The Guardian,* 20 April, 2004.
64 Suskind, *The Price of Loyalty.*
65 These figures are derived from the World Bank's *World Development Indicators 2000* as cited Ted Honderich, *After the Terror* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2002), p. 8.
66 Molly Ivins and Lou Dubose, *Bushwhacked: Life in George W. Bush's America* (New York: Random House, 2003), p. 39.
67 Paul Krugman, 'For Richer', *New York Times Magazine,* 20 October, 2002.
68 Robert Kaplan, 'Manifest Destiny: An Interview with Robert D. Kaplan', *The Atlantic Online,* 16 September, 1998, http://www.theatlantic.com/unbound/bookauth/ba980916.htm. See also Robert D. Kaplan, *An Empire Wilderness: Travels Into America's Future* (New York: Random House, 1998).
69 Honderich, *After the Terror.*
70 Figures from the *Federal Reserve Bulletin* cited Ivins and Dubose, *Bushwhacked,* p. 44.
71 Honderich, *After the Terror,* p. 108.
72 'The Christian World View of Economics', Coalition for Revival cited Laurence Iannaccone, 'Fundamentalism and Economics in the US' at http://www.gordon.edu/ace/pdf/Iannaccone_Fundamentalism.pdf.
73 Ivins and Dubose, *Bushwhacked,* p. 13.

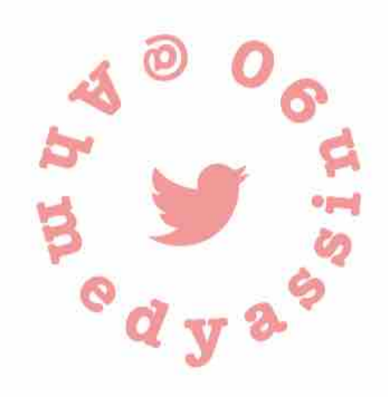
٣- الإمبراطورية تكشف عن وجهها

1 Wes Howard Brook and Anthony Gwyther, *Unveiling Empire: Reading Revelation Then and Now* (Maryknoll, NY: Orbis Books, 1999).

2 Christopher Rowland, *The Open Heaven: A Study of Apocalyptic in Judaism and Early Christianity* (London: SPCK, 1982), p. 9.
3 C. K. Barrett, 'New Testament Eschatology' cited Rowland, *Open Heaven*, pp. 2 – 3.
4 Christopher Rowland, *The Open Heaven: A Study of Apocalyptic in Judaism and Early Christianity* (London: SPCK, 1982).
5 Richard Baukham, *The Climax of Prophecy: Studies in the Book of Revelation* (Edinburgh: T. and T. Clark, 1993).
6 Christopher Rowland, *Revelation* (London: Epworth, 1993), p. 3.
7 I owe this way of putting things to my friend Wilf Wild, who pointed out the link between veiling and ideology in a personal communication.
8 Andrew J. Bacevich, *The American Empire: The Realities and Consequences of U. S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), p. 30.
9 Bacevich, *American Empire*, p. 30.
10 Arthur M. Schlesinger Jr, *The Cycles of American History* cited Bacevich, *American Empire*, p. 30.
11 Bacevich, *American Empire*, p. 31.
12 Casper Weinberger cited Alex Callinicos, *The New Mandarins of American Power* (Cambridge: Polity Press, 2003), p. 64.
13 Madeleine Albright cited Callinicos, *The New Mandarins*, p. 64.
14 Patrick E. Tyler cited Bacevich, *American Empire*, p. 44.
15 Project for the New American Century, *Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century* (Washington, DC: PNAC, 2000), p. 1.
16 On the American war in Columbia see Noam Chomsky, *Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance* (London: Hamish Hamilton, 2003), pp. 52 – 4.
17 PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. v.
18 Robert Fisk, 'This looming war isn't about chemical warheads or human rights: it's about oil', *The Independent*, 18 January, 2003.
19 PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. 4.
20 *The National Security Strategy of the United States of America*, foreword by George W. Bush, The Whitehouse, Washington DC, September 2002.
21 Bacevich, *American Empire*, pp. 38 – 40.
22 Newt Gingrich cited Bacevich, *American Empire*, p. 39.
23 Joseph S. Nye, *The Paradox of American Power: Why the World's Only Superpower Cannot Go It Alone* (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 78 – 81.
24 George W. Bush, 'Address of the President to the Joint Session of Congress', Washington DC, 27 February, 2001.
25 For a full list of the hundreds of American military operations since the end of the Cold War, see Vidal's essay 'Black Tuesday' in Gore Vidal, *The Last Empire: Essays 1992 – 2001* (London: Abacus, 2002), pp. 303 – 24.
26 Bacevich, *American Empire*, pp. 230, 232.
27 Immanuel Kant, *Perpetual Peace: A Philosophical Sketch, 1795*, trans. Frieden Zumewigen (London: Allen and Unwin, 1915).

28 George W. Bush, 'Remarks by the President at the Citadel', cited Bacevich, *American Empire*, p. 238.
29 Friedrich A. Hayek, *The Road to Serfdom* (New York: George Routledge and Sons, 1944).
30 Hayek, *The Road to Serfdom*, p. 19.
31 Leo Strauss, *Liberalism Ancient and Modern* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1995).
32 Charles Murray used Edmund Burke's phrase 'small platoon' in a plenary address on the neoconservative economic and political vision which he gave at the annual meeting of the Societas Ethica in Sigtuna, Sweden on 2 September, 2003.
33 Bush, 'Inaugural Address'.
34 'George W. Bush and the Real State of the Union', *The Independent*, 20 January, 2004, p. 1.
35 Richard Stivers, *The Culture of Cynicism: American Morality in Decline* (Oxford: Blackwell, 1994).
36 James F. Petras and Henry Veltmeyer, *Globalization Unmasked: Imperialism in the 21st Century* (Halifax, Nova Scotia: Fernwood, 2001).
37 Joseph Stiglitz clearly identifies the American-based International Monetary Fund, and other American banks, economists and corporations as those principally responsible for the economic collapse of Argentina in his *Globalization and its Discontents* (London: Allen Lane, 2002), pp. 68 – 70.
38 UNICEF, *The Progress of Nations*, cited Noam Chomski, *Rogue States: The Rule of Force in World Affairs* (London: Pluto Press, 2000), p. 136.
39 Richard Land, 'Talking the Talk: Responses', in Michael Cromartie and Irving Kristol (eds.), *Disciples and Democracy: Religious Conservatives and the Future of American Politics* (Washington: Ethics and Public Policy Center and Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1994), pp. 99 – 104 (102).
40 Land, 'Talking the Talk', pp. 102 – 3.
41 Stiglitz, *Globalization and its Discontents*.
42 Helen Caldicott, *The New Nuclear Danger: George W. Bush's Military-Industrial Complex* (New York: The New Press, 2002).
43 Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997).
44 Joseph Schumpeter, *Imperialism and Social Classes* trans. Heinz Norden (Oxford: Basil Blackwell, 1951).
45 Nafeez Mosaddeq Ahmed, *The War on Freedom: How and Why America was Attacked on September 11, 2001* (Joshua Tree, CA: Tree of Life Publ., 2002), p. 88.
46 *Newsweek*, 24 September, 2001.
47 Andrew J. Bacevich, 'New Rome, New Jerusalem', in Andrew J. Bacevich (ed.), *The Imperial Tense: Prospects and Problems of American Empire* (Chicago: Ivan R. Dee Publ., 2003), p. 97.
48 Jean-Jacques Rousseau, *The Social Contract*, trans. Maurice Cranston (London: Penguin, 1968).
49 Robert Bellah, 'Civil Religion in America', *Daedalus*, 96, 1 (Winter 1967), pp. 1 – 21.

50 Carolyn Marvin and David W. Ingle, *Blood Sacrifice and the Nation: Totem Rituals and the American Flag* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), pp. 1 – 2.
51 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 3.
52 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 3.
53 René Girard, *The Scapegoat*, trans. Yvonne Freccero (London: Athlone Press, 1986), pp. 40 – 2.
54 René Girard, *Things Hidden from the Foundation of the World*, trans. Stephen Bann and Michael Metteer (London: Athlone Press, 1987), p. 136.
55 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 10.
56 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 89.
57 See further Jolyon P. Mitchell, *The Media and Christian Ethics* (Cambridge: Cambridge University Press, forthcoming).
58 William James, *The Varieties of Religious Experience* (London: Longman, Green and Co., 1902), p. 34.
59 On the rise of the megachurch see further Kimon Howland Sargeant, *Seeker Churches: Promoting Traditional Religion in a Nontraditional Way* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2000).
60 President George W. Bush's address at the Washington National Cathedral Prayer Service, 14 September, 2001.
61 Timothy LaHaye, *The Battle for the World* (New Jersey: Revell, 1980), p. 35.
62 Bellah, 'Civil Religion in America'.
63 Gore Vidal in an interview with columnist Liz Smith, *New York Post*, April 4, 2003, ' Richard Dawkins,'Letter to the President', *The Guardian*, 19 October, 2003.



@Ahmedyassin90

